مَكاوي سَعيد

3.1.2015
@ketab_n

تَغريدَة البَجعَة

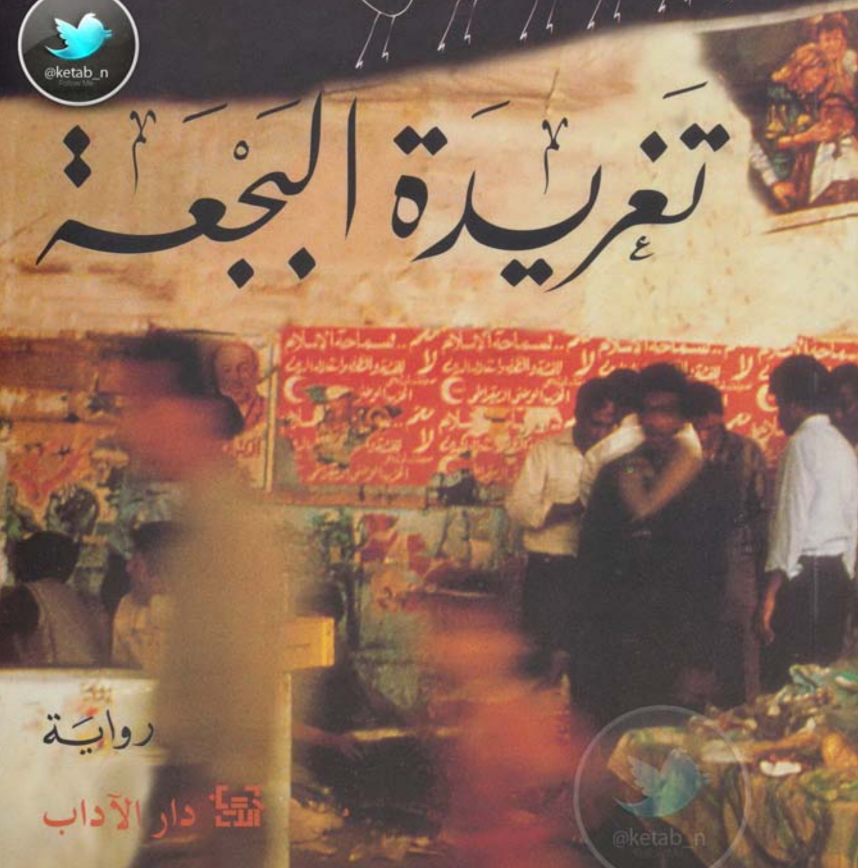

رواية

دار الآداب

جائزة BOOKER
اللائحة القصيرة

@ketab_n

مكاوي سعيد

تغريدة البجعة

@ketab_n

رواية

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

تغريدة البجعة

Twitter: @ketab_n

تغريدة البجعة

مكاوي سعيد/ كاتب مصري

الطبعة الأولى لدى الآداب عام 2008
الطبعة الثانية لدى دار الآداب عام 2012
ISBN 978-9953-89-060-9

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

Twitter: @ketab_n

إهداء أوّل

إلى أختي «فاطمة»

التي لولا مؤازرتها لي لما اكتملت هذه الرواية،

وإلى أخي الأكبر «عثمان»

الذي رعاني صغيرًا،

وإلى كل القلوب المحبّة

التي لا تزال تقدّم لي الدعم..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إهداء ثان

إلى البرق الدافئ

الذي صادفته وأَسَرْته بقلبي ولن أفلته أبدًا..

رحمةً بي اهدأ واسْتكِن..

«مكّاوي»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ١ ـ

الوقت بعد منتصف الليل بقليل، والمقهى على وشك الإغلاق، ثمّة روّاد قلائل لا يشغلون أكثر من منضدتين، يلعبون بروح ثأريّة غير مبالين بالبرد والصقيع، كنت أحتمي بوجودهم ضدّ كآبة الجرسون وعصبيّته وهو ينظر إلى ساعته بمعدّل ثابت كل خمس دقائق، ثم يهزّ رأسه بعصبيّة وغيظ. أنا الآن بحاجة ماسّة إلى الجلوس أكبر مدّة ممكنة في ظلّ هذا الجوّ القارس. كنت أرقبه بتوتّر متمنّيًا ألاّ يعلن إغلاق المقهى. كلّما هَمّ برفع كوب شاي أو فنجان قهوة ومسح بخرقته البالية سطح المنضدة كنت أسارع فأطلب مشروبًا جديدًا.. جلس إلى جواري يزفر ويدعك يديه طلبًا للدفء، همست له طالبًا كوبًا من الكاكاو الساخن، من دون حتى أن يلتفت ناحية المقهى، ويسأل العامل الذي يُعدّ المشاريب خلف النصبة، قال بحدّة كأنّه يحرّضني على الانصراف:

ـ الأنبوبة خلصت ما عدش فيه حاجة سخنه.

طلبت زجاجة بيبسي دون أن أنظر إليه، فقام متكاسلاً ثم عاد بعلبة بيبسي تكاد تكون مجمّدة، ثم وضعها أمامي بعنف محسوب على المنضدة مصدرًا صوتًا مكتومًا، طلبت منه كوبًا فارغًا أصبّ فيه البيبسي. كان يراقب منضدةً زبائنها على وشك الرحيل، أهملني وتحرّك باتجاههم ليأخذ الحساب.. حاسبهم وعاد واضعًا يديه في جيبيْ مريلته الأماميين العريضين، انتبه لما كنت قد طلبته، وجاء

Twitter: @ketab_n

بالكوب ليجالسني مرّة أخرى قائلاً بصوت حاول أن يكون ودودًا:

ـ على فكرة الحاجة الساقعة أحسن حاجة في الجوّ ده..

لم أهتمّ بالردّ، تشاغلت بالنظر نحو المنضدة الوحيدة التي لاتزال تحتفظ بزبائن، حيث يجلس إليها ثلاثة أفراد، اثنان كانا يلعبان وثالث يشجّع، وكان الصبي واقفًا إلى جوارهم ممسكًا بمصفاة الفحم المشتعل، وهو يرتعش ارتعاشات طفيفة من البرد.. يشغل نفسه بمتابعة اللعب، وأحيانًا يقرب منهم مصفاة الفحم؛ فيتوقّفون عن اللعب ويمرّرون أياديهم للحظات فوق النار المتوهّجة، ثم يعاودون لعبتهم.. واصل الجرسون مهمّته في تطفيشي، حيث بدأ يعدّ الماركات فوق طاولتي، كانت كل ماركة يلقي بها على المنضدة تصدر صوتًا معدنيًّا متزامنًا مع محاولتي شرب البيبسي المثلّج فتصطك أسناني بشدّة، توتّرت، وقبل أن يهمّ برمي ماركة أخرى جديدة، وضعت يدي على كومة الماركات فسقطت الماركة على ظهر يدي، افتعلت ابتسامة وأنا أقول له:

ـ آسف.. صوتهم بيعصّبني.. عِدّهم جوّه.

تفرّسني مليًّا، وهو يجزّ على أسنانه قائلاً بصوت معدني رتيب:

ـ إحنا شطّبنا يا أستاذ.

قبل أن أومئ له برأسي تجاه الجالسين من حولي، كان قد نهض وهو يقول بصوت عالٍ:

ـ دول أصحاب القهوة.

أشعلت سيجارة وبقيت منتظرًا خروجه من الداخل، وبمجرّد ظهوره أشرت إليه، رفض سيجارتي التي قدّمتها إليه وأنا أطلب الحساب، فأعطيته ما طلبه وإكراميّة تفوق قيمة الحساب، ظلّ يشكرني بكلمات

Twitter: @ketab_n

باردة، ثم تحرّك تجاه المنضدة الأخرى متظاهرًا بمراقبة اللعب.

أنهيت سيجارتي وجلست متلكّئًا أشعل سيجارة أخرى، وكنت أعرف أنّه يراقبني بطرف عينه، عاد ليجلس جواري كما توقّعت، تردّد قليلاً ثم همس لي:

ـ لو سيادتك مزنوق.. فيه بنسيونات وفنادق رخيصة جنب المقام، أشحت إليه بالرفض، فاستطرد كآلة جرامفون عتيقة وهو يشير إلى الصبي الذي يحمل مصفاة الفحم بتون الصوت نفسه:

ـ برعي ساكن في البيت نفسه اللي فيه القهوة وعنده مُكنه كويّسة فوق السطح.. لو مواعد مُزّة ولا مؤاخذة.. ممكن تاخدها عنده.. بعشرة جنيه مش هايمانع يعملك أراجوز.

كانت تلك لحظة فاصلة في الحديث بيننا لو استسلمت إليه سيتابع فتح براميل العفن والقذارة لنهايتها، أسكتُّه بنظرة حادّة، وغادرت المقهى بينما كان مَنْ حول المنضدة الأخرى يهمّون بالانصراف. بدأت أشعر بأنّ السير في البرد يسبّب لي توتّرًا إلى حدّ ما، والميدان الفسيح الخالي من المارّة المغمور بالأضواء الكابية يقترب منّي. صدى أصوات نباح الكلاب، وحركة الريح يتزايدان عقب كل فترة سكون. وأنا أحاول تذكّر المكان، رنّ جهاز المحمول رنّات صاخبة زادت من توتّري. بادرتها على الخطّ بغيظ مكبوت:

ـ لطعني على القهوة ومجاش.

تنبّهت أنّ مفردة «لطعني» قد تكون غريبة عليها، استدركت: سابني قاعد لغاية القهوة ما قفلت.

ردّت هي بعدّة كلمات تجمع بين الغيظ والاسترابة، ثم قالت حسمًا للأمر:

ـ لو فيه تطوّرات كلّمني..

Twitter: @ketab_n

أخطأت يدي جيب الجاكت كالعادة فسقط المحمول على الأرض محدثًا صوتًا مريعًا، سَبَبْتُها وسَبَبْتُ الطقسَ والحبّ والغرائز والملل والعقائد وأنا أنحني لالتقاطه. كانت الكوفيّة قد انزاحت قليلاً فتعرّت رقبتي وهاجمني برد قارس. تأمّلت المحمول وقد أصبح في يدي جثّة هامدة لا تنطق، وعلى شاشته شبكة عنكبوتيّة لانهائيّة. ثم وضعته في جيبي بغضب.

عند وصولي إلى الميدان، أصبحت هدفًا ممتازًا لكافّة التيّارات الهوائيّة الباردة المتدفّقة من كل الاتجاهات. الحواري. الأزقّة. الشوارع. مداخل البيوت. كان مسجد السيّدة زينب يبدو أخّاذًا وفاتنًا من خلال الضباب الكثيف. التجأت إلى باب صاج لأحد المحال المغلقة واستندت إليه، ثم بالكاد جلست على الرخام البارد لفاترينة العرض متحسّسًا بإليتيّ المساحة الضيّقة الخالية بين الخوازيق الحديديّة التي ابتكرها السّادي صاحب المحلّ لمنع الجلوس. أشعلت سيجارة بآخر عود ثقاب نجا من سطوة سيل الرّيح البارد الجارف. كنت أنتظر شبحًا لا مرئيًا. من أجل أن أخبر «مارشا» بأنّه سيتعاون معنا. ولو جلبته إليها الآن بعد أن تكون قد أتت على زجاجة الويسكي وباكتة البانجو، ستطير بنا إلى السماء غير آبهة بالسحب والثقب الأسود والسديم..

أُغلقتْ نوافذ بدويٍّ وفُتِحَتْ أخرى بعنفٍ. ازدادت حركة الهواء والأشجار التي تلتوي أغصانها عاجزة عن المقاومة، وتهاوت الأغصان الخائبة على الأرض. نهضت من مكاني سائرًا أسفل قواعد البلكونات. كانت اللافتات الإعلانيّة العملاقة تهتزّ بشدّة فوق أسطح المباني الضخمة المحيطة بالميدان. وعيناي مصوّبتان إلى أعلى ترقّبان بخوف سقوط إحداها فوق رأسي. سرت فترة حتى سكنتْ الريح،

Twitter: @ketab_n

وقرّرت على أيّ حال أن أنهي هذه الليلة مهما كلّفني الأمر. اتجهت عشوائيًا إلى اليمين معتمدًا على وصف غير دقيق أعطاه لي كريم. لم أر أيًا من المعالم التي كان قد ذكرها لي. لكن بعد دقائق من التفحّص الدقيق وجدت محلاً صغيرًا مغلقًا وعليه لافتة رديئة تعلن أنّه محلّ لرفء الملابس، وكان بجواره محلّ آخر كبير نوعًا ما، ومغلق أيضًا كسائر محلات الشارع، ويبدو محلاً لتغيير واستبدال وشراء كاوتشوك السيّارات. لم تكن هناك لافتة، لكن دلّني عليه بعض إطارات الكاوتشوك المعلّقة على عمود الإضاءة أمام المحل.

أمام هذه المحلات، يقبع البيت المتهدّم الواجهة والمعتم بفعل أعمدة الإضاءة ذات المصابيح المهشّمة. حدّقت فيه. كانت ثمّة أضواء غير منتظمة، ضعيفة جدًا وتتحرّك في كل مكان. كنت كطيّار حربي يراقب هدفًا صغيرًا مراوغًا. عبرت نحوه إلى الجهة المقابلة. تجرّأت أكثر واجتزت مدخله الخالي من بوّابة حديديّة. مكثت فترة غير قادر لا على التقدّم إلى الأمام ولا على التراجع. فجأة تحوّلت أكوام وأكياس القمامة والطوب والحصى والطين التي تحيط بي إلى صبية وبنات بعددها لا يزيد سنّ أكبرهم عن العاشرة. حاصروني. وأخرج أطولهم موسى من تحت لسانه وراح يلوّح به في وجهي الذي ابتعدت به قدر الإمكان. كانت فتاته الصغيرة تقترب منّي في ظلّ حماية الموسَى. هبطت يد الصبي إلى أسفل محدثةً بحدّ موساه قطعًا طوليًا في السويتر الجلدي الذي كنت أرتديه. قبضت على يد الفتاة الصغيرة في جيبي وهي ممسكة بجهاز المحمول. صرخت البنت بتبجّح. ازدادت حدّة العنف والشراسة وضوحًا على ملامحهم. تركت يدها بسرعة دون أن أعتزم متابعتها وهي تقفز به إلى الداخل. صرختُ فيهم:

ـ أنا عايز كريم..

Twitter: @ketab_n

حلّ الصمت فجأة وتوقّفت أياديهم المشرعة نحوي بالأسلحة الصغيرة، وبدأوا يتبادلون النظر وكأنّ هناك اتفاقًا ما فيما بينهم. ثم فجأة هربوا في كل اتجاه واختفوا تمامًا.

مشيت غير آبه بنباح الكلاب ولا بالرياح الباردة التي عادت أقوى ممّا كانت، غير آبه بأفرع الشجر التي يتوالى سقوطها طوال الطريق.. ولا حتى عندما سقطت لافتة عملاقة على الأرض وكادت تسوّيني بها.

Twitter: @ketab_n

ـ ٢ ـ

شارفت الشمس على الغروب، وأنا مستمتع بمراقبة الحمام الجبلي الذي اتّخذ لنفسه مخبأً أسفل شرفتي يجمّع فيه طعامه وقشّه، ليطير به إلى السطح المقابل، حيث أعشاشه وأوكاره هناك، فجوات نافذة في الخراسانة المتآكلة أسفل سور السطح. لم أر «مارشا» طيلة الأيّام الثلاثة الماضية وهاتف منزلي معطّل منذ فترة، ومحمولي تهشّم وسُلِبَ منّي، وليس لديّ اشتراك بشبكة NET. . كانت مارشا معتادة على اختفائي، ويحدث بيننا كثير من الهدنات الإجباريّة. أبدأ بها عندما أزهق منها، تبادر هي بها عندما تريد التفرّغ لعمل ما. كنت أشعر بحالة من الملل تتلبّسني وتكاد أن تدفع بي لكي أجري وأرتدي ملابسي وأهرع إليها. قرّرت أن أسهر في أيّ نايت بوسط البلد بعد أن أمر على أتيلييه عصام وأصطحبه معي. طَرْق متواصل وجرس لا ينقطع أربكني.

بالقطع لن تكون مارشا، ومن الجائز أن يكون عصام. هرعت لأفتح الباب. باغتتني زينب وهي تدفعني إلى الداخل وتقبّل وجنتي. أغلقت الباب خلفها وأنا شارد. كيف غاب عنّي أنّها زينب؟ اختلفنا وتخاصمنا كثيرًا، وكانت تنهي القطيعة والخصام بالحضور أو برسائل على المحمول، أو بأخرى على الورق تلصقها على الباب غير مهتمّة بالسكّان أو الجيران أو من يهمّه الأمر.

كانت جالسة على الأريكة منهمكة في إخراج الكاسيت الصغير، وتثبيت الهدفون بأذنيها، ووضع الورق الدشت بين يديها، وحذاؤها

Twitter: @ketab_n

مقلوب على الأرض، وكانت قد بدأت تستعدّ للكتابة وكأنّني غير موجود بالمرّة أو كأنّه ليست هناك مشكلة بيننا. ثم لمّا وجدتني أتفحّصها، شكّلت إبهامها وسبابتها على هيئة كوب وجّهته إلى وجهي في إشارة باردة لأن أعمل لها شايًا. قلت بغيظ:

ـ أدخلي اعمليه.

لم تتحرّك.. فانصرفتُ إلى المطبخ. فتحت الثلاّجة لأطمئن على أنّ هناك ما يكفي للعشاء، ثم توجّهت إلى الحمّام لأستمتع بحمّام ساخن حتى تنتهي من موضوعها الذي يشغلها.

عرفتها من خلال موضوع صحفي لجريدة تافهة قد لا يعرفها أحد، عقب عودتي من الخليج، جذبني هدوؤها ووجهها الجميل البسيط، الخالي من المساحيق وملابسها العاديّة. أنهت لقاءها معي ثم أحضرت لي الجريدة بعد أن صدرت وبها حواري، ثم بدأت تكلّمني على فترات متقاربة إلى أن خرجنا معًا. خلال فترة قصيرة كنت قد بدأت أنجذب إليها، وفي غضون أيّام عصبيّة من حياتي، رأيت أنّها أصلح من أنهي بها عزوبتي الطويلة وأفلت على يديها من براثن مارشا. كانت تسكن في دار للمغتربات بشبرا وعائلتها مقيمة بالمنيا. اعتقدتُ أنّ شقّتي بوسط البلد ستكون لها فردوسًا.. كانت زينب متواضعة وقنوعًا. هداياي الصغيرة التافهة كانت تربكها وتخجلها. كما لفت نظري بشدّة أنّها ترفض دومًا أن تتعشّى بصحبتي في أيّ كافيتريا ندخلها وأنّها لا تطلب غير الشاي بالحليب، أو القهوة نادرًا. لمّا توطّدت علاقتنا بعض الشيء، وسألتها عن السبب، قالت بخجل بعد ممانعة طويلة إنّ والدها الذي كان يعمل مزارعًا لم يكن قادرًا على إعالتها وطفلتين أخريين وأخ صغير بالإضافة إلى أمّهم. وإنّ عشاءهم ظلّ لسنوات طويلة كوب الشاي بالحليب وبعض فتات الخبز أو البتاو. وإنّها لم تذق أبدًا شايًا بالحليب بمثل مذاق ما كانت تشربه مع عائلتها، وإنّها إلى الآن تبحث

Twitter: @ketab_n

عن هذا المذاق في كل الأماكن التي ترتادها معي أو بمفردها. تملّكتني في تلك اللحظة شحنة وجدانيّة طاغية، وقرّ في نفسي أن ليس هناك من تصلح زوجة بقدر ما تصلح زينب. وفي لحظة عبثيّة غير مسؤولة قرّرت بمجرّد أن أوصلها إلى دار المغتربات أن أطلب منها تحديد موعد لزيارة أهلها كي أطلب يدها. لم أستشر عصام ولا عوض ولا أيًا من المقرّبين، ولم أعمل حسابًا لمارشا. كنت كمن قرّر فجأة التوقّف عن شرب الخمر والقيام بإمامة المصلّين. ولم أسأل نفسي أبدًا عمّا دفعني إلى تأجيل إبلاغها هذا القرار حتى أوصلها إلى دار المغتربات.

في تلك الليلة الرائعة الجميلة التي سلبت منّا الزمن، فوجئت بها تنظر في ساعتها بهلع وهي تبلغني بأنّ الوقت المسموح لها فيه بدخول الدار كان قد مرّ منذ زمن. فتطوّعت بالذهاب معها كي أسوّي الأمر مع مديرة الدار، احتجّت بأنّ المديرة سترفض تبريراتي كما أنّ وجودي معها قد يزيد الأمر تعقيدًا. ثم عرفت من سياق كلامها أنّها ليست المرّة الأولى التي تتأخّر فيها، بل الثالثة، وأنّ إدارة الدار سبق أن وجّهت إليها إنذارًا بعدم التأخير دون إذن مسبق وتحذيرًا باستبعادها من الإقامة بالدار. حالتي الوجدانيّة المتألّقة لحظتها وعيناها المسكونتان بدمعات لامعة جعلاني في حالة غير طبيعيّة. كنت متأرجحًا بين احتضانها والبكاء على صدرها، وبين القسم أمامها بأن أحميها وأصونها طوال عمري وألاّ أجعل أيّ بشر كان يكدّر صفو حياتها. لم تكن زينب قريبة أبدًا كقربها منّي هذه الأيّام. اكتفيت بالتربيت على ظهرها بحذر. كانت أمامنا مشكلتان: واحدة حاليّة والأخرى مؤجّلة. أين ستبيت الليلة؟ هي المشكلة الحاليّة التي يجب حلّها. اتصلتْ من هاتفي بأكثر من صديقة لها، واعتذرن كلّهن إلاّ واحدة كانت تسكن في نطاق مدينة القاهرة الكبرى بمنطقة تدعى «أوسيم». ارتحت قليلاً لذلك بالرّغم من أنّ المشوار يبدو مرعبًا في هذا الوقت المتأخّر. بقيت

Twitter: @ketab_n

المشكلة المؤجّلة وهي اللقاء صباحًا لحلّ مشكلة الدار، واتفقنا على موعد.

توقّفتْ أمام مقهى وطلبت منّي الاستئذان من صاحبه حتى تغسل وجهها. كنت أجلس في انتظارها عندما عادت ومازال منديل الكلينكس بيدها تجفّف به عنقها. لم تمهلني كي أقف. فقد جلست بجواري وسألتني، وملامحها كلّها توسّل:

ـ صحيح ها تيجي معايا بُكرة للمديرة. أومأت برأسي موافقًا. تهلّل وجهها وعادت إليها ابتسامتها الآسرة، ثم أشارت إلى الجرسون الذي كان واقفًا على البعد يتأمّلنا، وطلبت منه شايًا بالحليب. وعندما عقدت جبيني حائرًا، طلبت لي فنجان قهوة وهي تبتسم. ثم انطلقت تحكي عن الدار وزميلاتها وعن النوادر والطرائف والمواقف الصعبة التي واجهتهنّ خلال سنتي الإقامة بالدار. وجدت نفسي مدفوعًا أقول لها:

ـ أحبّك..

ضحكت ضحكة خالصة من القلب ودسّت الملعقة في كوب شايها وهي تصرّ على أن أتذوّقه. لم أفهم ما علاقة هذا بقولي: أحبّك. أطعتها، لكنّ الكدر عاودها مرّة أخرى، وهي تنظر إلى ساعة المقهى المعلّقة فوق النصبة. وقالت لي إنّ الوقت تأخّر أيضًا على الذهاب إلى صديقتها في أوسيم. كنت قد أرهقت جدًّا، ولن أقضي ليلتي متسكّعًا على المقاهي أراقب حالتها المزاجيّة التي تتغيّر بسرعة الضوء. وعندما قالت لي:

ـ ما العمل؟ قلت لها بثبات: إمّا أن نتسكّع في الشارع حتى الصباح أو أن تبيت بشقّتي. اتّسعت حدقتاها ولم تنطق. قلت محاولاً تخفيف وقع الكلمة بأنّني سأستضيفها وسأذهب لأبيت عند عصام. ونحن في الطريق وجدتها تمسك بيدي وتقول بهمس:

Twitter: @ketab_n

ـ حرام. تبقى شقّتك وأطردك منها. هو انت عندك أوضة واحدة!
أجبت بسرعة:

ـ عندي أوضتين.. قالت بحسم:

ـ خلاص انتَ في أوضه وأنا في أوضه..

كان موضوع زيارة أهلها بالمنيا قد بدأ يتباعد عن ذهني. لكنّني لم أسلّم نفسي إلى ظنوني الفتّاكة. انطلقنا بالتاكسي. في مدخل العمارة، كانت غرفة البوّاب في مواجهة المصعد، ومن عادته النوم خلف الباب واستراق السمع لكل من يصعد إلى العمارة في وقت متأخّر ليلاً. وكانت هي لاتزال تتكلّم. في التاكسي تتكلّم، وعلى الرصيف وأمام العمارة تتكلّم. وبالمدخل ونحن ننتظر المصعد. خرج البوّاب. فبادرته هي بالتحيّة:

ـ مساء الخير..

ردّ التحيّة وهو يفرك عينيه عائدًا إلى غرفته وأنا أكتم غيظي. في المصعد العتيق كانت أصابعها الطويلة تدقّ على خشبه المتهالك بلحن شهير، ثم همّت بالكتابة على مرآته بقلم الروج. نهرتُها بشدّة، فاندهشت وظلّت تحدّق فيّ. دخلنا الشقّة وناولتها جلبابًا وارتديت الآخر. أشرت إليها تجاه الثلاجة لتأكل. قالت إنّها ليست جوعانة. أعطيتها مفتاح الغرفة. أغلقت على نفسها لبضع دقائق، ثم وجدتها تقتحم عليّ غرفتي مادّةً إليَّ المفتاح، وهي ترجوني ألاّ أدعها تغلق الحجرة، لأنّها لم تعتد النوم بمفردها، فهي تخاف. واربت باب غرفتها بعد أن رجتني بأن أظلّ ساهرًا بغرفتي أكلّمها عبر البابين المفتوحين إلى أن تنام. وأوصتني بعد أن تنام بأن أغلق عليها باب الغرفة. ظلّت تتكلّم وأنا أقرأ. لا أردّ عليها إلاّ بعد إلحاح. كنت قد ضقت واختنقت. أكاد أن أقوم وأُلقي بها من الدور السادس. وَهَنَ

Twitter: @ketab_n

صوتُها وطالت فترة الصمت، فاعتقدت أنّها قد نامت.. دقائق معدودات مرّت وأتاني صوتها الواهن:

ـ أنت مش ها تنام؟

أطفأت نور الغرفة تأهّبًا للنوم. لم تمضِ إلاّ لحظات وأتاني صوتها مرّة أخرى، لكنّه هذه المرّة كان حادًّا ووجلاً بعض الشيء:

ـ إنتَ طفيت النور كله.. الشقّة بقت كحل.

نهضت من سريري غاضبًا ومتوتّرًا لأقصى حدّ ناويًا أن ألقي بها إلى الشارع. كان نور غرفتها يسطع كاستديوهات التمثيل أثناء العمل. بمجرّد اقتحامي الغرفة، سحبتني من يدي بأسرع ممّا أتخيّل وهي تهمس في أذني:

ـ أنا خايفة، خايفة! أرجوك نام هنا. وأشارت إلى السرير. وقبل حتى أن أفكّر، استطردت وكأنّها تضع حدًّا فاصلاً بيننا يبقيها سالمة:

ـ إنتَ ها تنام هنا ـ وأشارت إلى الجانب الأقصى من السرير ـ بس عشان خاطري ما تتحرّكش عشان أقلّ حركة بتصحّيني. أطعتها ونمت دقائق كالتلميذ الخائب الذي وجد نفسه فجأة في غرفة المدرّسين القساة الذين يهابهم. استيقظت على شفتيها الرطبتين تقبّلان أسفل أذني. عندما فتحت عينيّ عليها، همَسَت بشفتيها الباسمتين:

ـ شكرًا عشان استضفتني.

وكلّما أمعنت في الغباء ولزمت السكون تمامًا، كانت تداعب شعري أو أنفي وهي تؤكّد عليّ برجاء:

ـ عشان خاطري ما تقرّبش منّي. وامتثلت لطلبها ولجينات الغباء التي كانت متمكّنة منّي ليلتها، أغمضت عينيّ مستعيدًا أحداث اليوم كلّه التي راحت تمرّ بألوان قوس قزح، وكنت أنسرب في النوم مبتسمًا. وكلّما تلامس جَسَدانا عن قصد منها أو جهل منّي، كنت أتراجع

Twitter: @ketab_n

بسرعة، حتى جثم على قلبي خاطر مفزع. وتصوّرتها تخبر صديقاتها المقرّبات عن نبل أخلاقي وكيف أنّي استضفتها ثماني ساعات متصلة على سرير واحد دون أن أمسّها أو ألمسها، فانزعجت جدًّا. تقلّب جسدي عليها فنظرت إليّ بدهشة. قبّلتها في وجنتيها وفي شعرها. فقلبتني تحتها بسرعة، وانهالت القبلات محمومة تغمر كل وجهي. تبدّلتْ بفرس جامحة انقطع قيدها فانطلقت تعدو في البراري.. بادلتها القبل وتعرّفت يداي على كل الظاهر والمخبوء من كنوز جسدها. لكنّها لم تتركني أستمرّ للنهاية.. همست في أذني:

ـ أنا بنت، خلّي بالك. وبالرّغم من ذلك ساعدتني في بلوغ نشوتي بيد متمرّسة وبهمسة مبحوحة:

ـ عشان ما تنذيش نفسك.

ارتحت مدّة نصف ساعة أو ما يزيد، لكنّها أجبرتني على ممارسة الحبّ مرّة أخرى، مع محظورات أقلّ وشهوة غالبة تتملّكها. وعندما فعلت ما كانت تطلبه بكل الحذر قهرها الشبق فانطلقت تطلب المزيد والمزيد.. كان الطريق مفتوحًا بلا سياج ولا أسوار، وأداؤها مذهلاً انتقل بي من المملكة إلى الدوحة إلى أميركا. عبرت بي كل المواخير وأماكن اللهو الرسميّة والخفيّة. صرت متعبًا أكاد أن أغيب في متاهة سحيقة لا يصلني فيها إلاّ صدى صوتها، وهي تحكي كيف اغتال عمّها براءتها وهي طفلة، وأنّها بسببه هجرت بلدها إلى القاهرة وتسكّعت في صحفها الكثيرة. وربما خيّل إليّ، أو قد أكون سمعتها تقسم بأنّي ثاني رجل بحياتها. لا يهمّ. كنت قد انفصلت تمامًا عن هذا العالم.

ـ إنت هاتنام في الحمّام..

جاءني صوتها حادًّا فأغضبني ذلك جدًّا. هذه المعتوهة لا سقف لها، إنّها لا تراعي أحدًا في الدنيا. كأن ليس لي جيران ومعارف أعمل حسابًا لهم. وصوتها يسري في الليل كصرصور الغيط. لا تعتبر الناس

Twitter: @ketab_n

ولا تخشاهم. تتعامل معي كأنّها زوجتي. وجدتها مرّة عقب استيقاظي صباحًا واقفة وباب شقّتنا مفتوح تتحدّث مع الجارة كأنّها صديقة حميمة. خفت من أن تكون قد قدّمت نفسها إلى الجارة على أنّها زوجتي. عندما انتهيا من حوارهما وواجهتني وبّختها بشدّة. فوجئت بها تقول لي بضيق:

ـ هي ما سألتنيش أنا مين. وبعدين إحنا ما تكلمناش في حاجه. يا دوب صباح الخير وبعدين شويّة حواديت نسوان. وكده حتشيل أيّ فكرة وحشة من دماغها. لو كنت استجبنت وخفت، كان ممكن تطلّعني بالبوليس. أنا سبتها تحطّني في المكان اللي هي عايزاه. مراتك، أختك، بنتك، مرات أبوك. المهمّ بعد كده ما تجبش انتَ أشكال وسخة في البيت وتشبهني.

ضحكتُ وراقني ما فعلته.

خرجت إليها فوجدتها مضطجعة على الأريكة بشورت قصير وحمّالة صدر لا غير.. حرّكت قاعدتها قليلاً كي أجلس بجوارها. أسندت ظهري إلى الأريكة وأنا أقول لها:

ـ إنتِ مش بردانة؟

.. أجابت بسخرية:

ـ البرد ده يحسّه كبار السنّ اللي زيّك.. مش أنا.

سألتها وأنا أداعب فخذها: تاكلي؟

قالت: بعدين..

ثم اعتدلت وقبّلتني في فمي وهي تقول:

ـ وحشتني..

رنين محمولها الذي يثير جنوني بدأ في العواء.. لكنّها اختطفته

Twitter: @ketab_n

بسرعة قبل أن تصل إليه يدي خوفًا من أن أهشّمه، كما هشّمت لها واحدًا من قبل. ثم قفزتْ لتردّ عليه بهمس.

لم أتبيّن أيّة كلمة ممّا تقول، ولم تمكّنّي من قراءة شفتيها، فقد أوْلتني ظهرها. أتمّت المكالمة بسرعة وأغلقت الجهاز. نبّهتُ عليها كثيرًا بأن تغلقه قبل أن تدخل شقّتي.. ولا حياة لمن تنادي! قبل أن أُسمعها ما يضايقها انهالت على حلمة أذني بالقبلات وبلّلتها هامسة:

ـ والله مصدر مهمّ جدًّا.. وكويّس قوي إنّه كلّمني، ده هايدِّيني خبطة كبيرة..

خبطت بيدي على مؤخّرتها وأنا أقول: خبطة كبيرة هاه!

تضايقت وضربتني برقّة على صدري، ثم تفوّهت بكلام كثير عن عدم ثقتي بها وعن غبائها لأنّها أعطتني كل شيء متصوّرة أنّ هذا سيحافظ على علاقتنا. لكنّني كأيّ رجل آخر بعد أن تفتح له حبيبته ساقيها يتخيّل أنّها تفتحهما للآخرين. ثم بدأتْ في البحث عن ملابسها وافتعال الغضب والتهديد بالخروج. كانت رغبتي فيها قد تأجّجت وكنت مستعدًّا لأن أتغاضى عمّا يكدّرني في سبيل مجامعتها، كالمثل الفلاحي القائل «تدي المرة قبل الجماع فدّان، وبعده تدّيها بالأزان».. خطفتُ من يدها البلوزة ونزعتُ عن إحدى ساقيها البنطلون وجررتها جرًّا إلى السرير وأنا أحايلها.. أرقدتها عليه. تجاهلت نظرات عينيها اللامعتين المشبعتين اللتين أراهما على هذه الحالة عقب كل لقاء جنسي، وعبق جسدها الذي تغلب عليه رائحة ذكوريّة حادّة. تجاهلت حتى أنفاسها المتصاعدة برائحة المَنيّ، وانسقت وراء رغبتي حتى خمدت تمامًا.

Twitter: @ketab_n

- ٣ -

كان الحفل صاخبًا كالعادة. الفرقة الأجنبيّة تلعب موسيقاها بجنون وصوت السمّاعات الداخليّة يرجّ المقاعد والأرضيّة. خرجت إلى الشرفة تساندت على بابها الخشبي، ووقفت أدخّن مطلاً من مسافة على ليل القاهرة الجميل. كانت الشرفة بعرض الغرفتين اللتين نشترك فيهما، ولكل منهما باب يفتح عليها. لم أكن وحدي مَنْ بالشرفة، إذ يشاركني فيها الآن بعض ضيوف الحفل، مرتكنين إلى سورها يدخّنون البانجو أو الحشيش، أو مصطحبين كؤوسهم ثنائيّات، وهم يتلمّسون كنوز أجسادهم بالتوازي. كان الضجيج يغمر الحيّ الهادئ الجميل، رغم أنّنا بالطابق الرابع عشر من مبنى ضخم أغلب سكّانه من طلاب الجامعات الأجنبيّة بمصر أو طلاب الـ AUC خاصّة الأجانب منهم، أو موظّفي الهيئات الاستشاريّة والشركات الأجنبيّة العاملة بمصر. والمبنى مؤمّن تأمينًا تامًّا وبشكل يكاد أن يكون سرّيًّا. وإن كان بحوضكَ شريحة بلاتين أو بفمكَ ناب معدني، أو كنتِ من مستخدمي اللولب. فحذارِ، لأنّ الجهاز الذي يتوسّط بوّابة المبنى كمدخل آخر ضيّق، صغير، سوف يطلق صفيرًا مزعجًا، وربما لن تمرّ إلاّ بتقرير معتمد من «النمرو».

كنت مسندًا ظهري إلى باب الشرفة غير قادر على النظر إلى أسفل. والتفتُّ فوجدت مارشا تتلوّى وهي مندمجة جدًّا في رقصتها وبدا تأثير السكر عليها جليًّا، وراحت تتفقّدني بعينين غائبتين وتحاذر أن أنسلّ

Twitter: @ketab_n

مغادرًا فجأة. لم أكن على استعداد لأن أشاركها رقصتها لو تنبّهت لي. كان الملل قد بدأ يجتاحني. تشاغلت بتفحّص وجوه الحاضرين الذين لم أكن أعرف نصفهم. لكنّ الباقين يعرفونني فمنهم بعض تلاميذي، ومنهم من عرّفتني إليهم «مارشا» أو من قابلتهم في منتديات ثقافيّة، مصريّون وأجانب. أصدقائي الحميمون لم يأت منهم أحد. عصام المتخلّف أقنعني بالحضور ولم يحضر. وصديقي الألماني عوض لم أره أيضًا. رأيت ديانا وإيفلين وتجاهلتهما، ورحت أتبادل تحايا مع وجوه كابية وأتبادل حوارًا تافهًا مع شخص أتفه، وصرت أتلقّى كؤوسًا متتالية مع قبلات مثيرة خاطفة على الفم من طالباتي الأجنبيّات حتى فقدت التركيز تمامًا.

قادني التعب إلى الأوفيس عند جوليا الخادمة، فطردتها بقسوة وأنا في حالة بائسة من السكر البيِّن. ومضى ذهني يصارع هلاميّات بينما أمعائي تكاد تنفجر وصداع شرس يفتك برأسي. أفقت صباحًا وأنا بغرفة مارشا وألم شديد بمرفقي وعضلات قدمي. كان جذع مارشا راقدًا عند أسفل قدميّ، وساقاها منفرجتين، وشعرها تحوّل إلى خصل ملبّدة. حرّكت قدميّ بخفّة من فوقها، ثم قبّلت مفرق شعرها فابتلّت شفتاي. كانت برأسي خطّة قد تبلورت للتو: أن أستحم، ثم أغادر على الفور بلا نسكافيه ولا قهوة ولا حوار مع مارشا. لكن ما إن أنهيت حمّامي وعدت إلى الغرفة وبينما أهمّ بالتقاط مفاتيحي بحذر من فوق الكومدينو، وجدت ورقة بأسفل المفاتيح كُتب عليها بالإنجليزية ما يعني «انتظرني.. لا ترحل قبل أن أستيقظ.. مارشا». دفعتني هذه الورقة دفعًا للإسراع بارتداء ملابسي والمغادرة فورًا حتى قبل أن تستيقظ الخادمة. تعثّرت في فوارغ زجاجات بلاستيكيّة وعلب بيرة من الصفيح، فأحدثت بارتباكي ضجّة كبيرة فشلت في تفاديها. لكن ومن حسن حظّي لم يستيقظ أحد.

Twitter: @ketab_n

لم يكن عصام في شقّته التي اتخذها مرسمًا وإقامة. وتصوّرت بيتي وكأنّه لا يرحّب بي، فلم أتّجه إليه، اتّجهت نحو كافيتريا قريبة ثم اعتراني الخوف فجأة عندما تذكّرت مارشا التي بدأتُ معها مؤخّرًا لعبة القطّ والفأر. أن أكون موجودًا في حياتها. ليس ظلاً لها. أنا أختفي وأقترب وفق رغبتي. لكنّها أجنبيّة وتراثها الجيني مختلف عنّي تمامًا. قد تسأم اللعبة أو تعتاد غيابي. قد يحلّ محلّي أيّ أحد. وهذه رغبة أراها في عيون كثيرين. لذا قرّرت البحث بجدِّيَّة عن كريم، وأن أتفرّغ قليلاً لهذه المهمّة حتى لو تطلّب منّي ذلك أن أتوقّف مؤقّتًا عن التدريس أو ألاّ أقبل طلابًا جددًا. فلو فشلت في إيجاد كريم لأيّ سبب من الأسباب، من المحتمل أن تشكّ مارشا في أنّني قد تعمّدت ذلك، خاصّة وأنّ هذه المرّة لن تكون الأولى التي أخذلها فيها. ولو ـ لا قدّر الله ـ حدثت قطيعة بيني وبين مارشا، فسيكون من المستبعد استمرار علاقات مصلحيّة لي مع الأجانب الذين يريدون تعلُّم اللغة العربيّة، أو حتى مع العرب الذين يريدون العيش كأجانب.

عدت إلى وسط البلد. تسكّعت في مقاهيها وفي شوارعها. بدأت في رصد الأماكن التي كان يتجوّل فيها كريم. عثرت على بعض ممّن هم على شاكلته. اقتربت منهم. منحتهم نقودًا. ثم علمت منهم أنّ كريم بالإصلاحيّة. ارتحت قليلاً لمعرفتي مستقرّه، وبتُّ متيقّنًا بأنّ الأمر لن يستمرّ طويلاً. فلا كريم سيصمد داخلها، ولا أساتذته والمسؤولون عنه سيتحمّلون نزقه وجنونه، المسألة كما خمّنت لن تتجاوز أسابيع معدودة على الأكثر. وسأقنع مارشا بأن تصبر حتى خروجه. فبالرغم من مقابلتي لزملاء كريم الأصغر والأكبر وحتى من يماثلونه سنًّا، لم أطمئنّ لأحدهم بقدر اطمئناني لكريم. فكلّهم بلا استثناء غير مأموني العواقب. ما ميّز كريم عندي أنّ له أصلاً وفصلاً، فهو من أسرة متوسّطة الحال ووالده يعمل جزّارًا بعزبة النخل. والده

Twitter: @ketab_n

مزواج يبدو مثل ثور يافع مطلوق. أنجب من كل زوجاته اللواتي على ذمّته أو المطلّقات. كريم رقم بين خمسة عشر أخًا وأختًا. . لم يدخل المدرسة كسائر إخوته. ولم ينجح في اكتساب أيّة حرفة كما نجح إخوته. وتعرّض إلى المهانة والقسوة والاغتصاب وهو صغير، فقرّر كما أخبرني أكثر من مرّة أن يهب نفسه للحرِّيَّة التي هي في مفهومه أن لا تصبح هناك أيّة سلطة عليه لا من الناس ولا من الدولة أو الأسرة. وبدأ بتكوين عصابة من الأطفال الصغار قلبوا عزبة النخل رأسًا على عقب من سرقة واختطاف وتهشيم واجهات المحالّ، وإلقاء الطوب على المباني. أشبعه أبوه وإخوته ضربًا، فهرب إلى وسط المدينة وتعلّم شمّ الكلّة، وأصبح ذا سطوة على عصابة كبيرة من الأطفال الذين يتجوّلون بوسط البلد للتسوّل أو لبيع المناديل.

قُبض عليه أكثر من مرّة، وأعاده أبوه وإخوته إلى البيت قسرًا وضربًا وكيًّا على صدره وظهره بالنار، لكنّ الكلّة جعلت رأسه أصلب من الحديد. نجح كريم بذكائه الفطري في قيادة زملائه الذين منهم من هو أكبر سنًّا وأضخم وأشدّ عودًا. كان يوزّعهم عقب صلاة الفجر على أزقّة وشوارع وسط البلد، ويقتسم معهم النقود يوميًّا عقب الغروب وهم يفترشون الرصيف خلف السيّارات الراكنة بصفوف طويلة لانهائية.

تعرّفت عليه بمقهى «زهرة البستان» منذ سنة أو ما يزيد، عندما اقترب منّي منحنيًا عليّ بجذعه، ويده اليمنى مبسوطة أمامي يطلب نصف جنيه كي يأكل. تأمّلته ولفت انتباهي أنّ يده الأخرى ممسكة بشيء لا أتبيّنه داخل كمّ الجاكيت المرقّع الذى يرتديه. أوهمته بأنّني سأخرج المحفظة، فتحرّكت يده الغامضة قليلاً فلمحت زجاجة الكلّة داخل قبضة يده. أشرت إليها وأعدت محفظتي إلى جيبي رافضًا أن أعطيه أيّ نقود، بل وبّخته على شمّه الكلّة وأنا أحذّره من مضارّها. فابتسم بصفاء حتى بانت أسنانه الصفراء المتآكلة واستمع بانتباه لكل ما

Twitter: @ketab_n

قلته، ثم أقسم لي بأنّه فعلاً لم يدخل معدته أيّ شيء منذ الصباح شعرت بنبرة صدق في كلامه، فضعفت ورضخت وأعطيته ما يريد. بدأ بعد ذلك يتجنّبني ويتفادى أشكالنا المألوفة التي اعتاد وجودها الدائم في المقهى. دعوته مرّة إلى شرب كوب فراولة فنظر إليّ غير مصدّق، ثم جلس بسعادة، اختلست النظر إلى كمّ الجاكيت، فلاحظني وأظهر زجاجة صغيرة بداخلها عصا جريد صغيرة جدًّا وعرضهما عليّ بفخر. سألته عن أهمِّيَّة العصا. فمضى يقلّب بها الكلّة ويحدّثني. وحدثت بيننا ألفة ومعرفة.

كنت قد بدأت الاهتمام بهم كظاهرة بدأت تنتشر بوسط البلد منذ فترة. إنّهم كَمٌّ فريد من شمّامي الكلّة من الأطفال أو «أولاد الشوارع» كما يحلو للمثقّفين وكتّاب التليفزيون. كان الباعث على اهتمامي هذا حادثتين مرّتا من أمامي بسرعة البرق، لكنّني وجدتهما في منتهى الأهمِّيَّة.

الأولى حدثت ظهر أحد أيّام الأعياد، حيث تعود منطقة وسط البلد إلى سابق عهدها أيّام الثلاثينيّات من القرن الماضي كما كنّا نقرأ. الناس بالحدائق والمنتزهات ودور العرض، أو أمام التليفزيون مستلقين تاركين منطقة وسط البلد ساكنة هادئة. في ذلك الوقت كنت واحدًا من أشخاص معدودين يخترقون شوارعها على فترات متباعدة. أسير وبيدي سيجارة حشيش. أدخّنها بتلذّذ مستمتعًا بالصمت، وصدى أصوات فرقعة بمب الأطفال يأتي من بعيد. غير عابئ برجال الشرطة الذين يقابلونك وهم يتسوّلونك بتحيّة «كل سنة وانتَ طيّب». لا مارّة لينتبهوا للرائحة ولا أصحاب محلات ليحدّقوا بك!

رأيت على مبعدة منّي جثّة مكوّمة راقدة بموازاة الرصيف.. حدّقت فيها وأنا واقف مكاني، كانت لشابّ في حدود السابعة عشرة يرتدي أسمالاً مهلهلة والطين والوحل قد أحالا جسده ووجهه إلى ما يشبه

Twitter: @ketab_n

أحد عمّال المناجم أو العاملين في نقل الفحم والقمامة. كان حيًّا راقدًا على ظهره يشرب عقب سيجارة. بقدر المسافة التي كانت بيني وبينه، من الجهة الأخرى فتاة جميلة ترتدي جوبًا قصيرًا وبَدِي انحسر عن بطنها المكشوف، تتأبّط ذراع حبيبها ولهانة. كانا في طريقهما لاجتياز الجثّة المكوّمة على الأرض. اقتربا منها قبلي غير منتبهيْن إليها جيّدًا. لا أدري ما الذي جعل الفتى الحبِّيب ينظر إلى أسفل وهو يعبره، ولا ما الذي جعله يعود إليه بسرعة ليركله في كل مكان من جسده: في بطنه ووجهه وعلى ساعديه وساقيه، بينما هو لا يدافع عن نفسه!.. فما الذي تسبّب في صراخ الفتاة وجعلها تشارك حبيبها أوّلاً في ركل الفتى ثم في محاولة جذب يد فتاها وتعجز؟.. عدوت نحوهما بسرعة، واحتضنت الشاب من خلفه بيدي لأمنعه من مواصلة ضرب خرقة بالية تنزف على الأرض. عاندني الشاب وأفلت منّي، ثمّ وجّه إليّ نظرات ناريّة وهو يشير إليه ويقول:

ـ شوف.. شوف بيعمل إيه؟

هنا تنبّهت إلى الخرقة الملقاة على الأرض، وبالكاد تبيّنتها من شدّة تماثل شكلها مع رصيف الشارع الإسمنتي. وجدته منكفئًا على جذعه كالديك المنفوش عندما يدخل في صراع. أمام إلحاح الشابّ الثائر، جذبت نصفه الأعلى إلى الوراء قليلاً، فوجدته قابضًا على عضوه يستمني. غير مبال بالجروح التي تنزف من جسده جرّاء الضرب، وغير مبال بنا أو بما قد نفعله به. كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما وبياضهما مشوبًا بحمرة داكنة. جررناه على الأرض ككلب ميت. لم يكن ينازعنا. لم يقاوم. تَرَكْنَا نُحرّكه ويبدو أنّه كان مستمتعًا بما نفعله. والفتاة على مقربة منّا تبكي وتضمّ كفّيها على وجهها حتى لا تُرى. كان برسغ الفتى الصغير حبل ليفي خشن وقصير. أشرت للشاب ناحيته ورفعت قليلاً الحبل المحكم جدًّا، وكان رسغ الفتى يدمي. لم يكن

Twitter: @ketab_n

طول الحبل يتجاوز العشرين سنتيمترًا. يبدو أنّه قطعه وهو يهرب من المخبر الذي اقتاده به في الطريق إلى القسم. أخبرت الشاب الغاضب عن سبب تقييد رسغ الفتى، فقد رأيتهم كثيرًا فيما سبق يُساقون كالشياه في مجموعات مكوّنة من ثلاثة أو أربعة صبية مربَّطين بحبل واحد والمخبر أمامهم يسير بتيه وخيلاء. أدرك الشابّ أنّه لا فائدة من اقتياده لأقرب مركز بوليس أو دار أحداث أو حتّى المشنقة العامّة. تركناه فوقع منّا على الأرض. دسّت الفتاة رأسها في إبط صديقها باكية، فسار بها على مهل بعيدًا عن طريقي.

كانت مارشا تستمع إليَّ بإنصات شديد، وأنا أحكي لها عمّا رأيته. شربت سيجارتين متتاليتين وهي تركّز، ثم ضحكت ببهجة ولم تخبرني عن سبب ضحكها أبدًا.

الحادثة الثانية كانت وسط ميدان التحرير، أكبر وأشهر ميادين القاهرة، ذات ليلة شتويّة تمامًا وقارسة البرودة. كنت أمدّ خطواتي محاولاً الوصول بسرعة إلى بيتي وليس هناك سيّارات أجرة تسعفني، لأنّ الشارع المفضي إليه من الميدان ذو اتجاه واحد. في تلك اللحظات لمحتهم على البعد يتدافعون. كانوا ثلاثة صبية يلحقون بطفل في مثل عمرهم ويدفعونه على الأرض. كانوا في سنّ العاشرة. بدأوا بضربه وانتهوا بالانكفاء فوقه. كان الطفل يصرخ بشدّة. تصوّرت أنّهم ينوون اغتصابه ففاجأتني جرأتهم فاندفعت مسرعًا تجاههم. لم يكن هناك مارّة على الإطلاق في مثل هذه الساعة المتأخرة من ليلة شديدة البرودة كهذه ولا حتى رجال شرطة. وكان الولد لايزال يصرخ، وكان أحدهم ممسكًا بقدميه بقوّة وقاعدًا على نصفه الأسفل وآخر قاعدًا على نصفه الأعلى، ويضغط على صدره وإحدى يديه، وكانت اليد الأخرى للطفل الراقد على الأرض حرّة ترتفع وتهبط فأمسك بها الطفل الثالث بقوّة وبيده اليمنى قطعة قطن مبلّلة بسائل من زجاجة ملقاة بجوارهم.

Twitter: @ketab_n

للوهلة الأولى ظننت أنّهم ينوون إجباره على تعاطي الكلّة قسرًا. كنت قد وصلت إليهم وفوجئت بالولد الثالث عاكفًا على إزالة وشم ما من على ساعد الطفل الملقى على الأرض وصراخه لايزال يعلو ممتزجًا بألم كبير. انهلت عليهم ركلاً وجذبًا حتى تركوه. كان ساعد الطفل بين يديّ ينزف فحاولت تضميد جراحه، وهم يحيطون بي ويتأمّلون ما أفعله بغضب. سألتهم بصوت مدوٍّ مستنكرًا ما كانوا يفعلون. قال أطولهم وهو يبتعد عنّي مسافة:

ـ إحنا بنشيل الصليب من إيده عشان قبطي!

بجنون سألتهم: هل أنتم مسلمون؟ هزّوا رؤوسهم بالإيجاب. . . تركت ساعد الطفل وعدوت وراءهم. فشلت في اللحاق بهم، ونجحوا في الوصول إلى الجهة الأخرى. وأصبحتْ تفصلنا مسافة كبيرة. انهالوا عليّ قذفًا بحجارة لا أعرف من أين جاؤوا بها. كنت أتفاداها بمهارة، لكنّني فشلت في وقف صرخاتهم المتدافعة نحوي: يا قبطي يا وسخ.

الغريب والمدهش أنّني لم أحكِ هذه الحكاية لمارشا أبدًا، رغم أنّ أوقاتًا طويلة كانت تضمّنا، ولا أجد ما أفعله سوى الحكي لمجرّد الحكي. . ورغم أنّني كنت أحكي حكايات تافهة، ورغم حبّي لها أو ارتباطي الشديد بها، أو أيّ مسمًّى آخر قد تندرج تحته علاقتنا، لم أحكِ لها، وحتى عندما اشتركنا سويًا في موضوع خاصّ بهؤلاء الأطفال لم أدرج هذه الحكاية ضمن مشروعنا.

Twitter: @ketab_n

- ٤ -

لم أفعل شيئًا صائبًا في حياتي. أهدرت كل الفرص التي كان من الممكن أن تغيّر مصيري، وتمسّكت بإصرار وعن عمد وبغباء شديد بمشاريع حياتيّة كانت نتائجها الحتميّة فشلاً، وعبثًا، وطيشًا ونزقًا وجنونًا. وتجاهلت مقدّماتها المحبطة وراقبت بلامبالاة أشرعة الخسارة وهي تتقدّم نحوي. كنت دائمًا مصرًّا على الخوض في مستنقع الخراء حتى رأسي. أحتاج غالبًا إلى كتيبة من الأطبّاء النفسيين الأكفّاء وإلى احتجازي داخل عنبر بأعتى مستشفيات المختلّين عقليًا ويكون موصدًا بإحكام، حيث لا تواصل ولا اتصال.

تغالبني كثيرًا فكرة أن أقذف بمن حولي أو أمامي من شرفة أيّ مبنى عملاق. أتجنّب دائمًا الأماكن الخانقة وأنفاق المترو، وأحذر جدًّا لو اضطررت إلى دخولها. أرتكن إلى جدارها الخراساني البارد بعيدًا عن القضبان، أغالب نفسي حتى لا أدفع بأحد الواقفين على الرصيف، وألقيه على القضبان تحت المترو مباشرة فيحيله إلى أشلاء... وأتلذّذ برؤية دمه الذي يخضّب القضبان، وأستمتع وأنا أجمع قطعه المتناثرة كما تجمع الصبيّات المراهقات القطن في مواسم الحصاد. أنكمش ملتصقًا بالجدار، فكل المنتظرين تراودهم الأفكار نفسها وقد يسبقونني ويلقون بي أسفله. أنتفض رعبًا وأرتعد، وأصبح غير قادر على متابعة من يكلّمني أو من يصطحبني حتى تتهادى عربات المترو أمامي وتنفتح الأبواب فأدسّ نفسي وسط الركاب. محطّة المترو بالنسبة لي أعمدة

Twitter: @ketab_n

وجدران وهي وسائل حمايتي من إيذاء نفسي أو الآخرين. أعترف بأنّني لم أكره شيئًا في ياسمين قدر كراهيّتي للّحظات الأخيرة من أيّ لقاء بيننا، حيث أتطوّع بتوصيلها إلى محطّة المترو، بقدر ما أحببت لحظات سيرنا الطويل، تلك اللّحظات التي كانت تعيدني إلى سنوات موغلة في الماضي السحيق، إلى حياتي التي كانت مبهجة ومبشّرة بشيء آخر غير ما أنا موحول به الآن.. وكلّما اقتربنا من المحطّة، اقتربتْ منّي وساوسي وأطيافي. وتظلّ هي تسألني عن أسباب شرودي وحواري غير المنتظم، وعن عينيَّ القلقتين اللتين تدوران كبليتين في مدار.. لم أكن أجيبها، وهي لم تعد تسألني.

أنا في حاجة إلى مكافأة إلٰهيّة ودعم سماوي. أجاهد خلال أعوامي الأخيرة كي أظلّ أمام الناس كما يتصوّرون عنّي: ثقة بالنفس وجرأة واتزان.. يا لكلّ هذا الغباء! هل مازال أحد يتصوّر أنّه متّزن نفسيًّا؟ إن وُجِدَ، فحلّه الوحيد أن يُودع في المصحّة النفسيّة فورًا. سافرت إلى بلدان كثيرة. سعيت وراء أوهام. عدت بمال معقول. لكن من ذهب وعاد لم يكن أنا. مسخ انتحلني، دخل جسدي ولم يفارقه. مسخ هو الذي عاد.

غادرنا مصر سويًّا متجهيْن إلى الكويت. لأوّل مرّة أنا وعصام نسافر معًا، عملت بعض الوقت أصحّح أخطاء معدومي الموهبة ومحدودي التفكير، وباقي الوقت أعمل أمام ماكينة الكاشير بسوبر ماركت ضخم. سكنّا أنا وعصام بغرفة واسعة تشبه صالة الاستقبال بمستشفى صغير. حين كنّا نعود ليلاً تقابلنا لوحة فنِّيَّة من الفنّ الحديث المركّب، أو ما بعد الواقع كما يسمّيه النقّاد. عشرون زوجًا من الأحذية والصنادل والنعال ملقاة فوق بعضها بعضًا بأشكال متعدّدة: مربّعات ومسدّسات وشبه معين وأهرامات صغيرة. رائحة الجوارب النتنة كانت تضفي عليها هالات ضبابيّة كثيفة. وكانت تلك الرائحة النفّاذة أكثر رحمة من

Twitter: @ketab_n

الروائح التي داخل الغرفة، حيث تختلط في أنوفنا رائحة المشّ المصري والتوابل الهنديّة والشاي السيرلانكي والقات اليمني والمضغة السوداني وعرق الأجساد. نعود إليها كل ليلة على أمل أن نجد فرجة صغيرة بين الأجساد ندفن فيها جسدينا. في أوقات الصيف القائظ كنّا نفترش أرضيّة الحمّام المشترك الكبيرة التي تشبه ميضة المساجد. لو كنّا عاقلين ما احتملنا ساعة في هذا المكان الذي احتملناه ستة شهور كاملة، حتى نجح عصام من خلال رسم من الباطن لبعض أشباه الأمراء والأثرياء، فتحسّنت حالته الماليّة وانتقلنا إلى شقّة صغيرة، ثم ساعدني أيضًا في الإشراف على صفحة ثقافيّة بإحدى الصحف التي يتولّى الإخراج الفنّي لها. صراعات لا تنتهي ودرجة حرارة تقرّبنا من الجحيم وحقد وغلّ موتور جعلانا نفرّ من هذا البلد إلى الأبد. كان عصام ينوي العودة إلى مصر لكنّني أقنعته بالذهاب معي إلى السعوديّة. في أوّل يوم لنا هناك بعد أن استأجرنا مسكنًا مشتركًا، جلسنا نتصارح بأخطائنا وانتهينا إلى أنّنا خُلقنا مترفين، ويجب أن نصمد كالرجال في الغربة، حتى نعود بخبرات جديدة وأموال تلزمنا بمصر لإتمام مشروعاتنا، وتعاهدنا على ذلك. لم نشكُ لبعض في الأيّام الأولى ولا حتى الأشهر التالية. كنّا نقتسم السكن والبراندي المُهَرَّب والحشيش الأفغاني وزجاجات الكولونيا بالليمون والنسوة الفلبينيّات. داوم عصام على تدريس الطبيعة الصامتة والزخرفيّات الإسلاميّة، وتحمّل بصبر وجَلدِ حمارٍ متبلّدٍ. وواصلت أنا كالبغل العنيد تدريس مناهج السلف الصالح والطالح ومراسلة الصحف، وتصحيح الرسائل الجامعيّة. لم أستمتع بقراءة كتاب جميل أو ديوان شعر مبهج أو كتابة قصيدة واحدة، ونأى عصام بعيدًا عن معارضه الطموحة التي كانت تقام بمصر.

كان يشاركنا المسكن أستاذ أوّل رياضيّات اسمه يحيى. سبقَنَا بعشر سنوات داخل المملكة. يتفنّن في جمع المال واكتنازه. يغيّر عملات.

Twitter: @ketab_n

يقرض ديونًا بفوائد ربويّة بشعة. يتاجر في الممنوعات، والتليفون المحمول واللاب توب. كان كتلة من العفن المقيت والمدبر، مغلول اليد يوم القيامة، ودائمًا ما كان يزيّن لنا كالشيطان الإقامةَ والتحمّل ويحذّرنا من العودة لبلاد «يهجّ منها أهلها» على حدّ قوله. كنت أتعجّب منه كثيرًا، فقد حصل على الأرض التي تمنّاها في قريته بزمام دمياط، واشترى الطاحونة التي رغب في امتلاكها، وأقام البيت الذي حلم به، وأنجب البنين والبنات الذين لم يروه إلاّ لمامًا، وتقوّس ظهره وضعف بصره وانطلق كرشه إلى الأمام، وتوحّشت دهونه فغزت كل جسمه. إلى متى سيبقى هنا؟ أجابني غير مازح وبسمات تحمل كثيرًا من الجدّ والتصميم بأنّه لن يغادر السعوديّة أبدًا حتى لا يبقى فيها غيره والملك فهد. الملك فهد بيده ريالان يقف بهما فوق قمّة جبل «أُحد» بعد أن يعلن إفلاس المملكة. حينئذٍ فقط سيصعد إليه يحيى ويقتسم معه الريالين، ثم يرحل. (الملك فهد توفّاه الله وتولّى بعده الملك عبد الله، ويحيى مازال هناك يتضخّم ويتوحّش، قابضًا بيمناه على ريالاته ويسراه تقلب صفحات المصحف، وعيناه مصوّبتان تجاه قمّة جبل «أُحد»)..

أخيرًا تواجهنا أنا وعصام وقرّرنا الرحيل هذه المرّة صوب الإمارات العربيّة جنّة العرب كما يطلقون عليها. أنهى عصام إجراءاتي بسرعة. لم أستطع البقاء حتى أقابل أحمد الحلو، الذي كنت قد توسّطت له ليعمل مهندسًا في إحدى شركات المملكة للخدمات البتروليّة. كانت قد قُبلت أوراقه، وعلم عصام بالمصادفة أنّني رجوت والد أحد طلاّبي لقبوله. نظر إليّ متحيّرًا، ثم قال معاتبًا:

ـ إنت عامل زيّ الفرّوج: تخرج وترجع جايب الخرا في رجليك!

لم أعلّق. كنت أعرف أنّ عصام لا يحبّ أحمد ولا يطيقه، وأنا أحبّهما معًا. تحرّك عصام لإنهاء أوراقنا والحصول على مستحقّاتنا ونجح بسرعة خياليّة، وبدا كأنّه لا يحتمل وجوده مع أحمد الحلو في

Twitter: @ketab_n

بلد واحد. ونجح أيضًا في الحصول لي على عمل معه بالإمارات.

حملنا أمتعتنا وخرجنا من المنطقة الشرقيّة، تصاحبنا ريح السموم في طريق العودة. انطلقنا بسرعة كبيرة وفجأة توقّف الطريق بنا. فتحنا نوافذ سيّارتنا كالباقين، رحنا نتبادل زجاجات المياه والتفّاح متسائلين عن السبب. توافدت سيّارات كثيرة. كان ثمّة حادث أمامنا على الطريق، لا يفصلنا عنه إلاّ عشرات السيّارات. أخرج عصام تفّاحتين وأعطاني واحدة، وهو يقول برتابة:

ـ أكيد هندي رمى نفسه تحت عربيّة، كان كثيرًا ما يحدث ذلك هناك، يلقي الهنود والباكستانيّون المساكين بأنفسهم أسفل السيّارات، فيلقون حتفهم من أجل أن يحصل أهلهم على قيمة الدية البالغة أربعين ألف ريال، لكنّ الانتظار الطويل جعلنا نخرج من السيّارة ونسير على أقدامنا تجاه الحادثة. كانت نتوءات وسفوح الجبال على جانبي الطريق مليئة بمئات القرود مختلفة الأشكال والأحجام.. وكانت هناك قرود أسفل الجبال في وضع الاستعداد وبأيديهم حجارة مصوّبة على السيّارات. كانت السيّارات التي بمقربة من الحادث مهشّمة الزجاج منبعجة الصاج، وبعض ركّابها مصابون ينزفون على جانب الطريق، وبعض أفراد الحرس قد وقفوا متشابكي الأيادي يمنعوننا من التقدّم أكثر نحو الأمام. في وسط الحلقة وقف رئيس البلدية وبجواره كبير الشرطة بزيّه الرسمي يشيران إلى القرود بأن تهدأ. تقدّم زعيم القرود منهما، فشدّ رئيس البلديّة على يده وكذلك كبير الشرطة وهو يومئ نحو جندي يحتضن سباطة موز ضخمة، وإلى جواره وقف جندي آخر وعند قدميه صندوق كبير مليء بالبقسماط. توافدت أعداد من القرود وكان رئيس البلديّة يعزّيهم وكبير الشرطة يشدّ على أيديهم ويومئ لجنوده كي يناولهم بعض الموز والبقسماط. غادر كل قرد مكمنه بالجبال ليأخذ غنيمته ثم يعود ليأكلها في مكانه. حمل جنديّان بحذر جثّة القرد الذي

Twitter: @ketab_n

أطاحت به سيّارة وأرقدوها بسلام أسفل الجبل وهم يتابعون القرود بخوف. حملت القرود الصغيرة الجثّة ودخلوا بها إلى الصحراء، نقلت الإسعاف سائق السيّارة التي قتلت القرد وكان مصابًا إصابة بالغة في رأسه كما حملت مصابين آخرين. تابعت السيّارات مرّة أخرى وغادرنا المكان مذهولين. رَنَتْ فترة صمت كبيرة ثم ضحكنا معًا ضحكًا خالصًا من القلب. لم يكن مشهدًا هزليًا أو يستطيع تخيّله عظماء صناعة السينما بهوليوود. ولم يغب عن ذهني أبدًا التقاء يد زعيم القرود بيد كبير الشرطة وهو يحتضنه مواسيًا. هذا هو الشرق كما رأيته، فهل يستطيع الغرب بكل إمكانيّاته العقليّة والمنهجيّة السيطرة على عقائده؟

Twitter: @ketab_n

ـ ٥ ـ

في حياة كل منّا «خليل» ينغّص عليه حياته ويجعلها جحيمًا لا يطاق. هو ولد مشاكس مشاغب معجون بميّة عفاريت. قد يكون أكبر منك بشهور أو حتى أقلّ. وتكون منشغلاً بعالمك الجديد غير منتبه إليه، فيدخلك كبرغوت في ليلة سوداء كحل. يثير عليك المدرّسين القساة أثناء تحيّة العلم، والمدرّسات العانسات. يكون مسؤولاً عن تدافع التلاميذ عقب جرس الفسحة ودهسك تحت الأقدام. يكون خلفك وأنت تمدّ يدك الصغيرة من الفتحة الضيّقة بالباب الحديدي الضخم، والتي تكاد أن تتسع لذراعك وكفّك القابض على حفنة قروش تناولها للبائع الذي لا ترى منه غير عينيه خلف الفتحة. يناولك البائع الساندوتش المبلّل بماء السَلَطة التي فتكت بقرص الطعميّة الصغير وأحالته إلى فتات. تسْلت الساندوتش بصعوبة من الفتحة، ومعدتك تتعارك وتهمّ بأخذ قضمة، وهنا يخطفه خليل ويجري وتتساقط منه السَلَطة الخضراء و«العيش» الذائب، وهو يركض ثم يقف أمامك فجأة ويواجهك ناظرًا إليك بعينيه المتنمّرتين. فتتراجع ككلب خذيان مخبّئًا ذيلك بين إليتيك.

في البداية ينتظرك أحد أبويك أمام باب المدرسة، فتسير مع أيٍّ منهما وأنت تختزن معالم الطريق، فبعد أيّام قليلة ستقطع الطريق وحدك.. وفي البداية لا تعرف قيمة العملة وتعود بالمصروف نفسه كما

Twitter: @ketab_n

هو، لا تدري أصلاً لِمَ أعطاه إيّاك أبوك حتى تكتشف قيمة الشراء، وتبدأ في طلب المزيد.. ثم يكتشفك خليل ويسخر منك أمام زملائك الأطفال بأنّ أباك مايزال يساعدك في عبور الطريق. بعدها سترفض أن يصحبك أبوك أو أمّك وتجعلهما يعيشان في رعب أوّل أيّام استقلاليّتك حتى يعتادا على ذلك. ستحلم ليلاً بمدرّستك «فردوس» ذات الجمال الذي لن تجده في امرأة أبدًا في المستقبل. ستقبّلها في الحلم وتحتضنها فتنجب منها أطفالاً. ستصبح مدرّستك ومعلّمتك «فردوس» والطريق والباعة عالمًا جديدًا فاتنًا أخّاذًا، حتى يجدك خليل وكأنّه قدرك الذي سيلازمك حتى مماتك. سوف يؤمّم أقلامك أمام عينيك، ويشوّه كرّاساتك عمدًا، ويختطف طعامك وحلواك. سيقرص فخذك من أسفل التختة حتى يدميك وتبكي، فينتحب هو ويدّعي البراءة أمام معلّمتك. وكلّما غاب عن نظرك قليلاً وهدأتَ وارتاحت أعصابك وظننت واهمًا أنّه نسيك سيفاجئك ببلوى أو بكارثة. قد يرفع ذيل مريلتك المدرسيّة من الخلف مشيرًا إلى رقعة ببنطالك القصير، وستقف متمنّيًا أن تبتلعك الأرض أمام ضحك البنات والأولاد الهازئ، ونظرات عيونهم الساخرة. وسيظلّ يطاردك بمسدّسه المائي ويملؤه كلّما فرغ حتى يغرقك تمامًا وستتفادى عينك بمعجزة طلقات مسدسه البلاستيكيّة. سيصبح هاجسك ووسواسك، وسيزرع داخل دماغك البريء أفكارًا شيطانيّة متعدّدة للتخلّص منه ولن تقدر على تنفيذها، وسينبت في وجدانك الخوف والتردّد طيلة حياتك. وحتى عندما يختفي من عالمك إلى الأبد وتمرّ بك السنون تلو السنين ستظلّ تتذكّره في كوابيسك ومآسيك، وتتخوّف منه في قمّة نجاحك.. هو قاتلك في الصغر بسكّين سيظلّ يقطر بالدم إلى الأبد. لن تمرّ الأيّام بك سعيدة حتى وأنت تراه وهو يتدحرج أمامك على الدرج الرخامي القديم من

Twitter: @ketab_n

مسافة عالية جدًّا. سيعجز عن النطق ويغرق في الدماء ويتجمّع حوله التلاميذ يصرخون وستأتي سيارة الإسعاف لأوّل مرّة مقتحمة حوش المدرسة، وستسعد وستسمع الكلمة التي طالما رغبت في سماعها «خليل مات». وستحكي بطفولتك البريئة لعائلتك المجتمعة حول الغداء. وتخاف أن تسأل عنه في اليوم التالي أو في الأيّام التي تلي. . سيبدو لك أنّك نسيته وأنّ حياتك بدأت تسير بطبيعيّة من جديد. لكن خليلاً سيعود. يعود ويده معلّقة إلى رقبته بشاش وجبيرة من جبس. ستقبّله المعلّمات ويربت على كتفه المدرّسون، وسيزور الناظر فصلك ويهنّئه على السلامة. سيصبح «فاسوخة» المدرسة. ستوقّع المعلّمةُ على جبيرته بقلمها فيقلّدها التلاميذ بالأحرف التي تعلّموها حديثًا. وستؤخّر قدمًا وتقدّم الأخرى حتى يبتسم لك خليل فتتجرّأ وربما تفعل ما يفعلونه. ستكبر ابتسامة خليل وهو يتابع حروفك حتى إذا ما كنت على وشك الانتهاء، سيصرخ متألّمًا ومدّعيًا أنّ سنّ قلمك ثقب جبيرته. ستلومك المعلّمة دون أن تنظر إلى أيّ ثقب، وسوف ينظر التلاميذ بإشفاق. وعندما ينقضي يوم وآخر، ستكون أوّل من يتلقّى ضربة على جانبه من جبيرة خليل، أو دفعة بها أثناء لعبكم كرة القدم بالدوم، أو دومة قويّة يتلقّاها رأسك من تصويبة محكمة من خليل. يا الله! كيف مرّت تلك السنوات الست مع خليل ولم تقتل نفسك أو تقتله؟ وكيف كلّما مرّت السنون في دورات كاملة وتامّة يأتيك خليل في منام أو حلم أو كابوس، وتراه داخل كل شخص يكرهك وتسمع ضحكاته الهستيريّة الشيطانيّة في كل فترة من حياتك حتى لو كبرت أو هرمت؟

لم أجدك يا عصام. باب المرسم مغلق بالقفل الكبير الذي يعني أنّك خارج القاهرة. في الوادي الجديد ربما. في الفيّوم محتمل. لا تردّ على الهاتف والاتصالات. ربما وجدت «موديلاً» جديدة ترسمها

Twitter: @ketab_n

وتحبّها. آخر مكالمة قلت إنّك ستحكي لي شيئًا مذهلاً. استغرقتني مارشا تمامًا فلم أؤكّد عليك الموعد ولم يحرّكني الفضول ولم أهتمّ. أنت تعرفها جيّدًا. فأنت من عرّفتني إليها، وبمجتمعها، بمجرّد أن عدنا من دبي بعد أن قضينا فيها أربع سنوات متتالية وانبهرنا بها تمامًا، ثم أدركنا أخيرًا أنّنا نعيش في مدينة خياليّة مذهلة تشبه ألعاب الكمبيوتر الحديثة. كل شيء متاح وممكن ونظيف وبرّاق لكن ليست فيه لمسة إنسانيّة بشريّة. كنّا كالدمى أو الروبوت. لم أشمّ رائحة الخشب، لم أتلمّس صدأ الحديد، لم تغشني رائحة البول على الجدران، لم أشاهد قمامة بالأرض أو أتربة، لم يعرقلني رصيف مكسور. تجوّلنا بالملاهي والفنادق والشوارع والدهاليز والممرّات وقاعات القمار لكنّنا لم نجد بشرًا. كأنّك تضع سدادة في أذنيك وعيناك مصوّبتان إلى الشاشة ويدك تتلمّس لوحة المفاتيح وتدخل في ممارسات جنسيّة مع أجمل جميلات الأرض. تمنّيت أن أشمّ رياح الخماسين، أن أغوص بقدميّ في وحل الحواري والأزقّة تحت وابل الأمطار، أن أدهس بقدمي بقايا براز، أن أرى أفرع الشجر الصغيرة تجاهد عواصف الطبيعة كي تستمرّ. لم أكن بحاجة لأن أقنعك يا عصام بمغادرة هذه المدينة الفضائيّة ووجوه الناس متعدّدي الجنسيّات. أطعتني وأنت تضحك وبيدك سيجارة بانجو لم تنتهِ، وقلت دون تفكير:

ـ خلاص هانمشي.. كفاية كلام.. إنت بعد كده مش بعيد تعمل قصيدة عن البراز!

عرّفتني بمارشا في جاليري «المشربيّة». قلت لها كلامًا كثيرًا عنّي ونحن نتجادل حول بعض اللوحات، وأخذتني إلى بيتها. صرت أزورها وحدي أعلِّمها العامِّيَة الدّارجة، أعلّمها عزف العود الذي كنت أتقنه، وألحّن عليه بعض أشعاري. صمّمتْ أن أتقاضى أجرًا إضافيًّا

Twitter: @ketab_n

على مجهوداتي في تعليمها العود. حرصتُ أنا بالمقابل على أن يصبح درس العود درسًا ممنهجًا بكتب وسي. دي. عرّفتني على مجتمعها وجعلتني أرتبط بصلات ومصالح معهم. لم تحذّرني منها أبدًا يا عصام. كنت تضحك بعفويّة وتقول:

ـ لمّا تزهق اخلع بسرعة.. غيرها كتير!

لم تنبّهني أبدًا.. لم تقل لي إنّها كالرمال المتحرّكة كلّما دفعت بقدمك إلى أسفل رغبة في الصعود، اقتربت من الموت الأكيد.

Twitter: @ketab_n

- ٦ -

أملك مسدس «بريتا» ٩ مم. الطلقات التسع كلها لاتزال ساكنة بخزنته. أحتفظ به منذ سنوات بعيدة. تمرّ عليّ أعوام كثيرة ولا أتذكّره مطلقًا، وأعوام أخرى أهتمّ به كل بضعة شهور. أتحسّس فوهته وأمسحه بقطعة صوف مبلّلة بالكحول. أتلمّس زخرفة مقبضه، وأشرد كثيرًا متخيّلاً عدوًّا أصوّبه عليه وأصيبه بطلقة منه بين عينيه. ولا أرتاح إلاّ عندما أرى جمجمته مهشّمة تتهاوى ودماءٌ غزيرة تندفع منها. لا أحد على ظهر الأرض يعرف أنّه بحوزتي. لا إخوتي ولا أصدقائي ولا حبيباتي ولا عشيقاتي. أخفيته ببدروم منزلنا الكائن بحيّ الهرم داخل شنطة رقميّة. أنا لا أملك مستندًا بشرائه ولا ترخيصًا بحمله. وقد راقتني جدًّا فكرة أن أَقتُلَ أو أُقتَلَ بمسدّسٍ مجهول النسب.

تمرّ عليّ أيّام كئيبة متتالية وهامش شعوري المراوغ لا يذكّرني به. وحينما أعود إلى طبيعتي أعرف أنّ الأوان لم يحن بعد، وأتوجّس خيفة بأنّ هذا الهامش البشع يهيّئ لي نهاية أبشع.. أنا الآن في حالة نقاهة نفسيّة، وقد أفرغت خزنة طلقاته ونظّفتها وأعدت حشو الطلقات. دسسته مرّة أخرى بمكمنه.. ثم شردت مع تهويمات الماضي. جلستي الجميلة على رصيف شارع قصر العيني بصحبة يوسف حلمي مدير الإنتاج والمنتج السينمائي القديم. حكاياته المثيرة المدهشة عن الوسط الفنّي وطرائفه وفضائحه. كنت شابًّا يافعًا لم يمضِ على تخرّجي أكثر من بضعة أشهر، وحلم العمل بالصحافة يأخذني بعيدًا عن التدريس

Twitter: @ketab_n

ومتاعبه. عرّفني إليه أحد معارفي كان يملك فرنًا للمخبوزات بشارع قصر العيني، وكان يوسف حلمي من زبائنه بينهما ودّ ومحبّة. عندما يراه صاحب الفرن يخرج له كرسيًّا ويطلب له قهوة، وكلّما خلا الفرن من الزبائن خرج إليه يسامره. بعد أن جلست معه أكثر من مرّة بدأ يرتاح لي ويسألني عن خططي المستقبليّة، أخبرته بحلم العمل بالصحافة ورغبتي في أن يملي عليّ سيرته في هذا الوسط كي أقدّمها لأيّة مجلّة فنّيّة مصريّة أو بيروتيّة وأشقّ بعدها طريقي.

تردّد كثيرًا في بداية الأمر، وتعمّدت عدم فتح الموضوع مرّة أخرى أمامه؛ لكن بيني وبين نفسي لم أهمله، بدأت أستمع إليه بشغف وفضول، وكان من يجلسون معنا يملّون حكاياته المكرّرة وعدم انتظام ذاكرته المسنّة وبعد أن بهَتت دهشتُهم من الوقائع المثيرة التي كان يحكيها. لم يتبقَّ له غيري. بدأت أوصله إلى بيته بانتظام بعد أن أخرج من المدرسة التي كنت أعمل بها مكرهًا، وكان غير بعيد عن الفرن. طلب منّي الصعود معه أكثر من مرّة لكنّني كنت أرفض، وأخيرًا قبلت. كنت أعدّ له الشاي والقهوة وأساعده في تسخين الطعام وعمل الأطعمة الخفيفة التي لا تستلزم طاهيًا. اطمأنَّ لي كلّيّة ووافق أن يملي عليّ مذكّراته بشرط ألاّ أنشر منها حرفًا إلاّ بعد الانتهاء منها. كنت أترك مسجّله الضخم العتيق ذا البكرتين يسجّل ما يتفوّه به دون أن أتدخّل حتى يزهق فأغلق المسجّل، ثم أنشغل بألبوماته وبالصور النادرة لأبطال الأفلام القديمة. عندما يلحظ انشغالي عنه كان يبدأ في سرد ذكرياته مرّة أخرى. وكنت أجري مسرعًا لأضغط على زرّ التسجيل. حينئذ كان يتوقّف عن الكلام ويوبّخني. كنت كالأطفال أخاصمه كثيرًا ويبذل مجهودًا في مصالحتي. شقّته الباردة الكبيرة لم يكن مسموحًا لي بالتجوّل فيها عدا صالتها المزدانة الجدران بصور زيتيّة جميلة وبصورتين فوتوغرافيّتين إحداهما لابنه المحاسب شريف والأخرى لابنه

Twitter: @ketab_n

الشهيد سعيد مرتديًا زيّ طيّار حربي. لم يكن كثير الكلام فيما يخصّ أولاده. كان يتكلّم بمرارة وبالقطّارة عن ابنه شريف المحاسب بإحدى شركات البترول وقد تزوّج ونأى بعيدًا عن هذا المكان، وانقطعت الصلة بينهما أو كادت إلاّ من خيط صلة رفيع يمرّ عبر الأسلاك التليفونيّة. كان مسموحًا لي أيضًا باستخدام دورة المياه الصغيرة المخصّصة للضيوف وللخدم وللأقارب غير وثيقي الصلة.

أصبحت بمثابة قسّ الاعتراف ليوسف حلمي. كان يحكي لي عن خياناته المتعدّدة لرفيقة عمره الطويل التي تحمّلته بصبر أودى بها في النهاية كمدًا. كان يحكي لي أيضًا كيف كان منشغلاً بعالمه: نقود ونساء وشهرة.. وحكى أنّه لا يتذكّر أين أنجبت ابنه البكر سعيد، في البيت أم بالمستشفى، ومن ساعدها على الوضع ومن وقف بجانبها ومتى اختتن الطفل، لأنّه كان في رحلة فنّيّة للبنان وسوريا والأردن، وعندما عاد إلى مصر كان عمر طفله قد بلغ العام. ابنه الثاني شريف كان أسعد حظًّا فقد رآه يوسف حلمي بعد مولده بيومين، إذ بالرّغم من أنّه كان يعمل بالقاهرة لحظة ولادته، إلاّ أنّه كان مسؤولاً عن ميزانيّة فيلم ضخم لا يستطيع تركه، لذا أودع زوجته عند أختها حتى وضعت حملها، ثم زارها عندما أتيحت له الفرصة.

في الأغلب كان يوسف حلمي يجلس كل يوم على كرسيه الهزّاز وهو ينظر إلى صورتها المعلّقة في غرفة نومه ويبثّها حبّه الذي لم يتفوّه به إليها أبدًا في حياتها. على الأرجح أيضًا كان يطلب منها مسامحته كل يوم. حين أقابله في الصباح تحديدًا كنت أقدر على التنبّؤ بما حدث له ليلاً. فلو أنّها سامحته كان يتحرّك جسده الواهن الذي شارف على السبعين في كل مكان بالشقّة، وهو يتكلّم بحيويّة شابّ في العشرين، إذا لم تسامحه. كنت أسمع وأنا واقف أمام باب الشقّة صوت خطواته المتعثّرة الثقيلة، ويصلني صوت شهيقه المتحشرج.

Twitter: @ketab_n

وكان يفتح الباب لي بصعوبة فتحة بالكاد أستطيع أن أدخل منها ويغلقه خلفي بوهن. وعليّ أن أبادر في هذه الحالة بالتحيّة التي لا يردّ عليها.

لم يسمح لي بالاحتفاظ بصورة من صور ألبوماته النادرة، يصرّ على رفع بكرات التسجيل بعد امتلائها ويضعها بخزانته القديمة المتربّع على صدرها الخشبي تشكيل نحاسي للأسد البريطاني. كأنّه بلاوعي منه يتجنّب أن تغادر ذكرياته باب صومعته. بدايات الأشهر الميلادية هي من العلامات الفارقة في علاقتي به. كان يوقظني مبكرًا بالهاتف وأصطحبه بتاكسي إلى مقرّ نقابة المهن السينمائيّة ليحصل على شيك معاشه، ثم إلى بنك مصر ليحصل أيضًا على شيك معاشه الوظيفي في حسابات إدارة الإنتاج. لم أُشعره أبدًا بالعذابات التي قد يسبّبها لي في الاستئذان من المدرسة وأثناء انتظاره أسفل النقابة أو في أروقتها، أو في البنك بقاعة الانتظار الخانقة الملتهبة بالصيف والتي لا تقدر مروحتها العتيقة على مواجهة لهيبها صيفًا ولا مدفأتها المركزيّة في اتقاء بردها شتاءً. ولم يكن يسمح لي بالخروج لشرب سيجارة أو للتنفّس. كنت أظلّ محملقًا في قطعة النحاس المرقّمة التي بيدي حتى يحين دوره فأسنده وأقدّم القطعة للصرّاف وأمسك بيده وهو يوقّع ثم أعدّ له نقوده.

كان حريصًا على الدخول إلى الحلواني الشهير المجاور للبنك ليشتري كيلو من الشوكولاتة الفاخرة ويدسّ في يدي قطعتين يدفع ثمنهما. لم أعرف مطلقًا أين كان يخبّئ الشوكولاتة ولا لمن كان يهديها كل شهر، فطيلة وجودي معه لم أرَ قطعة منها أبدًا في شقّته ولا حتى إحدى عُلبها المعدنيّة المزخرفة فارغة في مكان ما، أو غلافها الورقي اللامع وشريطها الملوّن!

المسموح به من ذكرياته كنت قد سجّلته على الأشرطة وغير المسموح به كان يسرده أمامي وهو يرقبني بحذر حتى لا أقترب من الورق والقلم فأدوّنه. رغم حائط المبكى الذي يقيمه يوميًا طلبًا للمغفرة

Twitter: @ketab_n

أمام صورة زوجته الراحلة، وهو الطقس الواجب أو الذي كان يطهّره كما يقول، إلاّ أنّ ابنه شريف كان يجنّنه تمامًا. كان قد تديّن بشدّة وارتدت زوجته النقاب، وكان يصرّ على زيارة أبيه وهو يرتدي الجلباب الأبيض القصير وتحته بنطالٌ قصير أيضًا وعلى وجهه لحية شعثاء. لم يكن باقيًا من عائلة يوسف حلمي غير ابنه، وكان خائفًا جدًّا عليه ويضع أسوأ سيناريوهات مستقبليّة لمستقبل شريف، أقلّها خطرًا أن يهجر العمل بشركة البترول ـ الذي استغلّ أبوه معارفه في التوسّط له للتعيين بها وكان هذا شبه مستحيل ـ ويتفرّغ للدعوة. كان ابنه شريف يهدّده بذلك فعلاً، وكانت خبراتي قليلة أيّامها، فهوّنت على يوسف حلمي هذا الأمر وقلت إنّه مجرّد تخويف.

بدأت أعرف أشكالاً أخرى من تعدّد حالاته النفسيّة التي لم تعد متوقّفة على غضب زوجته عليه أو رضاها عنه. فقد أصبح شريف يتدخّل في حياته خلال زياراته القصيرة المتباعدة. صمّم أوّلاً على إزالة كل صور الفنّانين والفنّانات من على جدران المنزل. وأجبره على إخفاء ورفع أفيشات أفلامه المميّزة. هشّم البار الكلاسيك الجميل الذي كان يتصدّر الصالون، وأفرغ زجاجاته على الأرض، بالرّغم من أنّ يوسف حلمي كان قد توقّف عن الشراب مع تقدّم السنّ به، لكنّه كان يتخذ من البار شكلاً من أشكال الديكور. أصبح يوسف حلمي يتجنّب أن توجد ذكرياته مبعثرة داخل أرجاء الشقّة واعتقلها في خزانته العتيقة.

لم تمضِ شهور ستّة، إلاّ وانتابت يوسف حلمي كآبة ليس لها حدّ، وغرق في حزن شفيف لا مثيل له. وبدأت تضايقني كآبته، وثورته العنيفة، ولأنّني كنت قد أحببته احتملته، وأعتقد أنّه أحبّني، فبدأ يفتح لي صدره شيئًا فشيئًا ويحكي لي ما يضايقه.. تحوّل ابنه شريف إلى نبيّ مرسل وتبدّل إلى هيئة ملاك يخفي جناحيه عن البشر. يلقي اللّوم

Twitter: @ketab_n

على والده بسبب عمله القديم في الوسط الفنّي (القذر!!) ويتّهمه بأنّه ربّاه وصرف عليه من مال حرام. وتمادى الولد فطلب من أبيه التطهّر من هذا النجس، وحرق ما له من صور مع الفنّانين والأرجوزات والاسكربتات القديمة التي لوّثت جيلاً كاملاً من الشباب. أمّا زوجة شريف، التي كان الأب يوسف حلمي قد انتقاها بنفسه واصطفاها زوجة لابنه من وسط بنات عائلات كبار متوسّمًا فيها الخير لابنه ولأحفاده. طلبت منه أن يلوذ بقبر الرسول ﷺ ويطلب المغفرة؛ فقد يمنّ الله عليه بها قبل أن يموت!

الرجل الذي كان صوته يدوّي في أيّ ستديو سينمائي، فيقف كل العاملين، وتتوقّف كاميرات التصوير ويقف كاسْت التمثيل، وكأنّ على رؤوسهم الطير. الرجل الذي كانت ترتعد منه النجمات والنجوم. الرجل الذي كانت تترصّده الصحافة وتتابع أخباره كي ترفع التوزيع. الرجل الذي غامر بكل أمواله من أجل الفنّ، أكثر من مرّة وخسرها كلّها عدّة مرّات، لينهض بإرادة من حديد فيربح أكثر ممّا خسر. نقلته بضع كلمات صغيرة قاسية من ابنه وزوجته إلى قسم العناية المركّزة بمستشفى قصر العيني.

لكنّه نجا أيضًا هذه المرّة وعاد، عاد بهيكله العظمي المتداعي، وبشعره الأبيض المجعّد وعينيه الغائرتين وأنفاسه المتلاحقة. عاد بكل هذا خاليًا من يوسف حلمي القديم!

عندما زرته في بيته هذه المرّة بعد أن علمت بأمر مرضه من البوّاب، كانت دموعه الجيّاشة تصنع قفصًا زجاجيًّا بيني وبينه. لم يعد خجولاً ولا هيّابًا ولا يتحسّس الكلمات قبل أن يطلقها. لم يكن أيضًا مهتمًا بالممرّضة التي تراقبنا وتحذّره ـ بين لحظة وأخرى ـ من خطر الانفعال. لم يكن يتوقّف عن الكلام إلاّ لاسترداد أنفاسه المتقطّعة ووجه الممرّضة يتلوّن خوفًا عليه، وترجوني أن أسكته، فلا أستطيع.

Twitter: @ketab_n

حكى لي عن كل ما فعله به الابن وزوجته. رجوته وتوسّلت إليه أن يهدأ. استجاب أخيرًا بعد أن أوصاني بألاّ أتركه هذه الأيّام حتى ننتهي من المذكّرات، ووعدني بأنّه بعد أن يتعافى قليلاً سيهتمّ بأن يجمع لي كل الصور النادرة والإيصالات الموقّعة من النجوم والاسكربتات التي تتضمّن تعليقاتهم وميزانيّات الأفلام التفصيليّة وأجورهم وكل ما يخصّ حياته الفنِّيَّة من مستندات، وسيسلّمني أيضًا كل الأشرطة. والممرّضة توصلني إلى باب الشقّة رجتني بأن أتركه ليستريح بضعة أيّام، وأن أطمئنّ عليه بالتليفون. غادرته ويقين يملؤني بأنّنا لن نلتقي مرّة أخرى.

Twitter: @ketab_n

ـ ٧ ـ

عصام شريف شخص فذّ، لا لأنّه صديقي الحميم منذ سنوات طويلة، فقد عرفته وخبرته قبل الغربة وأثناءها، ولكن لأنّني اكتشفت عقب استقرارنا بمصر أنّه شخص أكثر من مذهل يحبّه ويوقّره الكثيرون، والمفتونون بفنّه قطاع كبير من الشباب والكبار ومتعدّدي الثقافات. عرّفني بتجمّعات الفنّ التشكيلي الذي لا أجيد فكّ رموزه وأفتقد حاسّة تذوّق جماليّاته، كما كشف لي منطقة وسط البلد التي أسكنها منذ سنوات طويلة. عرّفني باراتها ومقاهيها المميّزة، وقاعات معارضها وجاليريّاتها، أنديتها وشققها الخاصّة التي تعتبر ملتقى خليط من العرب والأجانب، والإليت (الصفوة والنخبة) المصريين الذين تجمعهم الثقافة والفنون. عصام كالنحلة لا يستقرّ عند شلّة معيّنة وله تحرّك دؤوب في اتجاهات متعدّدة. ممكن أن يحبّ السينما فجأة فيتفرّغ لها شهورًا، أو يحبّ المسرح فيبدع في ديكوراته التجريبيّة والتجريديّة، أو يعكف على صناعة الأثاث اليدوي الذي يتخاطفه المتذوّقون. عرّفني إلى مارشا ولم أقابله عندها إلاّ مرّات معدودات في بعض الحفلات التي تقيمها. تعرّفت على الكثير من هذا المجتمع المخملي ـ كما تطلق عليه المجلات البيروتيّة ـ بمفردي، أو عن طريق مارشا، ولم يكن لعصام يد في هذا، إلاّ أنّه كان مرشدي ودليلي عند أيّة مشكلة أواجهها في هذا المجتمع. كان يعرف أنّ البطالة قد تودي بي إلى الجنون، فلم أفلح في أيّة صحيفة بمصر، لم يتحمّلوا مزاجيّتي ولم أحتمل رواتبهم الواهية. ولم تعد بي رغبة في التدريس النظامي.

Twitter: @ketab_n

دخولي وسط هذا العالم كان بفضل عصام الذي أوجد لي فرصًا متعدّدة للعمل وشبكة علاقات عامّة جيّدة ومالاً معقولاً إلى حدّ ما، حيث كان لا ينقصني المال. ورغم ذلك حذّرني كثيرًا من التوغّل في علاقات متشابكة، ومن أن أُستخدم دون دراية فيما لا يليق. لا أدّعي أنّني فهمته جيّدًا ساعتها، فقد كنت منغمسًا في هذه الحالة ومنتشيًا وكنت أدرى بأنّه يماثلني في الطباع والرغبات إلى حدّ ما، ولا يحقّ له أن يعطيني نصائح. فهو يعشق النساء أكثر منّي، ويدخل في علاقات متعدّدة في الوقت نفسه، ولا يمنح نفسه أبدًا لامرأة واحدة. تعرّفت عليه النساء هكذا وأحببنه على ذلك. كنت أغبطه كثيرًا وأعجز عن معرفة سبب وَلَهِ الآخرين الشديد به. هل تطلّ من وجهه روح الفنّان الوثّابة ولا يبدو على وجهي شيء منها. هل لأنّه لا يعمل حسابًا لليوم أو للغد. هل لسمت الحكمة والنورانيّة الذي تكتسي به ملامحه أحيانًا دخل بهذا؟ كان عصام قد تربّى في بيت تحدوه أجواء الصوفيّة، كان جدّه الأكبر شيخًا لطريقة من طرقها وأبوه متشبّعًا بذلك. كان عصام قارئًا جيّدًا في علم النفس والعلوم الميتافيزيقيّة والفنون وكتب الصوفيين والبوذيّة وفلسفة «الطاو»، وكان حريصًا بين فترة وأخرى على إعادة قراءة «المنقذ من الضلال» للغزالي وكتب ابن عربي ويصطحبها معه في الغربة، كحرصه وانتظامه في الذهاب إلى المركز الثقافي الهندي «أبو الكلام آذاد» لممارسة اليوجا. له أيضًا مشوار صباحي يبدأه في السادسة صباحًا من مرسمه في عابدين مخترقًا شوارع جاردن سيتي ثم وسط البلد ثم يعود إلى البيت. يتريّض دائمًا حتى في عزّ الشتاء بالترينج سوت وبشعر خلفي يعقده كذيل الحصان يظلّ يتأرجح معه يمينًا وشمالاً وهو ماشٍ يمدّ الخطى.. عابثه صبيان الورش وبائعو الجوارب والمتسكّعون، وقذفوه بالعلب المعدنيّة وبالسجائر المشتعلة وشيّعوه بشتائم وإشارات الشذوذ. لكنّه لم يهتمّ بهم ولم يغيّر طريقه

Twitter: @ketab_n

ولم يلتفت إليهم حتى اعتادوا عليه، ثم تبسّموا له وأصبح بعضهم يدعوه إلى شرب الشاي. ظننت كثيرًا أنّ الذي يتريّض يوميًّا ويراه الناس ويحدّثونني عنه ليس عصام بل توأمه السرّي. فكيف تتصوّر أنّ من يسهر معك بالنادي اليوناني يرقص ويشرب ويثمل حتى الثالثة صباحًا موعد إغلاق النادي، وبينما أنت تنام حتى العصر يتريّض هو في السادسة صباحًا!!

لو قال لي أحد: رأيت عصام يقف في الهواء أو ينام عاريًا على المسامير أو يخرج من أنفه الثعابين، كنت سأصدّق. أمّا أن يقول لي عوض إنّ عصام مغرم ويحبّ بجنون، وإنّه قد قرّر الزواج قريبًا، فهذا ضرب من المستحيل.. فلو حدث هذا فعلاً كنت أوّل من يعرف. لو حدث هذا فعلاً ـ وهو أمر مستبعد ـ لَلَزم عصام عشر سنوات حتى يختبر حبّه ويتزوّج. لم يغب عنّي أكثر من بضعة شهور وأنا على يقين من أنّي لو تركته أربعة قرون سيظلّ كما هو، صعب جدًّا أن توجد من تجعله يحبّها ويطلبها للزواج بهذه السرعة. عصام طيلة حياته ليس خاليًا من تجارب عاطفيّة مبهجة لكنّها أقصر من دورة حياة الذباب. لم يتزوّج قطّ مثلي، فكيف يقدِم على مثل هذه الخطوة بمنتهى التهوّر!

خبّطت على باب شقّته قبيل العصر.. فتح لي بعد فترة ليست قصيرة وهو يتثاءب. كان مستيقظًا لتوّه من قيلولته. لم يتكلّم معي. تركني أدخل وأتّجه ناحية الحمّام. كابدت حتى وجدت مكانًا أجلس فيه بعد أن أزحت ورقًا وبراويز وبالتات ألوان ومقصّات وأصابع لصق.. عاد وهو يبتسم، ثم قال وكأنّه يتوقّع سؤالي بضحكة عالية:

ـ هو أنا لاقيك خالص بعد أن جذبتك الندّاهة مارشا. هاقولك إزاي؟

قلت ملحًّا: يعني الخبر صحيح!

ابتسم ابتسامة أكبر وقال: هو أنت فاكرني هاعنّس.

Twitter: @ketab_n

ثم أخرج من جيب الترينج الصغير غلافة بلاستيك وفتحها بعناية، وانتشل منها صورة فوتوغرافيّة قرّبها من عينيه أوّلاً ثم قبّلها برفق وناولني إيّاها. أخذتها بغيظ وأنا أحدّق فيها. كانت صورة لفتاة باهتة ذات ملامح آسيويّة حادّة، ولا يبدو في شكلها شيء لافت على الإطلاق. فتاة لو مرّت وسط قطيع غنم وأنت بصدد الزواج منها، لأخطأتها واخترت عنزة بدلاً منها. لاحظ استيائي وتغيّر قسمات وجهي، فقال وهو يمضغ الكلمات:

ـ مش من المفترض أنّ كل النساء يبقوا بجمال مارشا.

هو من عرّفني بمارشا وأنا مدين له بالاعتذار، اعتذرت وقبّلت جبينه وقبل أن أبدأ في سرد تبريراتي أو أقول أقوالاً مرسلة لا داعي لها، بادرني قائلاً: على فكرة أنا عازمك بالليل في المطعم الصيني بالتوفيقيّة عايز أعرّفك عليها. ها تعجبك أوي.

عدت إلى البيت أحمل شعورًا ببعض الكآبة.. إحساس ثقيل أن يخبرك فجأة صديقك أو زميلك المقرّب لك في العمل أنّه مسافر غدًا إلى دول الخليج، أو حين تمرّ على بائع الصحف المفضّل لديك، فتجد ابنه يخبرك بأنّه مات. من الممكن بالطبع أن لا أرى عصام لمدّة أشهر أو سنين. فقد سافر من قبل إلى روسيا لمدّة عامين ولم أكن معه، وسافرت ستّة أشهر لأميركا ولم يكن بصحبتي، وغاب عنّي أوقاتًا كثيرة بمصر ولم أفتقده بشدّة. لكن اليوم انتابني شعور غبي بأنّ مارشا «ليست هي» النداهة التي ستأخذني منه.. هذه الصورة الباهتة لوجه غير مميز، هي النّداهة التي تتخفّى خلف الشجر الملاصق للترع وتسحب ضحاياها لأغوار المياه.. لا استحمامي أخرجني من الكآبة ولا اتصالي بمارشا! تناولت كتابًا من المكتبة. كان عصام قد أهداني إيّاه في عيد ميلادي في سنة ما. كان كتابًا صعبًا استغلقتْ عليّ بعض أجزائه فرددته إلى عصام الذي أعاده إليّ، وبداخله بعض الأوراق كتبها

Twitter: @ketab_n

بخط يده يشرح لي فيها ما استغلق عليّ فهمه. كتاب عن الصوفيّة يتناول العلاقة بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والخلق والإنسان والحقّ، ويشرح مصادر المعرفة أو العلم بالصوفيّة، وهي ثلاثة: أوّلها، العلم النظري، وتعرفه عندما تنظر إلى شيء وتتحقّق منه وثانيها، علم الأحوال ويضمّ علومًا ذات قيمة لا يمكن معرفتها إلاّ بتذوّقها وتكوين خبرات عنها، وهي في الغالب علوم لا تصلح للنقل على حقيقتها كالعلم بحلاوة العسل أو لذّة الجماع أو الحبّ.. وأخيرًا، علم الأسرار، وجزء منه يأتي عن طريق الخبر من شخص ثبت لديك صدقه، كإخبار الأنبياء بأنّ هناك جنّة ونارًا؛ وهو ما يشبه علم النظر، والجزء الثاني منه يشبه علم الأحوال مثل الإخبار بأنّ في الجنّة نهرًا طعمه ألذّ من العسل.. غفوت أكثر من مرّة أثناء القراءة واستيقظت وسؤال مسيطر على تفكيري.. هل يا عصام أحببتها وخَبُرْتها من خلال العلم النظري أم من خلال علم الأحوال؟

فى الموعد تمامًا كنت هناك. رسمت على وجهي ابتسامة، وجاهدتُ أن تبقى على شفتيّ قليلاً. قابلتها. لم أخطئ في توصيفها. العنزة أفضل منها بكثير. فتاة ضئيلة الجسم، فقيرة المفاتن، كالحة الوجه، شعرها الأسود طويل يكاد أن يكون هو الشيء المميّز فيها. إنجليزيّتها حادّة سريعة وصوتها معدني. «بعد أن مرّت عليك نساء العالم يا عصام يكون شاطئك ومرساك في هذه المنطقة المجدبة». الغريب أنّني بدأت أتعامل معها كضرّة. كنت أغتاظ حين تتلمّس يده أثناء الأكل أو وهو يناولها بأطراف الشوكة قطعة لحم، فتلتقطها بفمها الشبيه بفم الضفدع، أو وهو يجفّف فمها بالمنشفة المبلّلة بماء دافئ، ويدلّك يدها بعد الأكل، أو وهي منتشية جدًّا بعد أن سفحت زجاجة خمر كاملة وأوقعت نفسها على حجره وهي في طريقها إلى الحمّام، ولم تنهض بالطبع على الفور، بل تباطأت واستدارت بما يشبه الرقبة،

Twitter: @ketab_n

وقبّلته في فمه وأزالت بلسانها فتات الجمبري والسبيط العالق بزوايا فمه. كان الخجل والحنق يتملّكانني بسبب تصرّفاتها غير المقبولة حتى لو كان معظم روّاد هذا المطعم من الأجانب أو كان العاملون به ينظرون إلينا ويبتسمون.

كان عصام في عالم آخر.. واجتاحني قلق شديد مخافة افتقاده لو أنّني تكلّمت عنها بسوء أثناء وجودها في الحمّام. لاحظ شرودي وسألني عن أسباب تغيّري، خفت أن يقرن استيائي بوجود صاحبته، ادّعيت أنّ بيني وبين مارشا خلافات كثيرة تؤرقني. ابتسم قائلاً: مارشا كأرملة العنكبوت السوداء لن تتركك إلاّ بعد أن تقضي عليك. أمسكت بلجام كلماتي قبل أن تخرج مندفعة نحو مسامعه. كنت أكاد أن أقول له: إنّ مارشا إحدى تجلّيات الجمال الربّاني، بخلاف هذا البرص الذي تتأبّطه متباهيًا به. تأهّبت للانصراف بمجرّد عودتها. سلّمت على عصام وقبّلته ولامستْ أصابعها أصابعي وهي غير متّزنة وغائبة تمامًا، ثم رحلت. علمت بعد ذلك أنّ عصام سافر معها صباح اليوم التالي إلى قرية الجونة في إجازة قصيرة يسترجع فيها ذكريات لقائه الأوّل بها، حين كان مكلّفًا بإتمام رسم عدد من اللوحات ونحت التماثيل الصغيرة لتزيين الغرف ومداخل القرية، و«سامنثا» ـ هذا هو اسمها ولا أعرف له معنى، واحتمال أن يكون معناه في لغتها «الأرض الخراب» ـ كانت بصحبة مجموعة من أبناء وطنها السنغافوريين المقيمين بالقرية للاستجمام وقضاء بعض الأعمال. وعرفت أيضًا أنّ هذا الجسم الضئيل، منعدم المسطّحات والزوايا والأركان والمسمّى سامنثا، هي سيّدة أعمال يقولون إنّها متميّزة وماهرة ومسؤولة عن تسويق فواكه البحر والكافيار والتونة إلى منطقة الشرق الأوسط. يقولون أيضًا إنّها مهتمّة بالفنّ ومتذوّقة جيّدة له. أُعجبتْ بأداء عصام في الأعمال التقليديّة، وانبهرتْ بأعماله الفنّيّة التجريديّة التي رأت صورها من خلال

Twitter: @ketab_n

اللاب توب الذي يحمله. وصار هناك موضوع مشترك بينهما. ثم صارت هناك صحبة. وحلّت رغمًا عنّي ضيفة على عالمي. ربما داخلني بعض الاطمئنان قبل أن أراها.. لكنّني بعد أن رأيتها، ورغم ما استقبحته فيها من قسمات وضآلة وصرامة وضحكات معدنيّة، بتّ متيقّنًا من أنّها الوحيدة التي ستطرح عصام أرضًا وتفوز عليه بلمس الأكتاف، وأنّ ما عرفه وتعلّمه من الصوفيّة والطاو واليوجا وكافّة علوم الميتافيزيقا كان تجسيدًا قويًّا لحضورها، ونبوءة بحلولها، وبرهانًا سماويًّا لقدومها، وأنّ عصام استحضرها لكن ولا ألف مثله أو أقوى منه سيقدرون على صرفها.. عصام صديقي الحقيقي وكل النسوة اللواتي بحياتي إلى زوال.. وأنا محتاجٌ إليه في وحدتي كي يتساند بعضنا على بعض حتى الممات.

كان عصام رومانسيًّا خالصًا في أعماق جيناته، وكنت مثله أو ربما أدّعي ذلك. أجمل أيّامنا كانت ونحن نتسامر في شقّتي أو في مرسمه ونحتسي الروم، وتنفلت منّي أبيات شعريّة وأقسّم على العود بينما يدوّن بقلمه الرصاص اسكتشات هبطت عليه من وحي اللّحظة. كنّا نسكر حدّ الجنون، وربما نترك كل شيء وننزل فجأة قاصديْن ديسكوهات الدرجة الثالثة ثم نعود ببعض الساقطات. ونتخلّص منهنّ بسرعة بعد قضاء الوطر أو حتى بدونه. كنّ أحيانًا يطلبن المبيت معنا نظير التنازل عن بعض الأجر. وكنّا نطردهنّ خوفًا من السرقة، أو تشبّعًا من الجنس، أو قرفًا وزهقًا منهنّ. ثم نعود إلى السكر وإلى البكاء افتقادًا للرومانسيّة. بي جرح قديم لم يندمل. وبه حنين جارف لقصّة حبّ حقيقيّة.. ثم أشعار قديمة لي ولغيري تتوالى من فمي، وذكريات عن فنّانين عظماء لا يتوقّف عصام عن سردها. يشير إلى جدران شقّته وهو يحدّثني عن فنّان عالمي من أميركا اللاتينيّة، مكسيكي الجنسيّة اسمه «دييجو ريڤيرا»، كان يحبّ زوجته الفنّانة التشكيليّة «فريدا كالو» بجنون،

Twitter: @ketab_n

وعندما أقعدها مرض خطير وجعلها عاجزة عن الخروج والتواصل مع العالم، اعتكف دييجو في شقّته مستخدمًا إبداعه وموهبته في الرسم على جدرانها وأسقفها وأرضيّتها وأعمدتها وأثاثها. رسم كل الأشخاص الذين كانت تحبّهم «فريدا» والأماكن التي كانت تشتاق إليها: المزارع والسماء والنباتات التي تحبّها، والحياة الطبيعيّة لسكّان المكسيك التي تعشقها. كان يتفنّن كل فترة في إبداع رسومات أخرى جديدة كي يجعلها لا تحسّ بلحظة عجز واحدة. لم تكن تشتاق لرؤية مكان أو شخص إلاّ ووجدته أمامها. ظلّت هذه الصورة المدهشة للعشق تلازمني طويلاً.. أن أختزل حياتي لأجل من أحبّه وأن أعوّضه عمّا حرمته الطبيعة منه أو عمّا بطشت به يد القدر القاسي. لم أفعل هذا مع هند التي تركتني مبكرًا، ولم يعد حبّي لأيّة فتاة أخرى يتساوى مع حبّ هذا الفنّان لزوجته، ولم أفعل ذلك مع أمّي التي ظلّت حبيسة الشقّة لعامين وقد تكالبت عليها كل الأمراض والعلل ومشكلات شقيقتيّ. كنت أتركها للجيران يرعونها ويهتمّون بها؛ وأعود ليلاً مترنّحًا ومنتشيًا؛ وقبل أن أندسّ في الفراش، ألقي عليها نظرة واحدة من بعيد دون أن أجرؤ حتى على الاقتراب منها وتقبيلها. أنظر من بعيد إلى انتظام تنفّسها وإن كانت ستعيش يومًا آخر. وأسمع صباح كل يوم صرير عجلات درّاجتها المعاونة وهي تدخل المطبخ لتلتقط برّاد الشاي، ثم تضعه على السبرتاية وتسخّن لي شرائح الخبز إن لم يوجد بقسماط، وتنتظر حتى أنهي حمّامي. وتطمئن على أحوالي بالعمل وتوصيني على ابن جار لنا أعطيه درسًا خصوصيًّا بالمجان بأوامر منها، أو توصيني على شقيقتيّ وتطلب منّي أن أساندهما ضدّ جشع زوجيهما. لم أسأل نفسي مطلقًا: كيف تقضي أمّي يومها بين جدران البيت الباردة؟ وكيف تتساند على أعمدة السرير كي تصعد، ثم تنام؟ كيف لم أصرّ على أن تعتني بها خادمة مدرّبة؟ وكيف انسقت وراء ادّعائها بأنّها

Twitter: @ketab_n

ليست في حاجة إلى خادمة؟ كنت بداخل عالمي المضبّب أخوض في ممرّاته المتشابكة؛ إلى أن جاء يوم أيقظتني فيه بصعوبة كالمعتاد وهي تنظر إليّ نظرات لائمة، ثم صبّت لي الشاي وأنا في سريري ونصحتني بأن أحضر منبّهًا لأنّها لن توقظني من الغد، وأنّها قد زهقت من تدليلي، ثم حثّت عجلتها منصرفة.

بمجرّد ما انتهيت من حصّتي الأولى أرسلتْ المديرة في طلبي.. عزّتني بأسى.. أدركت أنّ قضاء الله قد نفذ وأنّها حقًّا لن توقظني بعد اليوم. رفعت الملاءة البيضاء التي كانت ترقد تحتها بأمان، احتضنتها وقبّلتها وقاومت الجيران الذين كانوا يدفعونني بعيدًا وهم يصرخون في وجهي: حرام.. حرام.

أحيانًا كثيرة أتمنّى أن أدفع عمري كله مقابل أن تعود إلى الحياة ولو ليلة واحدة.. أحملها فوق ظهري وأطوف بها العالم!

Twitter: @ketab_n

- ٨ -

لمدّة ثلاثة أيّام وأنا أوالي الاتصال بيوسف حلمي. . وكانت الممرّضة تطمئنني وصوتها ممزوج بالقلق، وفي اليوم الثالث أخبرتني بأنّ ابنه وزوجته معه وسألتني عمّا إذا كنت أريد أن أكلّمهما. توسّلت إليها أن لا تذكر اسمي أمامهما وأن تدّعي أنّ من اتصل صديق قديم من معارفه. بعد ذلك انشغلت عنه بتحضير امتحانات نصف العام وببعض الدروس الخاصّة ولم يعد لديّ وقت للمرور على الفرن. إلى أن أرسل صاحب الفرن بصبيّه إلى المدرسة يطلب إليّ الحضور مسرعًا. توجّست واستأذنت المديرة وذهبت إليه. فوجئت عندما أخبرني أنّ يوسف حلمي يريدني أن أزوره ضروري، وأنّه كلّف الممرّضة بالاتصال بالفرن عدّة مرّات لهذا السبب. احترت رغم ارتياحي لوجوده على قيد الحياة، ولا أدري لماذا استبعدت هذه الفكرة وكل مقوّمات هذا الرجل العنيد تشي بقدراته الكبيرة على المقاومة. . أوصلتني الممرّضة إلى غرفته. بدا شبحًا متهالكًا وغابت الدماء عن وجهه. لكن صوته كان قويًا وهو يسترسل في ذكرياته ولا يتوقّف حتى وهو يتناول دواءه أو حين تغرس الممرّضة سنّ الإبرة في عروقه أو وأنا أغيّر الأشرطة. . كان حكيه هذه المرّة مدهشًا وفاتنًا. سرد لي حكايات غاية في الطرافة ووقائع مذهلة. كانت الممرّضة تستحثّني على أن أتوقّف وكان ينهرها لتدخّلها فيما لا يعنيها. استأذنته في أخذ الشرائط

Twitter: @ketab_n

معي، فقال باسمًا إنّه سيجمعها مع ألبومات الصور النادرة وورقة موقّعة منه بالموافقة على النشر، وسيرسلها إليَّ مع الممرّضة غدًا عند صاحب الفرن، وما عليَّ إلاّ أن أمرّ عليه بعد انتهاء العمل بالمدرسة وآخذها. كنّا قد سجّلنا كثيرًا من الأشرطة، وما رأيته من ألبومات صور وأفيشات لا تسعه حقيبة سفر كبيرة. كنت متخوّفًا من احتمال أن لا أحصل عليها، ومتخوّفًا أكثر من أن أتهوّر وأقول لصاحب الفرن: سآخذها اليوم، فيرفض بعنف كعادته فأتسبّب في إجهاده والقضاء عليه. سكتّ ولم أنطق وإن بانت على وجهي خيبة الأمل، لأنّه تأمّلني وابتسم ثم أشار إليّ بأن أقترب، وجذب أذني تجاه فمه حتى لا تسمعه الممرّضة وهمس لي واعدًا بأنّ كل ما أريده وأتمنّاه سأجده غدًا في المخبز، وأنّني سأجد أيضًا «كيلوتات» فاتنة لنجمات شهيرات قد كتبن على كل «كيلوت» بالقلم الروج يوم اللقاء والحرفين الأوّلين من يوسف حلمي بجوار الحرفين الأوّلين من اسم الممثّلة. ضحكت. لكنّه نظر إليّ بجديّة وقطّب جبينه، ثم قال بصوت عالٍ: إنت مش مصدّقني؟

هززت رأسي وأنا أواصل الضحك، فابتسم وقال: بكره تشوف. استأذنته في الانصراف، فرفض بشدّة وأخبرني أنّه سينام ساعة ثم يستيقظ ليحكي لي باقي ذكرياته التي لم يعد باقيًا منها غير القليل، ثم طلب من الممرّضة بعنف أن تغلق الباب وألاّ توقظه إلاّ بعد ساعة بالتمام، وألاّ تسمح لي بالانصراف حتى يستيقظ.

اضطررت إلى انتظاره وأنا أحسّ بأنّ هذه هي الجلسة الختاميّة بيننا. كان الأسى والحزن يتملّكانني، ومشاعر غامضة بائسة تجثم على أنفاسي. لم أكن قد تخلّصت من مأساة ترك هند لي حين تعرّفت على هذا الرجل. هند تركتني منذ ثلاثة أعوام وكأنّها معي الآن تهمس في أذني بألاّ آمن للحياة وغدرها.. هل سأفقده؟ هل سأفتقد ذكرياته التي

Twitter: @ketab_n

يرسلها بتدفّق ويبعث فيها الحياة، فتبدو طازجة تمامًا ومثيرة للدهشة مهما أوغلت في القِدم؟ سأفتقد ابتساماته ودموعه، إذ كان غالبًا ما يتذكّر في نهاية كل جلسة شيئًا يبكيه حتى يكاد أن يدمي عينيه ممّا يجعلني أنصرف وفي نيّتي ألاّ أعود، لكنّ الشفقة عليه تغالبني فأنسى كل شيء وأعود لسماعه والتسرية عنه. كان يتذكّر زوجته كثيرًا وتختلط في ذاكرته المجهدة التي تجاوزت السبعين بعض الأمور الفنّيّة أو أسماء الأبطال أو تواريخ إنتاج الأفلام، إلاّ ذكرياته مع زوجته.. كان يحكيها بدقّة متناهية وبتفاصيل ووقائع لا خلل بها مطلقًا حتى حين يعيد حكيها مرّات.

كان منشغلاً ـ ذات مرّة ـ بتنفيذ فيلم كبير «أصبح شهيرًا فيما بعد». وفي الاستديو تعطّل الونش «crane» قبل بداية اللَّقطة، أرسل من يأتي بغيره، وتوسّل للمخرج أن يصوّر اللّقطات العاديّة حتى لا يتعطّل التصوير وينخرب بيته الذي حضر إليه في تلك اللَّحظة. فقد جاءت زوجته المحظور عليها زيارته أثناء عمله. على كتفها ابنها شريف وبيدها ابنها الأكبر سعيد. انزوت السيّدة في ركن قصي من الاستديو ترقب العمل، وبكى شريف بصوت عال قبيل نهاية المشهد المعاد للمرّة العاشرة. صرخ المخرج وأوقف العمل مطالبًا بطرد كل من لا عمل له بداخل الاستديو. هرع إليها يوسف حلمي بغضبة مقموعة. لم يستمع إليها ولم يسألها عن سبب حضورها. لم يقبّل شريف ولم يحتضن سعيد. دفعهما دفعًا بقسوة داخل سيّارته وهو يأمر سائقه بإعادتهما إلى البيت.. ثم أعطاهما ظهره متّجهًا نحو باب الاستديو غير ملتفت لارتجافة الصغيرين وصوت بكائهما العالي، ولا لدموعها القانية حبيسة حدقتيها. واكتفى بأن سأل السائق عقب عودته عن سبب حضورهم، فلم يفده بشيء. زادت عصبيّته بعد انتهاء المشهد وهاتفها يسألها عن سبب حضورها المفاجئ. قالت له كلامًا اعتبره تافهًا لحظتها:

Twitter: @ketab_n

.. أنت وحشت الوِلاد وقعدوا يِزنُّوا عشان يشوفوك!

سبّها ولعن جهلها وغباءها الذي جعلها لا تميّز ولا تقدّر احتياجات فنّه من التركيز والبعد عن المشاكل، ثم هدّدها بإعادتها إلى بيت أمّها مرّة أخرى (وكان كثيرًا ما يغضب عليها ويرسلها إلى هناك ولا يسأل عنها حتى تأتيه طواعية). اعتذرت زوجته بصوت تخنقه الدموع. الآن يمكنني أن أجزم أنّ ما بكته زوجته في ذلك اليوم وفي الأيّام التالية ليس بقدر ما بكاه أمامي يوسف حلمي وهو يحكي تلك الواقعة، كلّما تذكرها.

وفاة يوسف حلمي متوقّعة في أيّة لحظة، وليس مستبعدًا أن تحدث أمامي. أومأت إليّ الممرّضة التي ضيّفتني بكوب شاي رائع أن توقظه. نظرت إلى ساعتها ودخلت إليه. أعطته دواءه وحقنته وقطعت له تفّاحة أطعمته إيّاها شرائح. دقّ الجرس، فانتبهتُ والممرّضة تفتح. دخلت فتاة عاملة جميلة، وبيدها حقيبة سامسونيت كالتي أحملها وأدسّ فيها كرّاسات الطلبة. أدخلتها إليه الممرّضة وعادت وهي تبتسم متعجّبة، ثم دخلت المطبخ لتعدّ لها عصيرًا. زهقت ومللت لكنّ الفضول كان يتملّكني. دخلتُ لتقدّم إليها كوب العصير، ثم عادت وجلست بمقربة منّي. لم أسألها، لكنّها ابتسمت واقتربت وهمست في أذني: دي الكوافير بتقصّ ضوافره يعني بديكير.. بتجيله مرّة كل أربعة أيّام.

ابتسمت. كان يجب أن أتوقّع. همست لها: هو نسي إنّي قاعد برّه!. ردّت: لأ. هو أوّل ما صحي سألني عنك وقال لي ما تخرجيهوش.

قرّرت أن أتحمّل هذا اليوم حتى نهايته، فأختي الصغرى بالبيت اليوم، تعدّ طعام الأسبوع حسب الجدول المتبادل بينها وبين أختي

Twitter: @ketab_n

الكبرى. مرّة لتجهيز الطعام، ومرّة لتنظيف المنزل والغسيل. بمجرّد أن تراني إحداهما تسلّمني أمّي كدفاتر العهدة وتطير عائدة إلى زوجها النذل حتى لا يطيّن عيشتها. فلتتحمّلني أختي الصغرى اليوم حتى لو طلّقها زوجها، أو عليها ـ إن اضطرت ـ أن تترك أمّي في رعاية الجيران، وهو أمر كثير الحدوث. خرجت الكوافيرة من عنده وأخيرًا طلب منّي الدخول إليه. بادرني بالاعتذار عمّا سبّبه لي من تأخير. ثم طلب من الممرّضة بوهن شديد ـ وهو يعطيها ورقة ماليّة كبيرة الفئة ـ أن تشتري له بعض الجبن المستورد والمخبوزات الفرنسيّة وكيلو شوكولاتة من تسيباس. امتعضت الممرّضة بعض الشيء، فابتسم باستعطاف ومسكنة، وقال لها بأنّها مثل ابنته، ونفسه أن يأكل هذا النوع من الجبن كما أشار إليّ وأخبرها بأنّي سأرعاه في فترة غيابها. امتثلت الممرّضة بعد تردّد، ثم غادرت.. عادت الدماء إلى جسده مرّة أخرى. تورّد وجهه كمن كان ينتظر انصرافها منذ سنوات. الرجل الذي ظلّ يكلّمها وهو راقد على ظهره يكاد ألاّ يتحرّك، نهض بنصفه الأعلى واستدار رافعًا الوسادة التي يسند رأسه إليها وأمسك سلسلة المفاتيح التي وضعها أسفل المخدّة، ثم ناولني إيّاها. سألته بريبة: ليه؟ بنظرة حادّة وبصوت قوي زعَقَ في وجهي: امسكها قبل ما ترجع البنت. أمسكت بها.. أشار لي نحو الخزانة العتيقة التي كانت عن يمين سريره وقال لي آمرًا: افتح الخزانة دي. أنا عايز منها حاجة. تردّدت أكثر لكنّه بدأ يصرخ في وجهي: متعصبنيش أنا ما صدّقت إنّها نزلت. أطعته وأمسكت المفاتيح بأطراف أناملي وفتحت باب الخزانة وأنا أبتعد عنها بسرعة. قال بحدّة: قرّب منها هو إحنا هانفضل طول اليوم في الموضوع ده.. لم أتحرّك. صرخ في وجهي: هو أنا قلتلك افتحها عشان تصوّرها. أنا عايز منها حاجة ضروري.

Twitter: @ketab_n

نبرات صوته العالية خدّرت أعصابي وجعلتني أسير كالمنوَّم مغناطيسيًّا وأفتح الخزانة. داخل الخزانة ثلاثة أرفف عراض كبار وأسفلها درج كبير مغلق. بالرف العلوي بعض النقود الأجنبيّة والرف الثاني خالٍ تمامًا، أمّا الرف الثالث فعليه بعض رزم من النقود المصريّة فئة العشرين جنيهًا. كنت في أوج توتّري وعلى استعداد أن أسبّه وألعنه وأخسره نهائيًّا لو كان يخطر بباله أن يمنحني نقودًا تحت أيّ مسمّى. تحفّزت وسألته كمن يستحثّ النهاية. أدّيني فتحتها ووقفت جمبها عايز منها إيه؟ أدهشته حدّتي لكنّه أشار إلى الدرج الكبير المغلق، وقال: عندك في السلسلة مفتاح صغير افتح بيه الدرج ده. فتحت الدرج وجذبته إلى الخارج ووجدته مليئًا بالأوراق والدوسيهات، ارتحت قليلاً وقد ضمنت أنّه سيعطيني بعض المستندات المهمّة الخاصّة بموضوع مذكّراته. قلت له بحماسة: عايز أيّ دوسيه منهم؟ ابتسم قائلاً: ارفع الدوسيهات كلّها. ففعلت واصطدمت أصابعي بشيء صلب بارد فارتجفت، وضعت المستندات على السرير، وعدت أستطلع الشيء الرابض هناك.. كانت طبنجة مخيفة.

ارتعدت حين تجاوزني صوته: ناوِلني الطبنجة لو سمحت. كنت في بدء حياتي والمصائب تلاحقني باستمرار لكن هذه كانت أعظمها. هل يتصوّر هذا المعتوه أنّني يمكن أن أناوله الطبنجة فيقتل بها نفسه وتتوالى عليَّ الكوارث والبلايا. قلت له بحدّة: مش جايب طبنجات. فنظر إليّ طويلاً ثم قال بابتسامة مَنْ فطن: أنت متخلّف. فاكرني هاقتل نفسي بيها. أنا فنّان يا بني، يعني عايز ميت عمر على عمري. ناولها لي وبطّل غلبة!

لا أدري ما الذي أدخل على قلبي من كلامه بردًا وسلامًا، واقتنعت فعلاً بأنّ مثل شخصيّته أبدًا لا تنتحر، ورغم ذلك ناولته إيّاها بتردّد.

Twitter: @ketab_n

أخذها منّي وقبّلها، ثم أشار ناحية المستندات، وهمس لي: رجّع الحاجات دي بسرعة، أعدت المستندات ووقفت متردّدًا فأشار إليّ بغلق الخزانة، فأغلقتها. طلب منّي المفاتيح. أمسكت بطرف الملاءة ودعكت بها المفاتيح خوفًا من أن تظهر بصماتي عليها، ضحك وقهقه بصوت عالٍ وهو يقول لي: لو أنا لسه بشتغل زيّ زمان، كنت خلّيتك تكتبلي أفلام بوليسيّة.

طلب منّي الجلوس إلى جواره، أعدت الطبنجة وأنا في غاية الحذر، لكنّه قبّلها مرّة أخرى. فقلت له: هات المفاتيح عشان أرجّعها الخزانة، ابتسم وقال: أنا هاديهالك هديّة، صرخت: يا نهار إسود.. أنت فاكر دي حتّة شوكولاتة.. دي يلزمها تراخيص ومستندات.. وبعدين أنا مش عايزها.

نهضت معترضًا. فأومأ إليّ برأسه أن أجلس. جلست دون أن ترتاح عجيزتي على الفراش بالكامل. بدأ يتكلّم فشعرت بارتياح في جلستي وبدأت أستمع إليه بإنصات، وهو يقول ما أذهلني تمامًا وما لم يقله طيلة الأشهر الطويلة الماضية. قال إنّ هذه الطبنجة ليست له.. فهي السلاح الميري لابنه الشهيد سعيد الذي استُدعي فجأة صبيحة حرب أكتوبر ١٩٧٣، فغادر البيت ناسيًا طبنجته الميري ولم يعد مرّة أخرى. قاد طائرته وحارب أربعة أيّام متتالية ثم احترق معها. لم يسأل أحد عن الطبنجة ولم يخبر يوسف حلمي أحدًا بسرّها عدا زوجته، ومنذ ماتت أم الشهيد لم يعد يحتفظ بهذا السرّ أحد سواه.. سألته: حتى شريف ما يعرفش؟ هزّ رأسه وقال: طبعًا وهايعرف منين؟ استطردت بحماقة: وإنت ليه ما سلّمتهاش للقوّات المسلّحة؟

تأمّلني، ثم قال: ـ ما كانش من المناسب إنّي أقولهم ابني حارب من غير طبنجته. وبعدين حسّيت إنّ ربّنا سابها لي ذكرى من ابني.

Twitter: @ketab_n

كان قد بدأ يستغرقه حزنه وأساه القديم، فقلت محاولاً تغيير الموضوع: على العموم أنا أشكرك جدًّا، بس أنا ماقدرش آخدها وبعدين مش عارف إيه السبب اللي خلاّك تدّيها لي أنا بالذات؟

قال لي أشياءً مستحيلة لم أؤمن بها لحظتها ولا حتى الآن.. قال إنّ الأيّام الأخيرة قرّبته كثيرًا إلى أهل السماء؛ فبدأ يتواجد معهم أكثر ممّا يتواجد معنا. هممت بالكلام فأسكتني بإشارة دالّة من يده، وأنّه لا تمرّ ليلة إلاّ وتزوره أمّ الأولاد في المنام أو يأتيه سعيد.. سعيد يعتذر له عمّا بدر من شريف تجاهه، ويطلب منه أن يسامحه، وأم الأولاد تقسم له بأنّها صفحت، وأنّها تنتظره بشغف كي تبثّه شوقها واحتياجها إليه.. وأنّه سأل الشهيد سعيد منذ فترة ماذا يفعل بالطبنجة ولم يردّ سعيد بادئ الأمر، لكنّه جاءه في المنام أمس فقط، وطلب منه تحديدًا أن يعطيني إيّاها.

لم أعرف حقيقة مرض يوسف حلمي، وإن بتُّ أعتقد أنّه ينتهي بالجنون. لقد جُنّ الرجل فعلاً. صمّمت ألاّ آخذها منه فبكى وأقسم بأنّها رغبة ابنه سعيد. عجزت عن فعل شيء. استسلمت تمامًا أمام دموعه الصادقة وقسَمه وأقواله المبهمة على لسان ابنه الشهيد. طلب إليّ أن أضعها بسرعة في حقيبتي قبل أن تعود الممرّضة.

هممت بالانصراف لكنّه أصرّ على أن أجلس من جديد، غامزًا لي بعين، فاقتربت منه، لأسمع همسه: لازم نشتغل شويّة عشان الممرّضة ما تقولش حاجة لشريف. هي في الآخر حتسلّم ضميرها للي يدفع أكتر. كانت الممرّضة التي يشكّك في ولائها قد وصلت ودخلت المطبخ لتضع المشتريات. طلبت منه أن أتصل بالمنزل كي أطمئنّ على والدتي فسمح لي. عرفت أنّ أمّي نائمة، وأنّ جارتنا تتسلّى بمشاهدة التليفزيون، فاستأذنتها بحجّة أنّ لديّ عملاً مسائيًّا فوافقت عن طيب

Twitter: @ketab_n

خاطر، وأخبرتني أنّها تطمئنّ على أمّي كل فترة. أغلب الجارات يعاملن أمّي كأمّهنّ، ولديهنّ مفاتيح لشقّتنا يدخلن إليها في أيّ وقت شئن. أحضرت الممرّضة بعض الجبن والمخبوزات لكي أتغذّى كما أمرها يوسف بيه. أكلت كمِّيّة صغيرة وخرجت إلى الشرفة لأدخّن سيجارة.

عندما عدت إليه انطلق يحدّثني عن عشيقاته، وكيف كان يقضي أيّامًا عندهنّ كانت أكثر من الأيّام التي كان يقضيها بمنزله، وبدا على وجهه الزهو، وهو يحدّثني كيف أنّه كلّما أغضب واحدة من عشيقاته تأتي إلى منزله وتفضحه أمام زوجته محذّرة إيّاها من خطر الباقيات. لكن زوجته لم تجرؤ يومًا على مناقشة هذا الموضوع معه. أحضرت الممرّضة جهاز التسجيل، وراح يسرد تفاصيل يعتبرها مهمّة في حياته الفنِّيّة، وإن كنت قد اكتفيت بما سرده سابقًا في الشرائط. شعرت برغبة في التثاؤب، وبدأ النوم يداهم جفنيّ، بينما كان يتدفّق بحيويّة في الكلام.

لم يدقّ جرس ما معلنًا دخول زائر، ولا سمعت صوت المصعد وهو يتوقّف أمام الدور الذي نتواجد به، ولا حتى مرّت على أذني تكّة من تكّات المفتاح وهو يولج في الباب. لا أعرف من أين فجأة، هاجمني ظلّ مارد عملاق يرتدي الجلباب الأبيض القصير في مواجهتي وإلى جواره شبح لامرأة منقّبة ضئيلة الحجم، عندما رأتني تراجعت واحتمت بهيكل زوجها. وشاهدت ارتعاشة يوسف حلمي ولهاثه وعينيه وهما تزوغان ولون الدماء الفاتح وهو يفارق وجهه مخلّفًا لونًا أصفر. لم ينبس العملاق بكلمة. فقط ظلّ مصوّبًا نظرات حادّة من عينيه إلى يوسف حلمي فاختزلتها كلّها. نظرات تماثل في نفاذها شعاع الليزر كما في أفلام الخيال العلمي، أحالته في لحظة إلى عجوز متهالك نسيه

Twitter: @ketab_n

الموت منذ سنين. . اقترب الشخص بتؤدة وبقسمات وجهه التي أظهرت القسوة والكراهية في بضعة خطوط. انحنى والتقط من بين يديَّ الصور النادرة لعشيقات يوسف حلمي من الممثّلات اللواتي كان يحكي لي عنهنّ والأوراق التي كنت أخطّ عليها بعض الملاحظات، فمزّقها بيديه في لحظات. . أمّا المنقّبة فانهمكت في سحب بكرات الأشرطة من المسجّل وتحفّظت عليها، ثم أمرت الممرّضة بإحضار الأشرطة الأخرى الملقاة بجوار السرير. حوّلت نظري إلى يوسف حلمي مستجيرًا به. كانت حشرجته قد بدأت ترتفع، وانتفخت عروق رقبته وتلوّث زجاج نظّارته بعرق غزير، وبالكاد نطق وهو يشير إليه متحسّرًا: . . ابني شريف.

هذا البغل شريف لم يعطني فرصة لاحتضان أبيه ووداعه. أمسك بياقة قميصي كما تمسك سيّدة المنزل بالأرنب المدجّن، أبعدت يده بعنف مكتوم فثار وراح يتّهمني بأنّني لصّ أستغلّ عجوزًا مخرّفًا للكسب من وراء حكاياته الخرقاء، ثم هدّدني بأفاعيل كثيرة. كان يوسف حلمي يصرخ بوهن كي يمنعنا من التشاجر ربما، أو كان يودّ أن يقول شيئًا أخيرًا. . ألقت إليّ المنقّبة بحقيبتي، وجرّت الممرّضة لتحتمي داخل المطبخ. ومات يوسف حلمي.

لكنّه لم يغادر الحياة. عاد مرّة أخرى إلى غرفة العناية، حيث بقي فيها يومين حتى أعلن الأطباء وفاته. مات يوسف حلمي دون إعلان وفاة بالأهرام ولا سرادق عزاء بجامع عمر مكرم كما كان أصدقاؤه يموتون. . أخبرني البواب في الأيّام التالية بأنّ ابنه رفض أن يدفنه في المدفن الذي اشتراه يوسف حلمي من نقابة المهن التمثيليّة، ودفنه في مدفن خاصّ بعائلة زوجته المنقّبة، مفرّقًا بينه وبين أمّه التي عندما ماتت دفنها يوسف حلمي بمدفنه ليكون بجوارها. لم أُعزِّ أحدًا في يوسف

Twitter: @ketab_n

حلمي إلى الآن. فقد كنت أنا نفسي في حاجة إلى العزاء. بقيت لديّ ذكريات مبتورة معه لا أدرى ماذا أفعل بها. لكنّني أصبحت أمتلك طبنجة بريتا ٩ ملم، ولا أدري أيضًا ماذا سأفعل بها، لكنّ الشهيد سعيد يدري!

Twitter: @ketab_n

ـ ٩ ـ

كان الخبر متوقّعًا ولم يزعجني إلاّ قليلاً: كريم بالسجن فعلاً بعد أن شوّه وجه زوجته وردة بحدّ الموسَى. أتت وردة إلى المقهى مساءً كما كانت تمرّ عادة في جولتها الليليّة. كانت ترتدي جلبابًا يشفّ عن جسدها، كاشفًا ملابسها الداخليّة المهترئة. كان وجهها مزروعًا بالقطن والضمّادات، لا يبين منها غير عينيها السوداوين المتّسعتين وأهدابهما الكثيفة وفمها الواسع. ترنّحها ينبئ عن تعاطيها أكثر من ثلاث عبوات من الكلّة وزجاجة كاملة من الكوديفان. بالكاد وقفت وسط الشارع الضيّق أمام واجهة المقهى الذي نجلس عادة به، والذي احتفى روّاده بها صاخبين ليلة زفافها على كريم. وقفتْ بتحدٍّ أمام معظم الزبائن الذين منحوها نقودًا ووزّعوا على شرفها المفقود زجاجات المياه الغازيّة وعصائر المانجو والفراولة والكوكتيل.. كان رأسها يميل بها إلى الخلف وهي تسبّنا وتشخر لنا فاقدةً الاتزان تمامًا. لم يقترب أحد منها. الجميع يتفرّجون مثلنا تمامًا. صرخت أمامنا بصوت عالٍ فرحانة وشمتانة لا تخفي أنّها سجنت كريم، وأنّه لن يخرج من السجن أبدًا. كادت تقع وهي تشتمنا وتتّهمنا بالبرود. هرعت إليها بعض زميلاتنا المثقّفات اللاتي كنّ يعطفن عليها ويساعدنها ويجلسنها معهنّ وهنّ يقدّمن لها المشروبات ويجعلنها تشاركهنّ أطعمتهنّ. رفضت أن تجلس معهنّ ونطرت أيديهنّ بعيدًا عنها. كان الموقف عبثيًّا تمامًا وهي بجلبابها القذر الذي يشبه الطين وشبشبها المقطوع وتبرز منه مقدّمة قدميها المقّشفتين تبعد عنها المثقّفات كما تبعد الذباب عن وجهها حتى

Twitter: @ketab_n

لا يقتسمن معها الكلّة. أبعدها عمّال المقهى بقسوة لكنّها عادت بعد قليل بصحبة زميل كلّة ومضت تتأبّطه وتحضنه وتميل عليه وتتأوّه كأنّها تكيدنا به. لم أجرؤ على الاقتراب منها رغم حاجتي إلى معرفة كل شيء عن كريم. جرى وراءهما عمّال المقهى هذه المرّة فابتعدا وشتائمها تهدر وسبابها يصل آذاننا، كانت تقذفنا بما تجده من قمامة في الطريق. استمرّ العمّال في الجري وراءهما حتى اختفيا عن أنظارنا.

في السابق جلست معنا وردة أكثر من مرّة بصحبة كريم. وكانت تنظر إلينا كغرائب طبيعة، وتحدّق بإعجاب في وجوه زميلاتنا اللواتي يشربن الشيشة التفّاح ويضعن «الشاليموه» في أفواههنّ كالسجائر وهنّ يمتصصن المشروبات. كانت تطلب كوكتيل ثم كانز بالشاليموه ثم شيشة، وكريم ينظر إليها بفخر ونظراته تشي بأنّ وردة في مخيّلته أهمّ ألف مرّة من هؤلاء المثقّفات المدّعيات. كانت تدرك بذكائها الفطري أنّ محور الحديث الدائر معها عن حياتها مع كريم لا يهمّ كل هؤلاء الحاضرين الملتفّين حولها. هم يودّون أن تكلّمهم عن العلاقة الجنسيّة بينها وبين كريم. كلهم بلا استثناء رجالاً ونساءً. لذا كانت كل مرّة تحكي قصّة مختلفة عن. . كيف اغتصبها سبعة عشر ولدًا ذات مرّة، وعشرون عامل نظافةٍ مرّة، أو خمسة عساكر وثلاثة مخبرين ثم تحلّى بها الضابط المأمور في قسم قصر النيل. أو اغتاظ منها الأمناء فأدخلوها حجز الرجال بنقطة كوتسكا وتناوب عليها الجميع. كانت لا تأبه لضحكنا وسخرية عيوننا من اختلاقها الحكايات، وتستمرّ في سرد هذه الأكاذيب، وكريم بجوارها وقد مسحت الكلّة خلايا رأسه ولم تُبقِ له إلاّ ابتسامة بلهاء ملتصقة على وجهه وتيهًا وخيلاء بأنّها ستصير زوجته؛ ولم يهدأ ويسترح إلاّ بعد أن كتبنا لها عقدًا عرفيًّا باسم كريم الثلاثي واسمها الوهمي.على الأغلب، لأنّه بغير مستند حقيقي. في

Twitter: @ketab_n

المقهى أعلنّاهما زوجًا وزوجة، وعشّيناهما عشاءً فاخرًا من محلّ «مناقيش» للمأكولات اللبنانيّة والشاميّة.. استمتع كريم بها أسبوعًا كاملاً. اختفت عنّا وعن شوارع وسط البلد، وبدأ هو يظهر ليلاً منتفخًا كالرجل الحمش ويخبرنا بأنّه تركها في «الخُن» تنتظره حتى يسرح ويعود إليها. أصابته العدوى منها فصار يتفاخر بأدائه الجنسي أمام كل منّا وهو في كل مرّة يذكر رقمًا مختلفًا لعدد مرّات المضاجعة، وأنّها بناء على اعتقاداته وأقواله لم تتحمل فحولته لأكثر من أسبوع، ورفضت بقاءها أسيرة، تنتظره في «الخُن» بدون عمل. انطلقت وحدها تعمل. تمسح زجاج سيّارات رغمًا عن مالكيها. تعرض نفسها على رجال يُقبِلون على نوعيّتها، وارتبطت بعشّاق كثيرين من زملاء كريم الذين نَصّب نفسه زعيمًا عليهم، ممّا كاده وجعله يوبّخها أوّلاً، ثم يحذّرها، ثم يتهوّر عليها بحدّ الموسى.

تلك الضامرة القذرة التي تهرع بمجرّد سماعها سرينة سيّارة شرطة، ذهبت بمفردها إلى قسم عابدين، وقدّمت بلاغًا في كريم مرفقًا بشهادة طبّيّة. ثم طلبت لقاءه وظلّت تستفزّه حتى شرع في إيذائها وبذلك أحكمت الكمين وقبضت الشرطة عليه متلبّسًا.. أخبرني ماسح الأحذية الذي حضر الواقعة أنّ كريم أقسم على قتلها فور خروجه من السجن. لم أثق بأنّ هذا قَسَم قد ينفّذ، فبالرغم من كل الموبقات التي يتعاطاها إلاّ أنّه من المستبعد أن يقتلها أو يؤذيها بوحشيّة، فهو من أولاد الشوارع بالمصادفة لا بالفطرة، وهذا في رأيي ما جعله عاجزًا عن التعامل مع وردة. هو ذكي فعلاً لكن ليس بلطجيًا رغم صحبته المشرّدة.

عندما كان صاحب معرض السيّارات الضخم بشارع هدى شعراوي يطارد مع عمّاله كريم وأصحابه بوحشيّة لمجرّد أنّهم كانوا ينامون صيفًا أمام باب معرضه بعد الإغلاق، ويجدهم متراصّين أمام الباب وهو

Twitter: @ketab_n

يفتحه في الصباح، كان كريم يهرب فقط من المطاردة ويبتعد. يسمع السباب واللعنات ويجري. ويتجنّب المشي في شارع هدى شعراوي نهارًا. يمرّ علينا بالمقهى بحذر ويظلّ يتلفت يمينًا ويسارًا، وعندما تفاقمت المشكلة ونجح الرجل في الإمساك به، ثم ضربه هو وعمّاله بخراطيم المياه وأسلاك الكهرباء بقسوة على جسده وأوهموه بأنّهم سيكهربونه وينفخونه، بكى كريم ثم انسحب منكّس الرأس ناظرًا إلى الأرض بعد أن أطلقوا سراحه.. توقّعت أن يحرق كريم وأصحابه المعرض ليلاً أو يفتحوه ويخرّبوا سيّاراته وأثاثه. ولم يحدث شيء من هذا بالمرّة. لكن أنا وعصام بصفتنا من الوجوه المألوفة بالمقهى، ويكنّ لنا الجيران من أصحاب المحال احترامًا، دُعينا إلى حضور جلسة «صلح عرب» في المعرض بين كريم وشلّته وبين صاحب المعرض. ذهبنا بدافع الفضول والدهشة. كان الرجل قد أحضر كمّيّات كبيرة من علب دجاج كنتاكي وبعض المشويّات وجلس قلِقًا ينتظر كريم وأصحابه، عندما هَلَّ كريم على مدخل المعرض انفرجت أسارير صاحب المعرض وانطلق تجاههم. قبَّل كريم على وجنتيه واحتضنه بألفة ثم شدّ على الأيادي المقشّفة لأصحابه، ووزّع عليهم وجبات الدجاج بنفسه، كما قدّم إليهم أيضًا مجموعة كبيرة من عصائر الفواكه المختلفة.. قرأنا الفاتحة وهنأناهم على الصلح، ثم سلّمنا عليهم، وانصرفت أنا وعصام وصاحب المقهى ومجموعة من روّاده كانوا قد حضروا الصلح.

خرجنا من المصالحة كما دخلنا دون أن نفهم شيئًا محدّدًا، وإن كنت قد قلت لعصام بأنّ كريم قد فعل شيئًا رهيبًا جعل هذا الرجل المتباهي بسيّاراته وبِدَله المختلفة كل يوم يرضخ وينصاع لمصالحته.

سألني عصام: تفتكر كريم عمل فيه إيه؟

قلت وأنا أجهد ذهني: بيتهيّأ لي جاب جاز ودلقه من تحت عقب

Twitter: @ketab_n

باب معرض السيّارات من غير ما يولّعه، وعشان كده خاف منه صاحب المعرض لَحْسن كريم يتهوّر أكتر ويحرق المعرض كلّه..

ضحك عصام وقال لي: بيتهيّألي كريم هدّده إنّه هيخطف حدّ من عياله.

المدهش أنّني وعصام كنّا بعيدين تمامًا عمّا فعله كريم، ونستطيع أن نقول الآن إنّه لم يفعل شيئًا. فقط كريم وعصابته بدأوا يأكلون كثيرًا طوال اليوم، وبعد أن أظلمت الدنيا تمامًا بالشارع، جلسوا القرفصاء، متراصّين في صفوف باتساع واجهة المعرض، أمام بابه تحديدًا، وكأنّهم جانب واحد من طريق الكباش.. عشرون نَفْسًا بشريّة يتبرّزون في توقيت واحد تبرّزًا غليظًا جاهدين أن يجعلوه أشكالاً هرميّة وكرويّة ثم غادروا المكان. فعلوا ذلك ليلتين فقط. استسلم بعدها صاحب المعرض ورفع الراية البيضاء وأصبح بعدها من الذين يتقرّبون إلى كريم. أعجبتني جدًّا فكرة هذا الاعتراض كريه الرائحة التي ابتكرها أولاد الشوارع لمجابهة الظلم الواقع عليهم.

بقدر ما ارتحت لخبر سجن كريم، لأنّه سيؤجّل مشروعنا الغامض عنه، بقدر ما توجّست خيفة من ردّ فعل مارشا عند سماعها هذا الخبر بعد أن تخرج من الجامعة الأميركيّة وتلتقي بي في المقهى. تردّدت بين إلغاء الموعد أو تبديل المكان، بحيث أنتظرها في إحدى الكافتيريات الملاصقة للجامعة. تراجعت خوفًا من اعتقادها بأنّ ما أفعله في الأيّام الأخيرة مثير للريبة. فلتأتِ إلى القهوة وليكن ما يكون. لن تجد كريم. وهل أنا واضع في رقبته سلسلة أَسحبه منها إلى كل مكان!

أتت مارشا وحكيت لها باختصار ما حلّ بكريم، وأكمل الجرسون الحكاية.. فاجأتني وضحكت من صميم قلبها على ما فعلته وردة، ثم همست تطلب منّي راجية أن أساعدها في الالتقاء بوردة. لم يكن الطلب صعبًا ولا مستحيلاً ولا يحتاج إلى تأجيل. اشترينا بعض

Twitter: @ketab_n

الأطعمة وعبرنا شارع هدى شعراوي إلى شارع متقاطع معه بموازاة وكالة أنباء الشرق الأوسط. كان كريم قد أخبرني أنّه من أماكن تجمّعاتهم بوسط البلد. كانوا يلتقون فيه ثم يوزّعون أنفسهم على شوارعها وأزقّتها. ثم يستريحون فيه بعد التجوال والصعلكة. الشارع قصير، وهادئ جدًّا بداية من الساعة الرابعة مساءً. فلا موظّفون ولا سيّارات حكوميّة والمارّة قليلون. حتى العمارات السكنيّة به، كانت أبوابها ومداخلها إمّا على شارع هدى شعراوي أو على شارع صبري أبو علم، وليست لها أيّة مخارج على هذا الشارع. فقط السيّارات الخاصّة والحكوميّة مصطفّة على الجانبين وخلفها على الرصيف العريض من الجانبين اتخذت شلّة كريم مخيّمًا. فرشوا سجّادة بالية (على الأغلب مسروقة من مسجد) وتكوّموا بعضهم على بعض في حركة دائبة يتبادلون خطف السجائر ومداعباتهم لبعضهم بعضًا بالأقدام والأيادي. اقتربت أنا ومارشا لكنّنا لم نجد وردة بينهم. كانوا ينظرون إلينا بحذر ثم اندفع طفلان من بينهم طالبيْن منّا نقودًا. لمحتُ وردة في نهاية الشارع فوق سطح إحدى السيّارات تتمايل في صخب. أشرت لمارشا إليها قائلاً بحماسة: وردة أهي..

عندما سمعني الطفلان أنطق باسمها كفّا عن إلحاحهما. كانت هي لاتزال تفتعل حركات راقصة وبضع أيادٍ كالحة حول السيّارة تحاول برعونة جذبها من جلبابها، ووردة تتفاداها بدلال. لم يبدُ عليهم إصرار على الإمساك بها. إنّها مجرّد لعبة يلعبونها. بالقرب من تلك السيّارة كانت هناك مجموعة أخرى من هؤلاء يرتّبون بكوات المناديل بعين غائبة. تأبّطتني مارشا بقوّة ونحن نقترب منهم. استشعرت خوفها وقلقها، فهمست ساخرًا: تحبّي نرجع؟ استردّت جرأتها وردّت بحدّة: «أوف كورس نو».

ناديت على وردة فمالت إليّ برأسها ولم تردّ. وقفنا قبالتهم. توقّفت

Twitter: @ketab_n

الأيادي العابثة بقدمها ونهايات جلبابها، وتحوّلوا بنظرهم تجاهنا. ألححت في النداء فتوقّفت عن حركتها غير المتّزنة. ثم مدّت يدها إلى رفاقها وقفزت عليهم فوقعوا على ظهورهم وراحت تضربهم على صدورهم بمرح صاخب. ناديتها بخشونة. تلفّتت إليّ بحدّة كالتلميذ الذي نفد صبره مع مدرّسه وانتوى أن يسخر منه أمام كل المدرسة، رسمت ابتسامة على وجهي وأنا أشير إليها بالاقتراب منّي. هزّت رأسها وقالت بإصرار: أنا حبست كريم يا أستاذ ومش حيخرج ومش هاخد فلوس عشان أطلّعه.

كلّمتها مارشا بلكنتها، ورجتها أن تأتي معنا وألاّ تخف. كان الأولاد ينظرون إلينا بريبة وتحفّز. ألقيت إليهم بعلب المأكولات التي اشتريناها منذ قليل، فانقضّوا عليها. تركتنا وردة ودخلت تتصارع معهم من أجل علبة. جذبتها من شعرها فرفصتني وركلتني. انتبه رفاقها وتوقّفوا عن الصراع وفي نيّتهم التدخّل. احتضنتها مارشا وقبّلتها بغير تأفّف. استكانت. ظلّت مارشا تهدّئها حتى اطمأنّت تمامًا وسارت معنا. انشغل رفاقها بالصراع حول العلب وتركوني. قبل أن نصل إلى الشارع الرئيسي. عادت وردة خطوتين إلى الوراء، فنظرنا إليها مندهشين. غمغمت بدهشة وسخرية وهي تشير إلينا: إنتو الاثنين؟

لم تفهم مارشا شيئًا لكنّني فهمت قصدها السيّئ. قلت لها بحدّة وأنا أشير لمارشا: الست هاترعاكي وتأخذ بالها منك وتدّيكِ فلوس.

نظرت إليّ باستهانة، ثم قالت ساخرة: هاتسبني للخوجايه يا أستاذ؟

«لولا وجود مارشا لكنت قد أطحت برأسها»، لكنّني احتملت ولم أعلّق. ثم أراحني وقوف التاكسي من جدال غبي. عند بوّابة المبنى استوقفنا رجال الأمن بابتسامة لزجة وظلّوا يفتّشون وردة بسخف وسط استياء وضيق مارشا التي نهرتهم عندما طال أمد التفتيش وبدأوا

Twitter: @ketab_n

يطالبونها بإبراز الهويّة. وشتمتهم مارشا بالإنجليزيّة وأردفت بالعربيّة تهدّدهم وتتّهمهم بالبلادة والغباء، فكيف يسألون فتاة صغيرة عن هويّتها!.. خافوا وجبنوا وصاحبونا حتى باب المصعد باعتذارات سخيفة. استقبلتنا الخادمة «جوليا» بدهشة، وقد كانت أكبر من وردة قليلاً لكنّها أنحف منها بمراحل.. جلست وردة بيننا في الهول وكانت جوليا ترميها بنظرات حائرة كلّما دخلت أو خرجت. بعد أن أنهت مارشا اتصالاتها نادت على جوليا التي هُرِعَتْ إليها ووقفت أمامها تنتظر أوامرها. كان وجه جوليا النحاسي الغامق وشعرها المجعّد بضفائره المتعدّدة الصغيرة مثار اهتمام وردة التي ظلّت تتأمّلها بفضول.. قالت لي مارشا بالإنجليزيّة إنّها ستجبر وردة على الاستحمام فاستأذنتُ منها لأمرّ على تلميذتي الفرنسيّة صوفي التي تقطن بالدور الثالث بالمبنى نفسه. أصرّت مارشا أنِ أصعد إليها مرّة أخرى بعد انتهاء درسي لنرى ما يمكن عمله في مشروعنا.

مارشا رشّحتني إلى صوفي كالعادة وصوفي لم تدقّق معي في التفاصيل الماليّة، وما يضايقني فعلاً أنّهم كانوا كلّهم بلا استثناء يعاملونني بتحفّظ شديد كأنّهم يعتبرونني ملكيّة خاصّة لمارشا وكان هذا يخنقني ويوتّرني، ويخيفني جدًّا من مارشا. فتسلُّط مارشا وسطوتها عليهم يبدو جليًّا حتى وإن كانت قد تعرّفت عليهم منذ أشهر قليلة أو عدّة أسابيع كما كانت تدّعي. كان ذلك يشعرني دائمًا بأنّني مثل الفارس الماهر الذي يمتطي حصانًا محطّ أنظار الجميع، ورغم تمكّنه وسيطرته على قيادِهِ إلاّ أنّه لا يأمن غدره أبدًا.

أنهيت درسي وعدت، كما وعدت مارشا. كانت وردة راقدة على الفوتيه وتفاصيل جسدها الصغيرة تكاد تبين من بيجاما مارشا المتّسعة عليها. كانت جوليا عاكفة على قدمي وردة تقلّم أظافرها وترسم عليها أشكالاً بدائيّة جميلة. كان وجه وردة حائرًا ومندهشًا، ويبدو كرأس

Twitter: @ketab_n

عصفور صغير وقد أمسكت بجسده بين قبضة يدك ولم تطلقه. كانت مستسلمة لقدرها، ولم تعرني انتباهًا. عادت مارشا وعرّفتني بالإنجليزيّة، وهي مندهشة، بأنّ البنت شرسة جدًّا، وتظنّ أنّنا أحضرناها لتمارس مارشا معها الجنس. قفزت عليها وهي في البانيو وكانت تريد إسقاط مارشا واغتصابها كما قالت: ولولا تدخّل جوليا ما تركتني.

أخفيتُ ابتسامة ساخرة، فنظرت إليّ بتنمّر وقالت: لا تبدأ في لومي.. فَهِّمْهَا أنّي سأساعدها في حياتها المعيشيّة وأنفق عليها لإعادة تأهيلها اجتماعيًّا.

ردَّدتُ في نفسي: «كان غيرك أشطر».

كانت وردة توزّع نظرات حادّة بيننا كما لو كان كلامنا بلغة أخرى يوتّرها. كانت الأوساخ والقذارة قد أزيلت تمامًا من على جسدها، والضمادات رُفعت من على وجهها فبدت الجروح التي ادّعت بها على كريم باهتة وخفيفة جدًّا، لو رآها المحقّق كما أراها الآن لعفا عنه في الحال.

دخلت مارشا غرفتها تاركةً لي مهمّة إقناع وردة بمسألة إعادة التأهيل تلك، وكانت الأهوال التي لاقتها جوليا جرّاء تنظيف جسد وردة تماثل الأهوال التي عانتها خلال الحرب الأهليّة في جنوب السودان.. صرفتُ جوليا التي كانت تخافني وترهبني معتقدة بأنّني سيّد هذا البيت طالما أنّي أنام مع سيّدته (كان بيننا عدم ارتياح متبادل)، فقد كان يربكني خوفها منّي وتوجّسها الدائمين ولم ترتح لي هي لمائة سبب أهونها خوف فقدانها الوظيفة بسببي.

بولس القبطي صاحب الصيدليّة التي تقع أسفل المبنى الذي تقيم به مارشا هو الذي أحضر جوليا إليها. هذا ما قالته لي مارشا، وقالت أيضًا إنّ «سبت لوكا» مواطنٌ جنوب سوداني يعمل في صيدليّة بولس هو

Twitter: @ketab_n

ضحيّة أخرى من ضحايا تلك الحرب، وقد أوكلته به كنيسة الإنجيليين بقصر الدوبارة كي يتمرّن عنده ويتكسّب، لحين موعد هجرته إلى الولايات المتحدة الأميركيّة أو كندا، كما وعدته مفوّضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة وقد اتخذت من مصر موطنًا مؤقتًا لمواطني جنوب السودان الفارّين من الحرب الأهليّة. أخبرتني مارشا أيضًا أنّ هناك مشروع زواج بين جوليا وابن عمّها سبت لوكا، لكنّهما يصرّان على إتمامه داخل الأراضي الأميركيّة أو الكنديّة، وأخبرتني أيضًا أنّها لم تطلب جوليا بالذات، بل طلبت من الصيدلي بولس أن يبحث لها عن شخص أمين ليخدمها في المنزل، فعاد إليها بعد يومين وفي يده جوليا ابنة عم سبت لوكا، وأنّها أوّل ما رأتها تأثّرت بضعفها وهزالها وتذكّرت مذابح رواندا والصومال، وقرّرت أن تحمي هذه البنت حتى لا تلاقي هذا المصير.

ما لم تقله مارشا وعرفته بعد ذلك من بولس الصيدلي بغير قصد منّي هو أنّها ارتاحت في معاملاتها مع الصيدليّة لأمانة سبت لوكا، وأعجبت بلغته الإنجليزيّة المقبولة، فسألت عنه بولس الذي عرّفها بتفاصيل حكايته، وعندما رأى تأثّرها ورغبتها في المساعدة طلب منها أن تعاون سبت لوكا في الحصول على هجرة لأميركا. قالت له مارشا بحياديّة إنّ هذا الأمر ليس بيدها، لكنّها من الممكن أن تساعده بأيّ طريقة أخرى. تَشجَّع الصيدلي فأخبرها عن جوليا المقيمة داخل الكنيسة الإنجيليّة بقصر الدوبارة في انتظار الأمل، والتي يحبّها ابن عمها سبت لوكا جدًّا بصرف النظر عن قرابته لها. تحمّست مارشا جدًّا لاستضافتها وتكرّمت بمنحها عملاً بخدمتها كما تحمّست وذهبت مع الصيدلي بولس إلى الكنيسة الإنجيليّة وقدّمت طلبًا رسميًّا. قبلته الكنيسة وسمحت لها باصطحاب «جوليا موال دنيق».

جوليا نشيطة، مبتسمة ودؤوب أمام زوّار مارشا الأجانب. وقلقة

Twitter: @ketab_n

بليدة متوجّسة عابسة أمام المصريين والعرب. استشعرتُ عداءها بعد يومين من قدومها، فقد كانت لا تنفّذ ما أطلبه مدّعية النسيان أو عدم فهم لكنتي الإنجليزيّة. أو تأتي بعكس ما أطلبه، أو تتعمّد أن تدخل علينا أثناء لحظتنا الحميمة. عاملتها بغلظة وحدّة في غياب مارشا. فلم ترتدع. نهرتها وعنّفتها أمام مارشا. تسمّرت وتمسكنت ونظراتها تستجدي مارشا. أهملتها مارشا تمامًا وجذبتني من يدي واحتضنتني وقبّلتني لتهدّأني، لم أستمتع بقبلات مارشا بقدر استمتاعي بصدى صوت بكاء جوليا الآتي من المطبخ. تغيّر الموقف تمامًا بعدها. أدركت ما أمثّله في هذا البيت وقوّتي الحقيقيّة، وأصبحتْ تنفّذ ما أقوله أو ما أهمّ بطلبه قبل أن تخرج من فمي الكلمات.

كنت أنظر إلى وردة حائرًا، مثلما ينظر الراعي إلى جواد برّي اصطاده وأقام حوله السياج، ثم وقف يتأمّله متسائلاً عن قدرته على ترويضه وجعله مثل سائر خيول الخدمة، أم أنّه من الأفضل أن يطلقه في البراري ويظلّ طيلة عمره يتمنّى اصطياده.

سألتني بمسكنة: هو أنا مش هامشي بقى. ولا انتو عايزين منّي حاجة؟

سكتُّ ولم أنطق، فلم يكن القرار قراري..

Twitter: @ketab_n

- ١٠ -

من أحلى المناطق المحبّبة إلى قلبي منطقة الطالبيّة بالهرم. لا لأنّني عشت بها طفولتي وصباي وأحلامي كما يقول الشعراء الرومانتيكيّون، وإنّما للروابط الخفيّة التي تربطني بها، وقد لا أدرك حقيقتها لكنّي أمتلئ إحساسًا بها. . فعندما أمرّ بها أو أتواجد فيها أو حتى أعبرها في طريقي لأيّة جهة، أحسّ بالحشائش والطين الجافّ والأغصان الصغيرة وهي تتكسّر أسفل قدمي وأنا أخوض في حقولها المترامية. مازلت أستشعر وخز شوك حشائشها في ساقي إلى الآن. لم يبقَ أحدٌ هناك من أصدقاء الطفولة باستثناء عائلة أحمد الحلو. تغيّر اسم الشارع الذي كنت أقيم به والذي لايزال بيتنا الصغير موجودًا به. كان اسمه «شارع توت عنخ آمون» وأصبح اسمه الآن «المساعي الحميدة». . لم تزل البيوت على هيئتها القديمة باستثناء زواياها وواجهاتها التي تهدّمت الآن. امتلأ الشارع ببيوت حديثة على الشاكلة القديمة نفسها. بيوت تكتفي بطوابق أربعة نفّذها مقاول بناء بلدي بقبح وقلّة ضمير. الدور الأسفل منها جميعًا اختفى جرّاء الإسفلت الذي يرتفع عامًا وراء عام. فأصبحت نوافذ الدور السفلي دائمًا بموازاة أحذية العابرين والسيقان العارية للبنات الصغيرات دون العاشرة. كان أبي من أوائل مالكي البيوت في هذه المنطقة، وكنّا نعيش في الطابق الثاني بأكمله مستخدمين الدور السفلي في الاستضافة والتخزين. لم يكن هناك طابق

Twitter: @ketab_n

ثالث، فقط بضعة أعمدة ينوي أبي تسقيفها كي تصلح مطرحًا لزواجي أو لزواج إحدى الشقيقتين. وهو ما لم يحدث بالطبع، وظلّت أعمدته تتضرّع إلى السماء حتى وقتنا هذا.

شارعنا عرضه خمسة أمتار، والمساحة بين البلكونات المتقابلة الآن لا تتجاوز المتر ونصف المتر. كان أبي قد بناه وأمامه مساحة خضراء كبيرة مزروعة ذرة. لم تواجهنا مشاكل في هذا البيت صغارًا باستثناء مشكلات الذباب والبعوض المتوحّش وقد اعتدنا عليهما. لظروف اقتصاديّة عاتية هجر هذه المنطقة أغلب مالكيها بعد أن أزالوا أبواب الشقق وهدموا بعض الجدران وأجّروها غرفًا لطلبة جامعة القاهرة ولبعض الريفيين الذين يعملون بالجيزة.

ظللت أقيم بهذا البيت حتى سنواتي الجامعيّة الأولى. كان أغلب رفاقي بالمنطقة قد أنهوا تعليمهم الثانوي والتجاري والصناعي وسافروا إلى ليبيا والعراق طلبًا للعمل. أنا وأحمد الحلو الذي كنّا نطلق عليه «عبقري الحيّ» الوحيدان اللذان اجتازا الثانويّة العامّة. التحقت بكلّيّة الآداب والتحق هو بهندسة القاهرة. عصام كان صديقنا بالمدرسة الثانويّة بالهرم لم يكن يرتاح لأحمد الحلو. لم يكن عصام جارًا لنا بالشارع، بل يسكن في شارع الهرم الرئيسي. فيما بعد نجح أحمد الحلو ـ بتأثيره المذهل عليّ منذ أيّام الثانوي وقراءاته المتعدّدة الممنهجة وذهنه المرتّب ـ في إدخالي خليّة من خلايا اليسار المصري. فقويت علاقتنا على حساب علاقتي بعصام التي فترت قليلاً نظرًا لظروف تواجد كلّيّته بالزمالك، بينما كان أحمد الحلو يقضي وقت فراغه معي في الحرم الجامعي مستقطبًا طلبة جددًا لخليّته. كان أحمد الحلو يذاكر معي منذ أيّام الثانوية واستمرّ يتردّد على بيتنا للمذاكرة حتى بعد التحاقه بالهندسة. كان أبي معجبًا جدًّا به لطوله الفارع وجسده الرياضي وشعره متوسّط الطول بخلاف عصام الهيبز كما كان يطلق عليه

Twitter: @ketab_n

والدي، ويعيب عليّ أيضًا إطالة شعري ولبسي البنطلونات الملتصقة بالجسد. عندما دخل عصام كلِّيَّة الفنون الجميلة قال لي أبي إنّها تناسبه وتناسب تقليعته. ورغم رأيه هذا إلاّ أنّه كان مجاملاً جدًّا فلم يحدث أن كشّر في وجه عصام، أو حتى سخر منه حين يراه بصحبتي، أو في غرفتي يرسم. كان يؤجل سخريّته ليمازحني بها ونحن نتعشّى جماعة، فتضحك البنات وتتحرّج أمّي من أن تضحك على صديق لي. كان أبي أيضًا صديقًا لوالد أحمد الحلو وهذا ما قرّبه منه أكثر.

كل هذا تغيّر فيما بعد، فقد كره أبي أحمد الحلو جدًّا وخاصم والده حتى مماته، بعد القبض علينا بتهمة تأسيس خليّة لزعزعة استقرار الحكم، في ليلة غبراء بعد أن وشى بنا مخبر تافه ممّن كان يضمّهم أحمد الحلو إلينا بدون تمييز، وهو يعلن عن مبادئ الخليّة مثلما «ينادي» أبوه على البرتقال والبطّيخ والبلح الأحمر (هذا المخبر أصبح فيما بعد وزيرًا لإحدى أهمّ وزارات مصر المحروسة)..

كانت أيّامًا قاسية جدًّا بالنسبة لي ولعائلتي، ولكنّها لم تكن بقسوة خلوّ حياتي من هند فجأة. نجا أبي من الموت المحقّق عقب القبض علينا، لكنّ الأزمة القلبيّة الشديدة تركته بقايا إنسان، خاصّة وأنا ابنه الوحيد الذي كان يأمل في الاطمئنان على مستقبله قبل رحيله عن عالمنا، بينما فاجأته أنا بأسوأ خبر يمكن أن يسمعه، بأنّي أصبحت مناضلاً ضدّ الحكومة وربيب سجون. بعكس الفلاّح الريفي حامد الحلو والد أحمد فقد تحمّل الخبر بجلد الفلاّح المصري القديم لم يشكُ أو يضجر من الظلم، وفيما بعد سمعت أنّه كان يباهي بحبسة ابنه ويفاخر بأنّه صار مفكّرًا تخشاه الدولة!

خرجت بعد ثلاثة أشهر نظرًا لتفاهة الخليّة التي كان يقودها جامعي حديث التخرّج، كما أخبرني وكيل النيابة آنذاك، ساخرًا. عاملني أبي معاملة العبيد. وكأنّني فتاة اكتشف والدها فجأة أنّها داعرة، فقيّدها

Twitter: @ketab_n

واحتجزها في البيت. أجبرني بالطبع على مقاطعة أحمد الحلو فرفض أن يدخله بيتنا طالما بقي هو على قيد الحياة، كما قاطع أباه قبيل الإفراج عنّي. وباعتبار الفن أرحم من السياسة بدأ أبي يستقبل عصام بترحاب شديد مظهرًا له محبّة حقيقيّة. وأخذ يعجب برسوماته ويناقشه حولها، ويعده بأن يكلّفه عقب تخرّجه بعمل الديكورات لشقق التأمين التي يتولّى إدارة تسويقها. هذا الوعد لم ينفّذ قطّ لظروف خارجة عن إرادة أبي فقد مات.

أتممت عامي الدراسي كمن ينفّذ أمرًا إضافيًّا بامتداد العقوبة بالسجن في البيت، تحت كل هذه الظروف القاسية التي غيّرت نظرتي للحياة، دفعتني إلى معاودة التفكير في هند، وتملّكني إحساس ضاغط بالقهر والظلم والغضب فرسبت أيضًا ذلك العام وأصبحت محترف رسوب: سنة لأنّ هند تركتني، وأخرى لأنّ الحكومة تذكّرتني.. لم يعنّفني أبي فلم تعد لديه طاقة للتعنيف. لكنّه وجد الحلّ في الانتقال بنا في الصيف فجأة إلى شقّة بوسط البلد، وأخبرتني أمّي أنّه دفع كل مدّخراته ليؤجّرها وينأى بي عن منطقة الطالبيّة وعن أحمد الحلو الذي أتلف آمالي، وجعلني «أحطّ رأسي برأس الحكومة». كانت الشقّة رحبة تكاد أن تشغل نصف الدور السادس من مبنى بشارع قصر النيل. وهي من مخلّفات أثرياء مصر الملكيّة التي وضعت حكومة الثورة يدها على ممتلكاتهم وتركتها لشركات التأمين تديرها. كانت شقّة «لُقطة» بمعنى الكلمة، وارتحت لها كثيرًا، لكنّني لم أقطع علاقتي بأحمد الحلو داخل الجامعة وإن كنت قد انفصلت عن اتجاهاته السياسيّة التي أصبحت أكثر ثوريّة عقب القبض علينا، وتتجه إلى أقصى اليسار. لم يبع أبي منزل الطالبيّة ولا أجّره لأحد، لكنّه قرّر أن يهب الدور العلوي الذي كنّا نشغله لشقيقتيْ، ومنحني أعمدة الدور الأعلى لكي أتزوّج فيها.

ترك أبي مفتاح البيت القديم لأمّي محذّرًا إيّاها من أن تعطيه لأحد

Twitter: @ketab_n

دون علمه. وحمّلها مسؤوليّة استخدام أحدنا له (يقصدني بالذات) بدون إذنه. عقب نجاحي بدرجة ملحوظة في العام التالي خفّت حدّة رقابة أبي عليّ قليلاً، واطمأنَّ تمامًا أنّ أحمد الحلو أصبح من الماضي.. أمّي الطيّبة الودود كانت دائمًا تضعف أمام توسّلاتي وتعطيني المفتاح بمبرّرات مختلفة، منها الاطمئنان على البيت أو المذاكرة فيه لأنّي مخنوق من رقابة أبي، وكانت أيضًا توالس معي في الكذب على أبي. نسخت نسخة من المفتاح، وأصبح بيتنا القديم مقرًّا لنزواتي الجنسيّة والتدخينيّة. وأوّل شيء فعلته بعد أن عدت بأموال من الخارج أنّني اشتريت حصّة الشقيقتين في البيت، ومازلت أحتفظ به إلى الآن.

عندما أدخله أستنشق رائحة أمّي، رحمها الله. أتذكّر ضعفها ورقّتها ومؤازرتها لي. وأستحضر لمّة الأسرة حول منضدة الطعام، وروائح الطهي الهالّة من المطبخ. ذكرياتي المخبوءة في أركانه وبين ثناياه، أشعاري ومذكّراتي الموصد عليها بإحكام في الدور السفلي (غرفة الكرار).. بلاط الصالة الرخيص ممسوح النقوش بفعل لهونا ولعبنا ومشينا ونحن صغار. أكاد أسمع صدى صوت قطرات المياه وهي تتساقط عليه من جردل الست فتحيّة التي كانت تأتي بسنواتها الأربعين لتمسح لنا الشقّة أسبوعيًّا (كل سبت). وكنت أحرص دائمًا على البقاء بالبيت في هذا اليوم، وأظلّ أروح وأجيء وفي يدي كتاب أقرأه بصوت عالٍ متظاهرًا بحفظ ما أردّده أثناء ذهابي وإيابي في الشقّة، مختلسًا النظر إلى ما قد يظهر من تحت جلبابها المضموم على جسدها، إذ كانت كعادة الخادمات البسيطات تلفّ نهاياته وتدسّها في مقدّمة سروالها الداخلي حتى لا يعوقها عن الحركة. أرقبها والمياه تنساب من بين قدميها الحافيتين، وكامل ساقيها المكشوفتين لي بعروقهما الزرقاء البارزة. أحدّق في استدارة مؤخّرتها وهي منحنية تجلو الأرض بالفرشاة

Twitter: @ketab_n

السلك. تزداد ضربات قلبي وتكاد عيناي أن تقفزا من محجريهما حين ينزاح السروال عن نصف إليتيها، فتبدو بيضاء مثيرة ويظهر جزء من زغب كستنائي يزداد كثافة كلّما اقترب من فتحة الشرج. لحظتها يتدفّق منّي عرق غزير، ولا تقوى ركبتاي على حملي ويتهدّج صوتي ويخفت، فتنتبه أمّي وتنادي عليّ وهي بالمطبخ، فتلتفت فتحيّة فجأة تجاهي وتكتم بيدها ضحكتها العالية التي ترجّ ثدييها رجًّا مثيرًا، فأنسحب خجلاً مبتلاً.

كان أحمد الحلو يضحك بشدّة عندما أخبره بميل فتحيّة لما أفعله، ونصحني ذات مرّة أن أتجرّأ معها في الكلام. وفّرت مصروفي بالكامل حتى جاء يوم السبت وعندما تلجلجت وأنا أتكلّم معها، فهمتْ بسرعة وهمستْ لي بأن أسبقها بالنزول إلى غرفة الضيوف بجوار غرفة الكرار. لحقت بي مسرعة ولم أعرف ما قالت لأمّي. لم تمهلني أن أخلع سروالي وجذبتني نحوها، ثم أدخلتني فيها واغتصبتني. بدا الأمر وحشيًا وممتعًا ولذيذًا إلى درجة أنّني لم ألقِ بالاً لقذارتها ورائحة عرقها وملمس جسدها الخشن وملابسها الداخليّة المهلهلة! كنت أنتظرها بشوق طوال أيّام الأسبوع، وكأنّ الحياة توقّفت إلاّ في أيّام السبت.. وكأنّي أنتظر مادونا!

مكتبي، في الدور الأرضي من بيتنا القديم، أسّسه لي أبي عندما دخلت الجامعة حتى أنعزل بأصدقائي وزملائي عن أخوتي البنات، مازلت أحتفظ فيه بلوحات كثيرة لعصام مكتملة أو لم تكتمل، فقد كان يفضّل كثيرًا الإقامة معي بهذا البيت أثناء فترة تحضيره لمعارضه. لم يكن قد استأجر مرسم عابدين بعد. وكنت أحيانًا أتركه له فترات طويلة ليستضيف به صديقاته وموديلاته.

اختلف الشارع الآن وسيطرت عليه المعلّمة فكيهة المقيمة في بدايته. حلّت محلّ الأشجار والزروع الممتدّة بمواجهته بيوت جديدة.

Twitter: @ketab_n

فكيهة تدير أعمال زوجها فوزي الذي يشرف اللومان الآن بتهمة الإتجار بالمخدّرات. أضافت فكيهة إلى تجارة المخدّرات البرشام وحقن الماكس فورت.

في وسط الشارع تمامًا ـ لو اعتبرناه شارعًا الآن ـ تقيم المعلّمة نصرة وهي متخصّصة في بغاء القاصرات، وتعرض خدماتها في التأديب والتجريس لمن يحتاجها في تربية إحدى الأسر التي تضايقه، أو الجيران.

أحبّ هذا الوقت من فصل الصيف، وطقس العصاري الجميل.. حين تخرج أغلب النسوة يحملن جرادل مملوءة بالماء ويبدأن في رشّها أمام البيوت. تفترش كل مجموعة متقاربة منهنّ سجّادة فقيرة أو حصيرة بلدي يجلسن عليها، ووسط كل مجموعة سبرتاية لصنع الشاي أو طاسة لقلي لبّ البطيخ الناشف، وأحيانًا يشترين اللبّ السوري «بذور نبات عبّاد الشمس» وهو من أرخص أنواع اللبّ يتبادلن الجوزة (برطمان زجاجي مملوء ماءً إلى ثلثيه، وعليه سدّادة مطّاطية مثقوبة على قدر مرور غابة قصيرة من نبات البوص).. تقضي النسوة عادة أغلب أوقاتهنّ في النميمة ومشاكسة خلق الله. لو صادف ومررت عليهنّ حاملاً كيس فاكهة أو أيّ مشتريات لن تَسْلَم من ألسنتهنّ الطويلة التي تبدأ بسؤالك عن محتويات الكيس ثم تنتهي بطلب تذوُّق بعض ما فيه. هذا لو كنت واحدًا من سكّان الشارع، أو يعرفنك.. أمّا والعياذ بالله لو كنت غريبًا فسيرسلن خلفك بإيماءة صبيًّا أو صبيّة ليختطف منك بعضًا ممّا تحمله، أو ربما يدسّ إصبعه في مكمن الإست تحت الملابس، أو يلقي عليك حجرًا أو حفنة تراب. وأضعف الإيمان ستُسبّ ببذاءة كي تنجرّ إلى معركة أنت الخاسر الوحيد فيها.

أحمد الله أنّهنّ كنّ يعرفنني ويعملن لي حسابًا، لأنّ والدي من مؤسّسي الشارع وقدّم خدماته للجميع، وكان معروفًا عنه طيبة القلب

Twitter: @ketab_n

ورجاحة العقل، يستشيره الناس في مشاكلهم ويستمعون لرأيه وينصاعون لحكمه. وقد انتقل هذا التقدير لنا ولأسرتنا إلى هذا الجيل البائس الباقي من سكّان هذا الشارع.. فكانوا يوقّرونني ويعرفون أصدقائي وزوّاري، ولم يحدث أبدًا أنّهم تجاوزوا في حقّهم ولا سخروا من عصام وذيل حصانه أو موديلاته اللاتي يأتين لرسمهن، وعندما اصطحبت مارشا في زيارة إلى البيت، استقبلتها الجارات بودٍّ وعاملنها كما يعاملن عروسة المولد. ولم يسألني أحد حتى عن مدى علاقتنا.. زوجتي! أم رفيقتي!!

إنّهن في نهاية الأمر مسكينات. النسبة الغالبة من بناتهنّ جميلات جمالاً فتّانًا وأخّاذًا وإن ظلّ مخفيًّا خلف قذارتهنّ. عندما تبلغ البنت منهنّ السادسة عشرة تبدأ في العناية بنفسها والتزيّن بالخواتم البلاستيك والعقود الفالصو، ثم تعتاد الخروج إلى شارع الهرم القريب من المنطقة، فتعود خلقًا آخر. أمّا الصبيان فيتباهون بحمل الموبايلات المهشّمة أو اللعبة والمسدّسات التي تطلق أسهمًا، وحين يكبرون قليلاً يعمل معظمهم «ناضورجيّة»، ثم بعد ذلك يتاجرون في الحبوب والبانجو كمعلّمين كبار.

أحمد الحلو أدمن الاعتقالات. حتى الآن اعتقل أكثر من خمسة اعتقالات بعد حبستنا الأولى. وكان يتّهمني بالجبن وأتّهمه بالعنتريّة وحبّ الظهور. فهو دائم الاحتكاك بالأمن في التظاهرات. كمن يقول لهم: اعتقلوني. أحمد الحلو له أتباع ومريدون من الطلبة والعمّال، والبعض اعتبره قائدًا ومنظّرًا عظيمًا. تعثّر في دراسته بضع سنوات. وبعد تخرّجي لم أقابله كثيرًا. وأغلب مقابلاتنا كانت تتمّ مصادفة. كان يحبّ شِعْري المسيَّس كما يحلو له أن يسمّيه، وله الفضل في توجيهي لهذا النوع من الشعر، كما أنّ لهند الفضل في أن أكتب الشعر أصلاً، وكان كثيرًا ما يسخر منّي ويتّهمني بأنّني شاعر رخو عندما واجهت أوّل

Twitter: @ketab_n

محنة فررت فرار السليم من الأجرب، ويظلّ يعدّد لي أسماء الشعراء المناضلين «ناظم حكمت، ومظفر النوّاب، ومحمود درويش، وبابلو نيرودا، وأمل دنقل.. وغيرهم».. لكن هيهات!! فلي روح واحدة وأنا مجبر أن أصونها.

في أحد لقاءات المصادفة بيننا تمّت في فندق «الكوزموبوليتان» بوسط البلد، عقب الزلزال الكبير الذي ضرب مصر عام ١٩٩٢. كنت بصحبة عصام الذي طلب منّي الصعود إلى دار الشاي الهندي وانتظاره ريثما ينتهي من درس اليوجا. أخبرته بأنّي كرهت الشاي الأخضر، وبدلاً منه سأشرب بيرة في الكوزمو.

كان الوقت نهارًا وبار فندق «الكوزموبوليتان» معتم إلاّ من بصيص أشعة الشمس القليلة التي استطاعت جاهدة الوصول إلينا عبر زجاجه. دخلت، فوجئت بأحمد الحلو جالسًا وبجواره جلست شاهيناز وأمامها زجاجة «براندي ٨٤» كبيرة الحجم وشابّان تدلّ ملامحهما على أنّهما طالبان. جلست بعيدًا عنهم وليست بي رغبة في أن أستمع إلى أفكار عميقة وجدال عقيم. كنت أنوي شرب زجاجة البيرة بسرعة، والخروج قبل أن يلحق بي عصام ويرى أحمد ويتكدّر. كنت أشرب شفطة وأقضم شريحة من خيار المَزّة مُختلسًا النظر إليهم بين الحين والآخر. وكانت إشارات الأيادي وانفعالات الوجوه تشي باندماجهم في جلسة نضال عارمة، وأنّهم كمن ينتظرون قيام الثورة اليوم والتي قد تبدأ من ميدان التحرير، فيسمعون هم صداها من موقعهم بالبار، ويتحرّكون باتجاهها ليلقوا بأنفسهم في أتونها.

بدت شاهيناز أنحف قليلاً من أيّام الجامعة وتوقّعت أنّ الحلو يجوّعها باستمرار، بينما قد برز له لُغد أسفل رقبته واكتنز كتفاه. دخل شخصان البار واختارا المنضدة التي بجوارهم. توقّفوا عن الحديث وبدأوا ينظرون لبعضهم في قلق. كان الجوّ متوتّرًا وبدا الشابّان

Twitter: @ketab_n

الصغيران اللذان معهما أقلّ تماسكًا. . أنا خبير قديم بهذه التجمّعات التي تتأهّب لاتخاذ قرارات ثوريّة مهمّة، ويتصوّر أصحابها أنّ كل من بجوارهم مدسوسون عليهم من الأمن. لحسن الحظّ دخلت فتاتان ساقطتان واتجهتا إلى المنضدة التي يجلس إليها الشابّان وبادلتاهما القبلات وجلستا. . راقبت انفراج أسارير وجه أحمد الحلو وشاهيناز وانتقال عدوى الشجاعة إلى الطالبين، فعادوا يتحاورون من جديد، لكن بهمس وتشويح أقلّ. لمحني أحمد في إحدى لحظات استغراقه في التفكير وهي لحظات نادرة، لأنّ الميكروفون دائمًا في يده ولا يعطي فرصة الكلام لأحد. أمعن النظر فيّ ثم لوّح لي. رشفت الثمالة الباقية، ووضعت النقود على المنضدة وتحرّكت باتجاهه. وقفت أمام المنضدة ولوّحت بيدي، ردّت شاهيناز بتثاقل، بينما رفع أحمد كأسه قائلاً: «في صحّتك». التفت الشابّان إليّ وابتسما. سألته بآليّة عن أحواله، فردّ بآليّة. لم أجد ما أتكلّم فيه معه. تغابيت وسألته السؤال المصري الدائر آنذاك: عملت إيه في الزلزال؟ حملق في وجهي بسمات العالِم المفكّر حين تباغته مذيعة التليفزيون بسؤال عن توبة الفنّانات.

قال ساخرًا: عايزني أعمل إيه قدّام غضبة القوى الغيبيّة الغاشمة!

بهتُّ ولم أنطق وقلت: سلام. وانصرفت مغادرًا الكوزمو.

أنا الآن في الطالبيّة بسببه. استدعاني والده حامد الحلو تلفونيًّا لمقابلته، وأخبرني أنّ الأمر غاية في الأهمِّيَّة!!

Twitter: @ketab_n

- ١١ -

كأنّك تنظر إلى حياتك من ثقب الباب، فلا ترى غير جدران باردة وأثاث يعلوه التراب، وحشرات تزحف في كل مكان. لا أثر لبَشَر، ولا دليلاً واحدًا على أنّ هناك أنفاسًا تحرّكت ذات يوم بفعل الشهيق والزفير. لا رائحة عطرة أو مقزّزة، فقط خواء.

سافر عصام إلى سنغافورة. سافر بدون أن أعلم وعاد ليخبرني برحلته عبر مكالمة طويلة. كلّمني بانبهار عن كل ما رآه هناك: عن النظافة والأدب الجمّ والطبيعة الخلاّبة، وعن الأمان حين يكون هبة من السماء، لا بفعل البشر. وفاجأني بأنّه رفض عرضًا مذهلاً كمثمن للتحف الفنِّيّة ومشرفٍ على التصميمات الفنِّيّة بأكبر مركز فنّي بسنغافورة.. (كانت «سامنثا» قد بدأت تضايقني فعلاً. حين أخذتْه وغادرتْ به البلاد دون حتى أن يخبرني عن طريق مارشا أو عوض أو أيّ من الأصدقاء. وكانت تنوي الاحتفاظ به هناك. خطّة كاملة ترسمها بدربة ومهارة وعن قصد وسوء نيّة) ظهر على صوتي الاستياء.. فسألني بدهشة: هو انت كنت عايزني أقبل؟ أجبته: طبعًا لأ.. وأضفت بوهن: بس أنا حاسس إنّها حتفضل وراك لغاية ما تخلّيك تقعد هناك. ضحك بصوت عالٍ، ثم قال لي: سيب اللّي في إيدك وتعالَ بسرعة، فيه حاجات مهمّة عايز أقولها لك.. (ها قد بدأ توقّعي المعتاد للأسوأ، يلوح في الأفق).. طلبت منه أن نلتقي مساءً لنتعشّى سويًّا في مكان غير معروف.. وافق مؤكّدًا لي عدم قبول اعتذاري لأيّ سبب

Twitter: @ketab_n

مهما كان، لأنّه بدءًا من الأسبوع القادم سيكون في انتظار سامنثا، وسيذهب بها في رحلة إلى الأقصر وأسوان.

لم يعد عصام على طبيعته المعتادة كما أتصوّر. لن يكون ذلك الطائر الحرّ الذي يجوب سماء موطنه مصر بلا توقّف. سيكون بصحبته دائمًا الغراب المهاجر، الذي لن يهنأ ولن يستريح إلاّ بعد أن يأخذه باتجاه موطنه في شبكة، لا طائرًا حتى..

لم أذق طعمًا للعشاء، كان مزاجي سيّئًا إلى درجة أنّني في لحظة عبثيّة قرّرت أن أتزوّج مارشا، وأعيش حياتها التي ترغبها سواء في مصر أو في أميركا أو في إسرائيل حتى.. تلك الليلة أراحني قليلاً عصام بحديثه الصادق عن تعبه من كثرة التنقّل والترحال وأنّ مصر أولى به. ففيها الناس والنيل وحرّاسها من أولياء الله الصالحين، وأنّه بالرغم من انبهاره بسنغافورة وبما فيها من إغراءات ماليّة كبيرة، فقد أحسّ بأنّها تبدو مدينة ميتة غمرها الثلج في قمّة اكتمالها دون أن يحتفظ لها بالروح.

اكتفيت بهذه المشاعر الدالّة، فلم أشأ الخوض في المزيد، وأسرعت بالانصراف، لأنّني لست في مزاج طيّب يسمح لنفسي بتلقّي مفاجآت عصام المتتالية. لم أنسَ أنّ سامنثا ستأتي الأسبوع القادم كي «يفسّحها» في الأقصر وأسوان ردًّا لاستضافتها له بسنغافورة. كان اكتفائي بحديثنا عند هذا الحدّ الحميم هو الخاطر الذي خايلت به عقلي وارتاحت له نفسي وسكنت إليه.

بعد عشرين يومًا، أخبرني عصام أنّه أعدّ لي مفاجأة ودعاني أنا ومارشا على عشاء بمطعم الأمم. كانت سامنثا بصحبته، وأخبرني هامسًا وهو يحتضنني ويقبّلني في بداية اللّقاء، بأنّها ستغادر في الصباح. قلت لنفسي حفلة وداع لسامنثا، ويجب أن أساعد في جعلها أمسية لائقة بها. كان عصام يلتهم المأكولات البحريّة بعد أن يغمرها

Twitter: @ketab_n

بالصلصة الحريفة كما كانت تفعل بالضبط. وكنت ومارشا نأكل ونحن نرقبهما، سواء حدّثتنا بلغتها غير المفهومة أو بالإنجليزيّة، فقد كانت مخارج حروفها تماثل نبرات عصام تمامًا لدرجة أنّني كثيرًا ما اختلطت عليّ الأمور عندما اقتربت من السُّكْر، والتبس عليّ مَنْ منهما يتكلّم! وكان هذا مؤشّرًا مقلقًا لي. نجحت هذه المستنسخة لمرّة رابعة في انتزاع حبّ عصام وجعله يتغلغل فيها. فرأيت وفقًا للحسّ السياسي المختزن أنّه من الضروري أن أستقطبها. حدّثتها عن مصر وفرص الاستثمار الجيّدة بالنسبة للأجانب في الآونة الأخيرة، فلعلّها تقتنع بالبقاء في مصر مع عصام. كانت تنظر إليّ بتعجّب مندهشة من كل الهراء الذي أطلقه لساني. كانت مارشا تتابع حديثي عن الاقتصاد الحرّ وهي تبتسم. ضحكات سامنثا المعدنيّة هي التي أوقفتني عن الكلام. كانت ضحكاتها عالية وساخرة كما لو أنّك أخبرت أحدًا بأنّك رأيت تنّينًا في قلب المدينة. سكتُّ تمامًا وخشيت أن يُخرج الخمر أسوأ ما بداخلي، فاستأذنت وانصرفت مع مارشا.

لاحظت مارشا عدائي لسامنثا فزايدت عليّ. همست لي ونحن بالفراش، وكأنّها تطلعني على سرّ غامض بأنّ هذه الفتاة آتية من مجتمع شرقي مشوَّه لم يحتفظ بأصالته، ويتطلّع إلى تقليد الغرب في كل شيء. كما أنّها فتاة لا تقدّر الفن ولا الفنّانين وإن ادّعت دائمًا وبمهارةٍ غير ذلك، وأنّها كالكلب الأجرب الذي إذا أطعمته شيئًا، فسيظلّ يلاحقك ويتمسّح بك إلى الأبد، وأنّ جمالها الفقير (مارشا ترى ذلك!!) سيجعلها تتمسّك بعصام، وعند نفاد متعتها ستلقي به في أحد سجون سنغافورة. لم أعلّق. استطردتْ تقول: إنّ فحولة عصام جذبتها. بُهِتُّ وأبعدتها عن الالتصاق بي، بحركة لاإراديّة.. تنبّهتْ.. اقتربت منّي أكثر وضمّتني وهمست إليّ بأنّها لا تقصد ما فهمته من كلامها، إنّما هذا كلام مرسل يُطلق على المصريين والعرب ويحبّونه جدًّا ويعتزّون

Twitter: @ketab_n

بأنّه يطلق عليهم ويتميّزون به. أوليتها ظهري، وقلت إنّني مرهق. نامت مستاءة لكنّني لم أنم. كانت سامنثا تطوف في سماء الغرفة تخرج لي لسانها، وإذا ما غفوت وجدتها تحمل خليل كما تحمل الأم رضيعها، والاثنان يسخران منّي.

دخّنت سيجارة متذكّرًا ما تفوّهت به مارشا عفوًا منذ ساعات عن فحولة عصام، وأربكني. عصام لن يوقع بي في هذا. إنّ ما قالته مارشا ربما نوع من الإسقاط النفسي لعلاقتي بها على علاقة عصام بسامنثا. إنّها إذن تداعب «فحولتي».. يا له من وقع جميل لكلمة أتمنّى أن تكون حقيقة.

مرّت بضعة أيّام دون أن أكلّمه، ولم ألتق به خلالها في سهرة ولم أنشغل عليه أو أبحث عنه. هو الذي وجدني. مرّ على المقهى ولم يجدني، فكلّم مارشا في التليفون، وأخبرته بأنّني في البيت أراجع كتاباتي، إنّها حجّتي الدائمة عندما أودّ الإفلات من مارشا. اتصل بالمنزل. لم أكن أعرف أنّه من يتّصل، لكنّني لم أردّ، فقد كنت في مزاج سيّئ لا يسمح لي بأيّ تواصل إنساني. جهاز المحمول مغلق وأنا أجلس لا في انتظار «جودو»، بل في انتظار «لا شيء». دقّ جرس الباب ففتحت لأجده واقفًا أمامي فأدخلته. أخرج سيجارتين وناولني إحداهما، ثم طلب شايًا. صببت الماء وألقمت الكنكة الكبيرة شايًا ناشفًا وعدت إليه.

رحنا ندخّن سيجارتينا ونحن نرقب تصاعد البخار من الكنكة فوق السبرتاية القريبة ذات الشعلة الهادئة. تكلّمنا بفتور في أحوال عامّة، وبدت علينا رغبة مشتركة في الهروب من الموضوع الأساسي. انتهت سيجارتي فناولني غيرها وأخذ واحدة لنفسه. سألته: تاخد كاس؟ أومأ رافضًا. شعرت بأنّ من اللياقة أن أسأل عن الحرباء، فقلت له وأنا أتشاغل بجذب شريط السبرتاية وقصّ الأجزاء المحروقة منه: سامنثا

Twitter: @ketab_n

سافرت؟. لم أشهد تعابير وجهه لكنّني سمعته يقول بصوت مشوب بالفرحة: ووصلت بحمد الله وأخبرني أنّه يكلّمها على الشات يوميًّا. طال الصمت بيننا. كنت قد أطفأت السبرتاية وتخلّصتُ من أجزاء شريطها المحروقة وجرّبتها فتغيّرت نارها من اللون الأخضر الزاهي إلى البرتقالي، وتصاعد لهيبها. وعندما غلى الشاي، وضعت غطاء السبرتاية المعدني، فأخمدت نارها، قال وهو يفتعل الابتسام: يا ريتك كنت عملت الشاي على الوابور. قلت بصوت جافّ: أنت عارف إنّي ما عنديش وابور. (كان عصام يحبّ صوت الوابور جدًّا، في ليالي الشتاء الباردة. كنت أضع له وابورًا في غرفة مكتبي السفليّة بالطالبيّة، لينام على صوته ودفئه أيّام المذاكرة، وكان أحمد الحلو يعترض، ويدّعي الاختناق، ويأتينا بقصاصات من الصحف تتحدّث عن الحوادث التي سبّبها انطفاء الوابور والسكّان نائمون فاختنقوا جميعًا. لكنّي لم أطاوعه يومًا ولم أخرج الوابور من الغرفة في الليالي التي كان عصام يبيت فيها معنا).

أخذتني الذكريات، وأفقت على صوت رتيب كقطرات المطر في بدء تساقطها على السطح الاسبستوس. فقد بدأ عصام يمهّد للكلام، قال إنّه أحبّ سامنثا جدًّا.. وإنّها مختلفة عن نساء الأرض.. وإنّ الأيّام القليلة التي مرّت عليه بدونها موات، لا تُحتمل.

قاطعته وأنا أزفر بضيق: وبعدين؟!

قال إنّه قرّر أن يتزوّجها وإنّه سيسافر إليها الأسبوع القادم لعقد قرانه عليها. فسألته بحدّة لم أستطع التغلّب عليها: لماذا لم تعقد عليها هنا؟ قال إنّه تعمّد أن يتزوّجها في بلدها، لأنّني لم يعد لي أقارب باقون هنا، يحتفلون بزفافي كما أنّها أصرّت أن تبقى على ديانتها. قلت بسخرية: ديانتها!! دي بوذيّة.

لم يعلّق.

Twitter: @ketab_n

صرخت في وجهه: هل ستتزوّج مشركة؟!

نهض ووضع على كتفي يديه، وثبّت حدقتيْ عينيه في بؤبؤي عيني وقال: مصطفى.. إنت بتتكلّم جدّ؟

باغتني ما قلته الآن.. فاحتميت خلف ابتسامة. حيّرته قليلاً، ثم قلب شفتيه وهو يقول بصوت عالٍ قبل خروجه من باب الشقّة المفتوح: أحسن لك ترجع السعوديّة تأكل القرود بقسماط.

جلست مكتئبًا، ثم ـ بعد قليل ـ قرّرت الخروج والانتحار على صدر مارشا. تمرّ أيّام الاكتئاب ثقيلة وكأنّها لا تنتهي أبدًا. كنت قد راهنت عوض على أنّ عصام لن يعود، أيّدت مارشا رهاني. بين كل بضعة أسابيع وأخرى كان عصام يخبر عوض عبر الشات أنّه سيحضر قريبًا، ومرّت شهور ستّة، وبات رهاني قريب التحقّق. لكنّه كعادته معي خذل رهاني وعاد.. عاد عصام في هيئة شخص آخر. عاد كما كان في سنّ الثامنة عشرة. يرسم ويبدع أعمالاً متميّزة فذّة. حضرت معرضه الذي أقامه عقب عودته بقليل، كانت أعماله حيّة تكاد أن تخرج من اللّوحات وتجري في المكان بألوانها المبهجة. لم يكن هذا رأيي وحدي، بل كان هذا رأي أغلب النقّاد. عاد وأخبرني باستحالة ابتعاده عن مصر بعد ترحاله الطويل، وأنّه اتفق مع سامنثا على أن تأتي إليه كل ثلاثة أشهر. قال لي عصام إنّ سامنثا بعد كل الإغراءات التي قدّمتها إليه ورفَضَها، تحقّقت من أنّ رغبته في البقاء في مصر قويّة وأصيلة، فاحترمتها وتخلّت عن كدرها وعادت إلى طبيعتها.. بدأت الآن أحبّ سامنثا وأسعد كلّما ذكر عصام سيرتها. فقد دبّت فيه الحياة مرّة أخرى وعاد مقبلاً على الحياة ومحبًّا لها بشكل لافت للنظر، بلغ درجة خشيت عليه منها وانتابتني مخاوف القرويين السذّج عندما يدركون عبقريّة طفل صغير، فيفزعون ويطلقون عليه «ابن موت»، ويظلّون يترقّبون موته. كان إحساسي مثل إحساس هؤلاء، بأنّي على وشك أن أفقد عصام، لذا

Twitter: @ketab_n

أحببت من منحته قُبلة الحياة.. وبدأت أنتظر منحة إلٰهيّة بأن تصبح علاقتي بياسمين في قوة العلاقة نفسها بين سامنثا وعصام..

الزهرة البرّيّة الصغيرة ياسمين.. هديّة من هدايا السماء. بُعثت إليّ عن طريق زميل قديم أرسلها لأقرأ قصائدها الأولى وأوجّهها، وأنشر لها ما صلح منها. صدمني جدًّا صغر سنّها عند اللقاء الأوّل أكثر ممّا صدمني حجابها وفستانها الفضفاض الذي يكاد أن يخفي قدميها. كانت طفلة في التاسعة عشرة من العمر. لم أتصوّر يومًا أن يكون لي ابن أو بنت أو أن أترك أحدًا من صلبي في هذه الحياة. تحرّكت بداخلي تجاهها أبوّة غريبة بعد لقاءين. ثم توالت اللقاءات وساعدتها في نشر قصيدة أو قصيدتين. كانت سعادتي بحروف طباعة اسمها أبلغ من سعادتي بقصائدي الأولى. بدأت أعتاد عليها وأتصل بها كثيرًا وأقابلها بقدر المستطاع. ياسمين تردُّني إلى سنوات موغلة في القدم، كنت أظنّ أنّي نسيتها تمامًا. ذكّرتني بهند.. أوّل حبّ في حياتي أو حبّي الوحيد.. تلك الفتاة النحيلة الجميلة التي كنت أموت فيها حبًّا منذ تعارفنا التلقائي الأوّل، حين دخلنا الجامعة للمرّة الأولى.. كل يوم ونحن في مشوارنا اليومي من الجامعة إلى وسط البلد إلى شارع خيرت، حيث تسكن. كنّا نرسم أحلامنا ونعيش وقائع زواجنا على أغلفة الكشاكيل الدراسيّة وعلى تذاكر الأوتوبيس وبداخل الأوتوبيس النهري.. تتذكّر شيئًا فتطلب قلمي بسرعة لتدوّن ما ينقصنا. دولاب فضّيّة.. جزامة.. بيك أب.. مكتبة.. «مازالت لديّ بعض تذاكر الأوتوبيسات مدوَّنًا عليها احتياجاتنا».

مازال عالقًا في حَلْقي طعم الكوكا المثلّجة التي يخرجها الصبي من جردله الصدئ وهو يتجوّل داخل الأوتوبيس النهري.. مازلت أحسّ برعشة يدي وهي تلامس كفّها بالمصادفة.. مازلت حتى الآن عندما يعيد التليفزيون مسرحيّة شاهدناها معًا تظلّ أذني متأهّبة لالتقاط صوت

Twitter: @ketab_n

ضحكتها المميّز من بين كل الموجودين، مازالت ترنّ في أذني قهقهات الأصدقاء وسخريّتهم من رومانسيّتي عندما كنت أحدّثهم عنها. . كانت تتمكّن منّي فكرة خياليّة، وهي أنّ هند لا تتبرّز أو تتجشّأ أو تعرق أو تتنفّس مثلنا. تكاد أن تكون البنت الوحيدة التي لم تراودني نزعة حيوانيّة تجاهها باستثناء أُختي ومحارمي تأدّبًا. كنت أحلم بزواجنا، وأنّنا نعيش داخل شقّة كبيرة بها غرفتا نوم منفصلتان، لكل منّا واحدة، وأحرص على الاستيقاظ مبكرًا عنها أزيح بيدي شعاعها النوراني الذي يظلّلها وأقبّلها في الهواء دون أن تتلامس شفتانا. . بالمنشفة المبلّلة الدافئة أمسح على وجهها ويديها. . أطعمها بيدي. . (كانت أفكاري تجاهها أفكارًا عاجزة وعنّينة، لم يستطع أبدًا فكّ رموزها محلّل نفسي) بينما كنت في سنّ مبكرة جدًّا ولي علاقة جنسيّة كاملة مع الخادمة فتحيّة. في نهائي ثانوي كنّا نحضر ساقطات أنا وأحمد الحلو وعصام وزميل لنا آخر، كان اسمه فريد، وفي غياب أبي لفترات طويلة في مأموريّات تأمينيّة نحضر من نشاء إلى الدور السفلي الذي لا تقربه أمّي ولا شقيقتاي، فقد كانت أمّي تخشى عليهما جدًّا، وكانت تغلق الدور العلوي عليهنّ وتتركني أذاكر مع أصحابي في الدور السفلي وتعطيني احتياجاتي التموينيّة بصفة مستمرّة، حتى لا أصعد وأنزل وأتلهّى عن المذاكرة. أذكر حين انتابتني حالة تديُّن مع اقتراب الامتحانات، ورفضت السماح بالدخول لأحمد الحلو والساقطتين اللتين كانتا بصحبته. وتفهّم هو الأمر، وصرفهما ثم عاد بسرعة ليسألني عن السبب الحقيقي وراء رفضي، قلت له: حرام، واحنا داخلين على ثانويّة عامّة. .

ابتسم بسعادة، ثم وضع يده على كتفي وقال لي بسمت الخبير، وبنبرات العارف كل شيء في الدنيا وهو يشير نحو نملة تسير: تفتكر لو النملة دي نط عليها صاحبها، ده هيهمك في حاجة. قلت: طبعًا لأ. فضغط على كتفي وهو يضحك قائلاً: أمّال يا متخلّف ربّنا أعظم حاجة

Twitter: @ketab_n

في الكون، وإحنا بالنسبة له أقلّ ميت مرّة من النملة، هايشغل ذاته العظيمة بالتفاهات اللّي بنعملها.

نوّمني مغناطيسيًا هذا السفسطائي الزنديق، وبدا كلامه معقولاً على قدر الوعي واللّحظة، ووجدت نفسي أقول له: خلاص عدت المرّة دي.. المرّة الجاية إبقى قل لي قبلها، قهقه مستأذنًا منّي لدقائق، ثم عاد بالبنتين.. وكانت ليلة ليلاء.

أمام هند كنت خَلقًا وخُلقًا آخر، أكاد أن أعاملها كما ينبغي على دنيوي أن يعامل كائنًا علويًا. وقعتْ من فوق الدراجة أثناء رحلة جامعيّة بالقناطر، فتعرّت جيبتها وانكشفت عن فخذيها. وفي جزء من الثانية كنت قد قفزت من درّاجتي التي انطلقت تصطدم بالشجر، وانكفأت على هند حاجبًا أنظار الطلبة عنها. كانت مذهولة وأنا أمدّ يدي لأغطّيها وبجسدي أعزلها عن العيون. ضمّدت الزميلات جراحها بعطورهنّ التي بها كحول. كان زملاؤنا الطلبة يتضاحكون وأنا بعيدًا عنهم أتجنّب أن يروا وجهي المحتقن. بحثتْ عنّي فلم تجدني. سألتني كثيرًا عن سبب تراجعي عن إتمام مساعدتها. ولا أظنّني بحت بسرّ هذا الأمر حتى اليوم لأحد. أحمد الحلو الوحيد الذي تنبّأ بفشل هذه العلاقة وقال لي: لو تزوّجتها ستفشل في ولوجها وتكون أيّامك سوداء. غضبت عليه غضبة كبرى. قال عصام يخفّف عنّي: سيبك منه ده مش هايتجوز غير رفيقة شيوعيّة من مجلس السوفييت الأعلى.

ياسمين تعرف قصّتي مع هند. اضطررت لإخبارها حتى لا تحيّرها معاملتي العفوف لها فتظنّ بي الظنون. الطفلة التي كنت أتصوّرها بدت أكثر وعيًا وذكاءً من راشدات أعرفهنّ. كنت متعطّشًا للحبّ وصحا القلب الذي كان قد غفا منذ سنوات. أعتقد أنّ لحكاية سامنثا مع عصام دورًا في هذا. لكنّني لم أقدر على مواجهة نفسي بحقيقة هذا الحبّ. أستشعره حقًّا وأخشى أن تتجسّد أوهامي، أو تنحسر عنّي

Twitter: @ketab_n

وتتركني عاريًا في مواجهة مخيفة مع حبّ يزلزلني. ياسمين أصغر من أن يحتويها هذا الحبّ. قد تفزع وترتعد في جنون كعصفور يقف في المسافة الصغيرة ما بين قبضتي قطّ متوحّش. قد أكون قدرها القاسي المتوحّش. أراكِ بقلبي يا ياسمين. . لا أراك بحجاب أو بغيره، ولست بحاجة لتلمس أصابعك التي تضعينها خلف ظهرك عند اللقاء، غير آبه لتفاصيل جسدك التي قد تبين أو لا تبين أثناء سيرك. . أنا فقط متحيّر فحسبْ: لماذا يا هند الآن؟ لماذا عدتِ الآن؟ هل الرحلة طويلة لتستغرقي عشرات السنين حتى تعودي؟

طبيبي النفسي متحيّر معي. ضلالات فكريّة. شيزوفرانيا. بارانويا. ضلالات ذات مضمون ديني. . كأنّه يلقي عليّ دروسه التي تعلّمها بالجامعة. ليس مهمًّا، فلقد عادت هند. . بنحافتها نفسها وبملامح قريبة منها، وفي رداء يكسوها كلِّيّة، فهي تعرف أنّي لست بحاجة لجسدها الفاني. . عادت بروحها القديمة. ببسمتها الحانية. بلمعة حدقتيها وهي تتأمّلني. طظ أيّها الطبيب. هل تعلم أنّي أحيانًا أستكمل حواراتٍ مع ياسمين كانت قد توقّفت بيني وبين هند منذ عشرين عامًا، وياسمين لم تندهش ولم يطرف لها جفن. . أحيانًا كانت تستكمل الحوار، فتردّ كيفما اتفق لها الردّ. وأحيانًا كانت تسكت وتبتسم متفهّمة وتمتدّ جلستها معي إلى ما شاء الله حتى لو كانت قد حدّدتها معي منذ البداية بوقت معيّن، ضاربة عرض الحائط بظروفها التي لا تسمح لها بالعودة في وقت متأخّر إلى البيت. . كانت تستمع إليّ، ولا تنصرف إلاّ إذا طالت فترة الصمت، وانقطع الكلام بيننا.

قدري قد بدأ يتكشّف أمامي، وصرت أقرب إلى الجنون. وارتحت جدًّا لهذا، فمعناه أنّي سأتخلّص من كل قيود العقل المضنية وحساباته المعقّدة ومصالحه الفانية. سأفلت منها جميعًا وأطلق لعقلي العنان كي يغادر مجرّتنا ويرتحل تجاه الثقب الأسود.

Twitter: @ketab_n

ـ ١٢ ـ

«تنويعات على حالة شيزوفرانيا اتهمني بها الطبيب!!»

كثيرًا ما يشغلني شاغل أتحيّر في إيجاد أسباب له، أو حتى تبريرات. فبعد أن استتبّ الغزو الوهّابي على أرض مصر، عن طريق حشود المدرّسين والأطبّاء والموظّفين وحتى العمّال الذين عملوا لفترات طويلة بالمملكة السعوديّة ثم عادوا، تغيّرت أنماط الحياة بمصر كثيرًا، هجرنا تقريبًا سماع التلاوة الرائعة الجميلة لعبد الباسط، ومحمد رفعت، ومحمد صديق المنشاوي وغيرهم، وصار الناس يميلون بذوق عام تمّ إفساده إلى أصوات مفتعلة للحزيفي والسديسي والثُّميّني وغيرهم، وبتنا نستمع إلى سرسعات خليجيّة ونهمل عبد الحليم وأم كلثوم ونجاة.. وغزت مطابخنا الكبّة والتبّولة والمقلوبة ولم يبق لنا إلاّ أن نأكل الجراد والضبّ.

الشيزوفرانيا بدأت في مجتمعي أيّها الطبيب. أنا مجرّد عرض لها. عبرت الزمن فجأة من عصر الميني جيب والشورت الساخن إلى الإسدال والخيام السوداء التي ترفع طرف النقاب لتدخل في فمها ملاعق الكشري أو عصا الأيس كريم. حاولت أن أحلّل تلك الظواهر مستعينًا بقراءاتي أو بالكتب المتخصّصة، أو حتى مستعينًا بصديق، وفشلت تمامًا!

أحيانًا أستيقظ في الصباح الباكر وأفتح الراديو على صوت الموسيقى الكلاسيك أو على إذاعة القرآن الكريم إذا ما ضاقت بصدري

Twitter: @ketab_n

الهموم. . انتهت التّلاوة الجميلة ونوّه المعلّق باستضافة شيخ أزهري جليل سيردّ على أسئلة المستمعين. ثم توالت الأسئلة العبثيّة التي تعود بنا إلى عصور ما قبل التاريخ، ولم يكن الشيخ الجليل يهملها أو يؤنّب سائلها بل يردّ عليها بحكمة العالم الفذّ والمتديّن الورع. . ثم جاء سؤال غريب من مستمع: هل كان صحابة رسول الله ﷺ يمشون جواره أو خلفه؟! في الوقت الذي تدكّنا أميركا بالقنابل الذكيّة في سبيلها لإبادتنا، كان المستمع الكريم مشغولاً بهذا السؤال؟ وبدلاً من أن يوبّخه الشيخ الجليل بأدب أو ينهره أو حتى يفهمه خطأه، بسمل وحوقل واستعاذ ثم تنحنح وقال: إنّ صحابة الرسول كانوا يمشون معه حسب أشعّة الشمس، فلو كانت أشعّتها خلف النبي أو في مواجهته فسيمشون بجواره لأنّ ظلّه الكريم سيكون أمامه أو خلفه، وبذلك لن يطأ الصحابة ظلّه الكريم. وإن كانت أشعة الشمس من يساره فظلّه الكريم سيكون على يمينه وصحابته سيكونون عن يساره حتى لا يطأوا ظلّه وهكذا.

أغلقت الراديو وجلست أفكّر. . كان النبي الكريم يأكل مع صحابته من قصعة واحدة ويقتسم معهم الخبز المقدّد ويشاورهم في الأمر، لكنّني لم أسمع أبدًا أنّه كان يشغلهم بمسائل وعلوم البصريّات.

كنت بمقرّ الجريدة الأسبوعيّة المستقلّة أصحّح بروفاتها قبيل صدور العدد. استأذنني زميلي وليام لعمل مكالمة من جهازي المحمول. انشغلت عنه بالمراجعة وتركته يتكلّم. تكلّم عدّة دقائق وشكرني، أنهيت عملي وانصرفت من مقرّ الجريدة. وأثناء سيري رنّ المحمول. كان الرقم مجهولاً بالنسبة لي وتردّدت قليلاً في الردّ عليه ثم استجبت. أتاني صوت رقيق يقول لي: ممكن أكلّم الأستاذ وليام؟ أخبرتها بأنّي غادرت مقرّ الجريدة وتركته هناك.

قالت لي: إنت زميله؟

Twitter: @ketab_n

. . رددت بالإيجاب.

ـ طب اسمك إيه؟

قلت : مصطفى.

ـ مصطفى وصاحب وليام. . حلوه دي.

ـ وفيها إيه يعني؟

ـ لأ مفيهاش. . إنت مالك عصبي كده؟

ـ أنا مش عصبي. . بس ممكن تكلّميه في الجورنال.

ـ إنتَ زهقت منّي؟

استمرّ هذا الحوار العبثي طويلاً. . وتطرّق بنا إلى مناطق شائكة، بداية: من هل أنت مرتبط؟ وهل لديك مكان؟ ما الألوان التي تفضّلها في الملابس الداخليّة الحريمي؟ وانتهى بموعد في الغد.

كان الفضول هو باعثي الوحيد على تحديد الموعد رغم أنّني أحسست بعدم الرضا عن استجابتي لها التي تمثّل خيانة لوليام. ولم أشعر بارتياح إلاّ عندما كلّمته في مكتب الجريدة، فوجدته وحكيت له ما حدث بالتفصيل. ضحك بشدّة وقال لي: ع البَرَكة. سألته: إنت مش متضايق؟ أجاب ضاحكًا: يا عم كبّر دماغك. هي كانت مراتي. دي يدوب مصدر من مصادري.

كانت قد وصفت لي نفسها بأنّها جميلة ووزنها مش بطّال ومطلّقة ولديها ثلاثة أطفال لكن لا يبين عليها هذا أبدًا، من يراها يعتقد أنّها مازالت عذراء. كنت أراهن نفسي على أنّ نسبة الصدق في كلامها لا تتعدّى عشرة في المائة. . الحادية عشرة بالضبط كان محمولي يرنّ، وكانت حضرتها واقفة بالقرب من المنزل كما قالت لي، في انتظار الصعود. وصفت لها الشقّة، ونبّهتها إذا سألها البوّاب أن تقول له إنّها صاعدة لعيادة الدكتور ذهني بالخامس، وتصعد بالمصعد للدور الخامس فعلاً، ثم تكمل الصعود على الدرج حتى شقّتي بالدور

Twitter: @ketab_n

السادس. لم يكن من عادتي أن أطلب هذا الطلب إلاّ من محترفات الدعارة اللواتي ينمّ مظهرهنّ عن ابتذال. رنّ جرس الباب رنّات متقطّعة خفيفة. فتحت وفوجئت وتسمّرت.. كانت أمامي سيّدة بالنقاب والإسدال واقفة في مواجهتي. قبل أن أهمّ بإغلاق الباب في وجهها همست: مش حضرتك الأستاذ مصطفى؟

بمجرّد أن هززت رأسي دفعتني بقوّة إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفها وهي تهمس بصوت يشبه الفحيح: أنا هبة.. أشرت إليها نحو غرفة النوم ومازالت الدهشة تتملّكني. أغلقت الباب من الداخل بالمفتاح وأطفأت أنوار الصالة في توقيت لا يتجاوز الثلاثين ثانية، ثم اتجهت صوب غرفة النوم، هذه المرّة كانت صدمتي أشدّ وقعًا. وجدت السيّدة وقد رقدت عارية تمامًا وملابسها مكوّمة على مسند السرير. اعتقدت أنّ هلاوسي رجعت إليّ مرّة أخرى. لكنّها كانت تكلّمني بابتسامة عريضة، وعندما لاحظت توتّري وحيرتي، نهضت بسرعة واحتضنتني وأخذت بيدي كما تأخذ الأم بيد طفلها الصغير وهي تدخله الحضانة لأوّل مرّة. أرقدتني بجانبها وهمست في أذني: إنت زعلت؟ ثم قامت بنصفها العلوي ومدّت يديها بآليّة جاذبة سروالها الصغير وصدريّتها ذات اللون الأحمر القاني. وارتدتهما في عجالة وهي تنظر تجاهي وتقول: إيه رأيك؟ نظرت إليها نظرة سريعة ولم أعلّق. وقفت على السرير ولملمت باقي ملابسها وهي تقول بزهق: لأ دا أنت حكايتك حكاية. أنا هالبس هدومي كلّها تاني وابقى قلّعني أنت براحتك. جذبتها من سمانة قدمها قائلاً بحدّة: اقعدي. رقدت بجواري ثم أدارت لي وجهها تتأمّلني وهي حائرة النظرات. لن تفهمني هذه الغبيّة، من النقاب حتى العريّ المطلق في لحظات. صدمتني ببجاحتها وهي تقول: أنت حتفضل تبصّ لي.. مش هاتخلّص.

وضعت يدي على جانبها المنبعج وتحسّست بطنها البارز وقلت

Twitter: @ketab_n

بسخرية وأنا أقلّدها: أنا جسمي زي آثار الحكيم. قالت بتحدٍّ: أيوه زيّها هو أنت يعني كنت شفت جسم آثار؟

تجاوز الحوار بعد ذلك قدرتي العقليّة، فانهمكت بجدّ وإخلاص حتى انتهيت. جلسنا بعدها نأكل بعض الفاكهة. فقالت وهي تلقي ببذور العنب في الطقطوقة: تحب تكمل أنا فاضية لحدّ الساعة اتنين.

اعتذرت لها بأنّ لديّ موعدًا. طلبت منّي تحديد مواعيد اللقاءات. قلت كمن يتخلّص منها: هابقى أكلّمك في التليفون، يئست فاستأذنتني لتستحمّ. عادت ترتدي ملابسها أمامي ثم قالت بأدب: عندك مصلية. تسمّرت قليلاً ولم أعلّق، ثم أشرت إليها بيدي تجاه الدولاب. فتحته ولمحتها في الدرفة السفليّة فجذبتها بسرعة وهي تسألني عن اتجاه القبلة. خرجت بها إلى الصالة وأضأت الأنوار وأنا أشير نحو موقع القبلة. صلّت ثم عادت تزدرد حبّات العنب بتلكّؤ. ناولتها نقودًا لم تعدّها ودسّتها في حافظتها الصغيرة. لم يعد بيننا حوار أو كلام ممكن أن يقال. بعد أن هندمت ملابسها على جسدها أمام تسريحة الدولاب، اتجهت إليّ وخبطت على فخذي بيد رقيقة وقالت على استحياء: ممكن أسألك سؤال بس أوعى تزعل؟ قرّرت ألاّ أعطيها نقودًا تحت أي مسمّى تدّعيه وقلت بتأفّف: اسألي..

قالت: انت حقيقي اسمك مصطفى، ولاّ مغيّر اسمك وبعدين تطلع قبطي زي وليام؟ لم أستوعب ما قالته في بادئ الأمر، ثم جرجرني فضولي لسؤالها: ليه؟ قالت: أصلي بصراحة ما بحبّش أعمل الحاجات دي مع مسيحيين.. حرام.

صرخت فيها وسببتها وأنا أقول: يا بنت الكدابة أنا أصلاً عرفتك من قبطي.

قالت: والله العظيم بعد ما عرفت إنّه قبطي ما خلتوش يلمس ضوفر من صباعي، وبقينا أصحاب بس..

Twitter: @ketab_n

هبة غادرت شقّتي ولم تعد إليها أبدًا.

مازال يشغلني شاغل: من منّا مريض بالشيزوفرانيا، أنا أم المجتمع؟ ولماذا أنا حائرٌ دائمًا بين مجتمع أحبّه ولا أقدر على العيش فيه أو التعايش معه، ومجتمع أكرهه وألتصق به. قصّتي مع مارشا كانت لابدّ أن تنتهي منذ فترة طويلة. لماذا أتمسّك بها إلى الآن؟ أدور في فلكها. مدارها يجذبني أينما كنت. مهما ابتعدت أعود إليها. حالتي خطرة وتتفاقم يوميًّا، ولا أدري كيف ستكون نهايتي؟

هل سأظلّ معلّقًا بين السماء والأرض: آرائي وقيمي وموهبتي وعلاقاتي بالآخرين؟

أحتاج إلى ياسمين الآن كي أغسل ذنوبي على بابها.. هل أطلب منها المجيء؟ وأظلّ أدور وألفّ بالمواضيع، غير قادر على البوح المباشر، عاجزًا عن إيصال مشاعري بالتفصيل.. وتعود البنت الصغيرة في آخر الأمر إلى بيتها تسأل نفسها كثيرًا عن غريب الأطوار الذي دخل حياتها فجأة، وتجهل ماذا يريد منها بالتفصيل.

Twitter: @ketab_n

- ١٣ -

كنت قد غفوت قليلاً، وسبحت أثناء غفوتي على أجنحة طائر خرافي في طبقات من سحب سحريّة مذهلة لا يمكنك حتى إعادة تذكّرها، كما لو أنّك شربت طنًّا من الحشيش الخام، أو استحممت بقوس قزح على قمّة جبال الأنديز. كنت قد غفوت وانتهت خطبة الجمعة والإقامة، ونسيت أنّني بالطالبيّة في انتظار موعد الحاج حامد الحلو، إلى أن وجدته ينادي عليّ بصوت عالٍ وهو واقف قبالة البيت يستند إلى كتف شاب في العشرينات. رفض الصعود وأخذ يستحثّني على النزول إليه.

كان الفتى هو سائقه الخاصّ بعد أن فَتَحَ الله عليه وامتلك محلاً ضخمًا لبيع الخضر والفاكهة بالحيّ. ركبت السيّارة في المقعد الخلفي بجواره، وظلّ يربت على فخذي بطريقة وتّرتني، وهو يحدّثني عن صداقته الطويلة مع والدي رحمة الله عليه، دون أن يتطرّق إلى فترة خصامهما التي طالت حتى وفاة أبي كأنّني كنت في غيبوبة ولا أتذكّر. ثم حدّثني عن صحبتي لابنه أحمد وصداقتنا، واستحلفني بميراث هذه الصلة التي كانت تجمعنا أن أفعل شيئًا.. كان والدي يظنّ دائمًا أنّ أحمد هو سبب بلائي ورميي بالمعتقل، ومات وهو أسير تلك الفكرة. وكان عم حامد يعتقد أنّني بذرة الشرّ التي جذبت أحمد إلى مستنقع الشيوعيّة رغم فخره الأحمق بتمرّد ابنه على الحكومة، وكان مجرّد مروري بجوار عربة الفاكهة الخشبيّة التي يبيع عليها بطّيخه وشمّامه

Twitter: @ketab_n

يجعله متجهّم الوجه، ويكاد ألاّ يردّ على سلامي أو تحيّتي بل أحيانًا كنت أتصوّره يقذفني ببصقة. وللحقيقة نجح الاثنان (والدي وهو) في إفساد صداقة كان من الممكن أن تجعلنا متلازمين إلى الآن. عصام أيضًا كان له تأثير في إخماد هذه العلاقة. وعندما علم بتوسّطي لأحمد الحلو كي يعمل بالسعودية فرّ منها بسرعة وسحبني معه كأنّه لا يريدني أن أجتمع مع أحمد في مكان واحد. لم أكن على علم بما حلّ بأحمد الحلو ودفع أبيه لكي يستجير بي.

طلبت منه أن يحكي لي بالتفصيل. كانت شقّة أحمد الحلو الحاليّة تقع بالشارع الرئيسي المؤدّي إلى أكاديميّة الفنون، ذلك الشارع الذي كان اسمه خوفو وتحوّل الآن إلى شارع خاتم المرسلين.. اضطر السائق إلى اللّفّ والاستدارة عدّة مرّات طبقًا لأوامر الحاج حامد حتى ينتهي من حكايته.. ترقّى المهندس أحمد الحلو بسرعة لتميّزه ومهارته حتى أصبح كبير مهندسي ورشة الميكانيكا بإحدى شركات البترول المصريّة، ثم سافر بإجازة غير مدفوعة الأجر إلى السعوديّة للعمل (لم يذكر عم حامد أنّني السبب في سفره وربما كان لا يعلم). عمل أحمد الحلو في إحدى شركات البترول العالميّة العاملة هناك لأكثر من أربع سنوات، ثم اشتبك مع خبير أجنبي في حوارات سياسيّة خاصّة بالشرق الأوسط وصراع الدول العظمى على الهيمنة عليه، خاصّة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بتأثير عملاء المخابرات المركزيّة الأميركيّة، وأنّهم سيفعلون ذلك في الشرق الأوسط وسيجعلون من الإسلام فزّاعة للغرب حتى يسهل عليهم السيطرة عليه. هذه الحوارات أقلقت الخبير الأجنبي وجعلته يوصي بالحذر منه، فأعادته الشركة إلى مصر شبه مُرحَّل (كنت ملمًّا بهذه المرحلة ومطّلعًا على بعض تطوّراتها عن طريق بعض تلاميذي ولم أخبر عصام بها حتى لا يتشفّى منّي).

أكمل الحاج حامد: عاد أحمد من السعوديّة بحمد الله ملتزمًا

Twitter: @ketab_n

حريصًا على الصلاة وتأدية الفروض واستبدل البنطال والقميص بالجلباب القصير، وبدأ في إمامة العاملين في فناء الورشة، وكان يعقد لهم دروسًا دينيّة عقب صلاة العصر من كل يوم (كانت هذه تطوّرات مذهلة وكنت أنظر إلى الحاج حامد مشدوهًا لسماعها) حتى استدعاه أمن الشركة وطلبوا منه التوقّف عن الدروس الدينيّة، لكنّه رفض. تطوّر الأمر بعد ذلك، واستدعته مباحث أمن الدولة وطلبت منه بصرامة التوقّف عن أيّ نشاط ديني، لأنّ ملفّه كماركسي ممتلئ وليست هناك حاجة لفتح ملفّات أخرى. لم يأبه لهم بل استند إلى فتوى لأحد الشيوخ تقول بأنّ نقود الحكومة حرام لأنّها لا تأتي من مصارف شرعيّة مؤكّدة، بل مصادرها هي أموال السياحة الواردة من أعمال التسرية عن الكفرة وبيع الخمور ولهوهم بألعاب الميسر والقوادة، كما تيسّر لهم الحكومة رؤية المساخيط المجسّمة التي حرّمها الله. ومن مصادرها أيضًا معونات من دول كفرُها مؤكّد ومقطوع به وهدفها الأوحد إبادة المسلمين والإسلام. ولكي يكون أحمد الحلو قدوة صالحة لمن يستمعون إليه ويصلُّون وراءه ويهتدون بهديه وهو يعلّمهم أمور دينهم، قرّر الاستقالة من الحكومة الكافرة ثم سعى إلى الكسب الشرعي. وبدأ في بيع صواني البسبوسة والكنافة بالقطعة والتي تعدّها في البيت زوجته شاهيناز (الرفيقة شاهيناز سابقًا).. يبيعها أمام الورشة للعمّال والموظّفين والمهندسين الذين كان يرأسهم سابقًا. اجتمع أعضاء مجلس إدارة الشركة الذين يعلمون جيّدًا مدى مهارته المهنيّة وسيرته الطيّبة طيلة عمله بالشركة للبحث في أمر أحمد الحلو. تردّدوا كثيرًا في قبول استقالته وراجعوه أكثر من مرّة، لكنّهم وافقوا أخيرًا بعد أن سبّهم ولعنهم ووصمهم بالكفر والإلحاد.

لم تفلح محاولات الأمن في إقصاء أحمد الحلو عن مكانه المختار أمام الورشة، وكان الأمر قد التبس عليهم تمامًا فملفّه الأمني المتضخّم

Twitter: @ketab_n

من جرّاء تنقّله بين كل خلايا اليسار، لم تكن فيه ورقة واحدة تؤكّد على أنّ له نشاطًا دينيًا موازيًا. فلم يكن عضوًا ولا متردّدًا على أيّ من الجماعات الدينيّة العلنيّة أو المحظورة، لذلك تغاضوا عن الشكاوى والإخباريّات التي تصل بشأنه. ربما خوفًا من إعادة اعتقاله فتجنّده الجماعات المتطرّفة، ويتمّ الاستفادة من عقله المنظّم. تركه الأمن السياسي تمامًا لشرطة البلديّة تضايقه وتنغّص عليه حياته. لكن أحمد الحلو كعادته بحلو حديثه وبعقيدة إيمانيّة تبدو راسخة استطاع أن يرهبهم باسم الدين ويحذّرهم من قطع عيش المسلم المسالم وينبئهم بمصيرهم الأسود يوم القيامة. فقلّ الاهتمام به من رجال البلديّة الذين أصبحوا يصلُّون خلفه أحيانًا. تحرّك مجلس الإدارة في خطوة أخيرة لإنقاذ أحمد الحلو واستدعوا والده الحاج حامد الحلو، وأخبروه بما يحدث وبما سيخسره ابنه لو استمرّ في عناده ولم يرجع عن استقالته خلال الستين يومًا التي حدّدها القانون. بكى الحاج حامد فاحتضنوه وربتوا على كتفه وطلبوا إليه أن يبذل ما في وسعه كي يتراجع المهندس أحمد عن الاستقالة، خاصّة وأنّه على وشك الترقية مديرًا عامًّا للورشة، ومن الممكن أن يصبح مديرًا عامًا للشركة خلال سنوات قليلة، وليس ببعيد أن يصبح وزيرًا في يوم من الأيّام، فأحمد كفوء والدولة تحترم الكفاءات.

أحلام اليقظة سيطرت على نافوخ عم حامد، لكن ابنه أحبطه عندما رفض الانصياع لطلبه بالتراجع عن الاستقالة ونهاه عن الخوض معه في هذا الحديث مرّة أخرى. لهذا جاءني الحاج حامد. ظنًّا أنّه لاتزال لي صلة قويّة بأحمد الحلو وتأثير عليه كما كان يتخيّل في الماضي. لم أستطع الرفض أو التراجع أمام شيبة الرجل وضعفه الواضح. وأمام فضولي ورغبتي أيضًا في أن أرى أحمد الحلو الآن عقب تحوّله مائة وثمانين درجة: كما كان من المستحيل أن أؤكّد لأبيه الآن بأنّ رأس

Twitter: @ketab_n

ابنه أصلب من الحديد، وأنّه كان قائدي وليس تابعي، وكان القادر على توجيهي لا العكس. قلت في نفسي: «محاولة قد تجدي».

صعدنا الدرجات الإسمنتيّة القليلة وأنا أسنده من جهة والسائق من الجهة الأخرى. بدت دقّات عصاه على البلاطات الإسمنتيّة كدقّات قلب نشط متوتّر. لم أزره بهذه الشقّة من قبل ولم أزره على الإطلاق بعد زواجه من شاهيناز. أعرفها منذ كانت زميلة أحمد بكُلّيّة الهندسة وزاملتنا في التنظيم. كانت مندفعة هوجاء، ببّغاء تردّد كلّ ما يقوله أحمد الحلو، غير واعية بأهمّيّته أو مدركة لأبعاده. لم نَمِلْ لبعضنا قطّ. افتقدنا كيمياء التناغم فيما بيننا. وقد تكون هي سببًا من أسباب تردّي علاقتي بأحمد الحلو. لم أجد فيها شيئًا مميّزًا أو لافتًا.. فقط فتاة جميلة إلى حدّ فوق المتوسّط ومن أسرة ثريّة ثراء العائدين من دول الخليج «ثراء غير أصيل». رغم علاقات أحمد الكثيرة كنت متأكّدًا بيقين من أنّه سيتزوّج منها في نهاية المطاف. فهي قطعة نشاف لزجة ستلتصق به إلى الأبد. وقد كان. تغيّر أحمد الحلو وبالقطع تغيّرت شاهيناز وتلوّنت مثلما تلوّن.

لم أكن في حياتي متعجّلاً لقاء أحد بقدر لهفتي على رؤية شاهيناز الآن. كنت قد منعت أفراد التنظيم ـ بناء على نصيحة عصام وتخوّفه ـ من دخول منزل الطالبيّة، ووقفت بقوّة ضدّ إلحاح أحمد الحلو معلنًا بوضوح أنّني سأجتمع معهم في أيّ مكان عدا بيتي وإلاّ فليعتبروني منسحبًا من التنظيم. لم أقبل تلميحاتهم بأنّ المكان الذي نجتمع به حاليًّا قد أصبح مكشوفًا أمنيًّا أو «عرضة للتفتيش». قال لي عصام الذي حاول مرارًا وتكرارًا أن يجعلني أبتعد عنهم ولم يفلح، إنّي لو استضفتهم سأقضي على عائلتي التي لا تعرف شيئًا عن السياسة وسأورّطهم معي في مشكلات كبرى.

تراجع أحمد بضيق بعد أن رفضتُ بشدّة. وانتابني الضيق أيضًا،

Twitter: @ketab_n

فهو يريد أن يكسب مكاسب تنظيميّة على حساب استضافتي لأفراد الخليّة بمنزلي نظرًا لاستحالة استضافتهم في شقّته الصغيرة المجاورة لنا. ورغم ذلك طويت هذه الصفحة سريعًا وظلّ من أصدقائي المقرّبين ومن شلّة زملاء الدراسة الذين يذاكرون معي حتى لو كانت مناهجهم مختلفة، وظلّ أيضًا مهيمنًا عليّ داخل الخليّة. . ومشاركًا لي ولعصام في نساء الليل سواء اللواتي كنّ يجئن بصحبته أو بصحبة آخرين من أصدقائنا. كان الدور السفلي كالماخور في فترات غياب أبي الطويلة في مأموريّاته، وكانت أمّي قد نفضت يدها تمامًا من هذا الدور واكتفت بأن تركت مهمّة تنظيفه لفتحيّة. ولم أعرف أبدًا إن كان قد خامرها شكّ أو وصلتها أيّ تكهّنات عمّا كنّا نفعله بالأسفل أم لا. كانت تحبنّي جدًّا فأنا الذكر الوحيد بهذه الأسرة، وعندما تودّ معاقبتي، فإنّ أقصى ما كانت تفعله أن تهدّدني بالإيعاز لأبي بغلق الدور الأسفل بأكمله، وجعلي أذاكر في الطابق العلوي، وحرماني من لقاء أصدقائي بالأسفل وبحرمانها من استهلاك الشاي والسكّر والقهوة وسندوتشات الجبنة بالطماطم والحلاوة الطحينيّة. فطنتُ إلى أنّ مخاوف أمّي عمليًّا لا تتجاوز استهلاك المواد التموينيّة. وبدأت أجمع نقودًا من أصحابي لنحضر بها فولاً أو طعميّة أو حتى جبنة رومي. . لاحظت أمّي أنّي اكتفيت بطلب بكوات الشاي وأرباع البن ولمّا سألتني أجبتها بلوم: مش انتِ عمّاله تحسبي علينا اللّقمة. ضعفت أمّي وابتسمت ابتسامة عتاب رقيقة، وقالت وهي تخبطني على صدري بحبّ: يخيّبك واد. إنت هاتطلع قماص زي أبوك. أنا كنت باهزّر. وعادت ريما بعد ذلك لأكثر من عادتها القديمة، وبدأت أصعد إلى أعلى فأجد الصينيّة ممتلئة بسندوتشات الفينو المحشوّة.

كنت أقابل شاهيناز في الاجتماعات ومرّات قليلة بالجامعة وهي بصحبة أحمد. كنت لا أرتاح لصحبتها وأرى أنّ آراءها متطرّفة بعض

Twitter: @ketab_n

الشيء وتزيدها جهامة نبرة صوتها العالية وتشنّج وجهها وهي تدخل في حوار مع أيٍّ منّا. كانت تزايد علينا كلّنا بمن فينا أحمد. جرأتها مستفزّة وهي تسير بالكاد حاملة تحت إبطها مجلّد رأس المال لماركس متنقّلة به من كافتيريا إلى أخرى داخل الحرم الجامعي. كانت كلّيّة الهندسة خارج الحرم الجامعي الكبير، وكان تواجدها معنا بالحرم الجامعي مثيرًا للقلق واللغط. لكنّها كانت تسير غير آبهة بالعالم كلّه باستثناء أحمد الحلو. وكان هذا يقلقني إلى درجة أنّني تصوّرت أنّها مدسوسة علينا من الأمن، وتغابيت وقلت ذلك لأحمد الحلو في لحظة صفاء، قام من أمامي وبه غضب وحشيّ، ووقف يضرب بيده على صدره وهو يصرخ بانفعال: شاهيناز.. شاهيناز.. قلب الثورة النابض. شاهيناز برعم الأمل.. بتشك إنّها مخبرة!

كأنّه يلقي شعرًا حماسيًّا وبحاجة إلى تصفيق، قمت بسرعة واحتضنته واعتذرت إليه، وأنا أهمس في أذنه بأنّني قلت مجرّد انطباع قد يكون خاطئًا. صرخ في وجهي: اتهام الرفاق بالعمالة بقي انطباعًا.. أرجوك احتفظ بانطباعاتك لنفسك.. خاصمني لفترة لكنّ الأفكار الثوريّة المتتالية التي كانت تأتيه أجبرته على مصالحتي ومناقشتي فيها. أصبحت الأمور باردة بيني وبين شاهيناز، فأيقنت أنّه أخبرها. قال عصام: طبعًا قال لها ده تلاقيه كمان قالها كل حاجة عنّا وفريد بيعمل إيه قبل ما ينام مع الواحدة.. (كان فريد مهووسًا بالنظافة ويصرّ دائمًا بعد اختياره للفتاة التي سينام معها أن يدخلها الحمّام ويحمّمها بيديه، وكان هذا يكلّفه ما لا يطيقه من سخريتنا وكذلك أجرًا مضاعفًا لمجهوداتها). قلت لعصام بثقة: مش معقول يقول لها.. هو مغروس معانا، وبعدين ما تغرّكش السهوَكة اللي بتعملها وهي جمبه.. دي كانت تاكله بسنانها.

كانت علاقة أحمد وشاهيناز قد دخلت طورًا جديدًا، فبدأ لا يظهر

Twitter: @ketab_n

دونها وامتنع عن التواجد مع الفتيات في خلوات بأماكن غامضة داخل الحرم الجامعي بحجّة استقطابهنّ. . أصبحت بينهما الآن خصوصيّة ملحوظة ويصرّان دائمًا على إعلانها حتى أثناء اجتماعاتنا. كان يجلس دائمًا بالصفّ الأوّل ويضمّها إليه بساعده الأيسر غير آبه لنا ولا للزعيم، وكانت تدسّ أصابعها في نهايات شعره القصير وتداعب حلمة أذنه أو تمشي بكفّها على شعيرات يده. . وكنت لا أستبعد أن يأخذهما الشوق فيمارسان الجنس علنًا أمامنا ونحن نناقش أوراقًا مهمّة خاصّة بكيفيّة الإعلان عن تنظيمنا الصغير لجماهير الشعب الكادحة، دون أن نثير الأمن علينا أو ننبّهه إلينا.

ما تلا ذلك وحدث كان أعجب من العجائب. . جاءني أحمد الحلو ليلاً وبعد أن اطمأنّ إلى عدم وجود عصام أو فريد، بدأت رغبته في الكلام تزيد، لكنّ التردّد والقلق كانا يحولان بينه وبين النطق. بدأت أقلق وأتوتّر بدوري. ثمّة مصيبة سيخبرني بها أو يطلبها منّي. ظللت أستحثّه على الحديث وبدأ يراوغني. استفزّني، فقلت بحدّة وصرامة: فلوسي خلصت واحنا ف آخر الشهر، استنّى لمّا ييجي أوّل الشهر وأبويا يحنّ عليّا بالمصروف. بان عليه الاندهاش، ثم ابتسم وقال: فلوس إيه يابو فلوس. . لو أنت عاوز فلوس قل لي.

بدأت أتيقّن من صحّة مخاوفي «الخليّة قد انكشفت أو أنّنا تحت المراقبة»، وبدأت أقلق على أمّي وأُختي وأبي. قلت له بندم وغضب: أنا قلت لك إنّي مش أد السياسة والزفت، أنا ضعيف مش حمل بهدلة، وبعدين مالها الأشعار العاطفيّة هاكتبها وبلاها الشعر الثوري اللي هايودّينا في داهية. .

ضحك بصوت رائق، فهدأت أعصابي وقلت له ملحًّا: يا أحمد اتكلّم دماغي عمّالة تروح شمال ويمين، وبعدين ممكن يطبّ علينا عصام ولاّ فريد ولاّ محيي. . كانت هذه كلمة السرّ التي دفعته إلى

Twitter: @ketab_n

الكلام بسرعة. كانت هذه هي اليد الجاهلة التي فتحت فوهة الزجاجة فخرج عفريتها بما لا يخطر على بال أحمق مثلي. كان طلبه بسيطًا وعاديًّا أن أتخلّى له عن شقّتي لمدّة ساعتين فقط. غالبتني السخرية وقلت له: وهاتجيب فيها مين إن شاء الله صوفي مارسو. هات اللي تجيبه وإحنا مزروعين جمبك، ولو عَجَبِتْنَا هانبقى معاك غصبًا عنك. .

بدت عليه أمارات الذعر، وامتقع وجهه وهو يهمس في أذني: أرجوك مش عايز حدّ يبقى موجود. . أنا هاجيب شاهيناز. ذعرت، كان بيننا كلّنا اتفاق ضمني واضح ألاّ تدخل زميلة من الجامعة إلى هذه الشقّة مطلقًا، وكنت أنفّذ هذا الاتفاق كأنّها ليست شقّتي وكذلك الآخرون. أجبته بالرفض وبدأت أتوتّر مذكّرًا إيّاه بالاتفاق، وبدا كلامه كخلفيّة موسيقيّة يقيمها أوركسترا الصمّ والبكم. كلام مسترسل غير متّسق ولا مترابط ولا متزن. عن الحبّ الكبير الذي يجمعهما، عن رغبتهما الشديدة في الاختلاء ببعض، عن إنقاذي لهما من لقاءات بير السلم وقاعات السينما المظلمة وأسوار الخرابات المهجورة. حدّقت طويلاً في هذا الثوري الهائج وقد أودى به شبقه. كان ضعيفًا واهيًا وكانت تلك من اللّحظات النادرة التي رأيته فيها هكذا. حرّكت رأسي بتأنٍّ يمينًا ويسارًا معلنًا الرفض التام. أطرق برأسه منكمشًا، ثم قام متّجهًا إلى الباب، لكنّه عاد مرّة أخرى يطلب منّي برجاء وتوسّل ألاّ يعلم أحد من زملائنا بهذا الحديث. طمأنته ونهضت لأحتضنه وأربت على ظهره طالبًا منه أن يسامحني، فالأمر فعلاً فوق طاقتي وجاهدت وأنا أهمس في أذنه بأنّ هذا لن يمنع مشاركتنا النساء فيما عدا زميلاتنا بالطبع، وتبسّمت. لم يبتسم لكنّه شدّ على يدي، وقال لي بتصميم إنّه لن يشاركنا مستقبلاً أيّ ساقطة تأتي إلى الشقّة، ولن يقرب من النساء، فحبّه لشاهيناز طهّره كما طهّرته كتب كارل ماركس من نزعة استغلال آلام البشر في سبيل منفعة الحثالة. ضحكت كثيرًا بعد أن خرج.

Twitter: @ketab_n

أعجبني صموده بعد انكساره وخطابه الوداعي ونحن أمام باب الشقّة.

وقفت أمام نفسي حائرًا. كنت أعرف أنّني أراوغ وأكذب. صحيح كان بيننا اتفاق، لكنّني كنت مستعدًّا لأن أنقضه كيفما شئت. فلو تبدّل الحال وكان عصام هو من جاء بزميلته، لم أكن لأرفض متعلّلاً بالاتفاق، وربما لو كان أحمد الحلو وبصحبته أيّ من زميلاته عدا شاهيناز ما كنت سأعترض. لكن شاهيناز بالذات محال. فأنا أعرفها وتزاملني بالخليّة ولم أقدر على التفوّق عليها في أيّ جدال. وكنت في تلك اللّحظة قد خرجت منتصرًا وحلّت بي رغبة جنونيّة وجامحة بأن أخبر كل من أعرفه ويعرفونها. لكنّي تراجعت ولم أخبر أحدًا بالذي كان بيني وبين أحمد الحلو ذاك اليوم.

قابلني بعدها بأيّام في الكلّيّة وهمس في أذني بأنّ شاهيناز إن آجلاً أو عاجلاً ستصبح زوجته، ابتسمت وأخبرته بأنّ هذا سبب أدعى يمنعني من السماح لهما بذلك. لم تتغيّر علاقتي بأحمد الحلو بعد هذه الحادثة، لكنّني أصبحت أتجنّب الاشتراك في حوار مع شاهيناز التي كانت تبدو غير عالمة بما طلبه أحمد منّي. كنت أخشى أن أخرج عن شعوري إثر مداخلة عميقة منها أو تنظير قوي لا أقدر على مواجهته أو استفزاز نظري حول قضايا العالم الثالث التي دائمًا ما أطرح لها حلاً رومانسيًّا على حدّ قولها. قلّلت أيضًا من قراءة أشعاري الثوريّة التي كان رئيس الخليّة يطالبني كثيرًا بقراءتها في نهايات كل اجتماع.

كل اجتماعاتنا أو أغلبها كانت تنعقد في بيت رئيس الخليّة، وهو خرّيج حديث في كلّيّة الهندسة ومن أصول يساريّة. كانت أسرته تترك لنا الشقّة أثناء اجتماعاتنا، أو ينزوي أفرادها في غرف بعيدة لا نراهم ولا نسمع منهم شيئًا بخلاف بضع طرْقات على الباب، ثم تدخل أخته الصغيرة بمعاونة أخيها الأصغر حاملين المشروبات أو الساندوتشات إذا ما طالت الجلسة. كنت أسمع بعض الكلام عن أبيه الشيوعي الكبير

Twitter: @ketab_n

الذي طال حبسه في الخمسينيّات والستينيّات، وعن أعمامه المناضلين الكبار، لكنّني لم أتأكّد من حقيقة هذا الكلام. كان بيته في نهاية شارع الهرم في منطقة غير آهلة بالسكّان. وكان أحمد يعطيني الموعد همسًا فأذهب بمفردي وأعود بمفردي أيضًا إلاّ في حالات متباعدة عندما كان أحمد يصرّ على أن يصطحبني بسيّارة شاهيناز الصغيرة لتوصلنا حتى مدخل حي الطالبيّة، ثم تكمل طريقها إلى شارع مراد حيث تسكن. هذه المرّات تكون على الأغلب عقب إلقائي قصيدة حماسيّة تعجبهم، أو في حالة عدم اشتراكي في جدال مع شاهيناز خلال الجلسة. بعدما صار ما صار بيني وبين أحمد، كنت أتعمّد الاستئذان قبلهما أو أؤخّر نفسي قليلاً حتى يغيبا عن نظري. في ذلك اليوم كانا قد نزلا قبلي بعدّة دقائق، وكانت تعليمات رئيس الخليّة تقضي بعدم نزولنا مجتمعين، بل فُرادى حتى لا نلفت الأنظار. مجموع خليّتنا لم يكن يتجاوز العشرين فردًا، ونادرًا ما اجتمعنا كلّنا. بمجرّد خروجي من بهو المدخل فوجئت بأحمد الحلو منكبًا على كاوتش السيّارة الأيمن يستبدله وشاهيناز تناوله العدّة الصغيرة. كانت هرولتي إلى الخارج مقدار دفعها أقوى من انسحابي وكانت شاهيناز في مواجهتي. التقت عيوننا وأصبح من المستحيل تجاهلها أو الادعاء بعدم رؤيتها. . اضطررت إلى عرض المساعدة، أشارت بلا تردّد إلى الكاوتش الفارغ المستبدل فوضعته في صندوق السيّارة وأنا أسبّها في نفسي وأنظّف بنطالي وقميصي بانفعال. انتهى أحمد الحلو من الاستبدال وأشار إليّ بالجلوس داخل السيّارة. قطعت شاهيناز تردّدي، وهي تقول لي مبتسمة: اركب انت عايز عزومة الناس بتتفرّج علينا في الشارع. اندفعت مضطرًا إلى مكاني المختار بالكنبة الخلفيّة. سارت بالسيّارة في طريقنا المعتاد بالحوار الرتيب نفسه الذي دائمًا ما يصاحبنا في رحلة العودة. وقفت السيّارة بنا فجأة أمام بناية ضخمة. بوغت أحمد وارتبك وألقى عليها بنظرة جانبيّة لائمة.

Twitter: @ketab_n

(هذه من المرّات النادرة التي رأيت فيها شاهيناز بوجه أسد تواجه أحمد الذي بدا أمامها أرنبًا مذعورًا).

قالت بحدّة: أنت مش هتطلع. أجاب أحمد مرتبكًا: خلّينا بعد ما نوصل مصطفى.

أعادت كلماتها الحادّة: مادام فيه ميعاد يبقى تطلع.

لو كانت بيدي آلة حادّة في تلك اللّحظة لطعنتها بها في ظهرها وأنا أرقص. قلت لأحمد كي أعفيه من الحرج وبغيظ لم أهتم بإخفائه: اطلع ميعادك يا أحمد، وأنا هاخد أيّ مواصلة. نظر إليّ وإليها وقال بانكسار: دا مش ميعاد... سؤال مش هياخد أكثر من دقيقتين وهانزل على طول، ثم أصرّ على ألاّ أغادر السيّارة. التفتت شاهيناز إليّ وقالت بابتسامة جاهدت أن تكون ودودة «أحمد مش هايتأخر» وأردفت بتحدٍّ: بس على الله يرجع بفايده.

غادر أحمد السيّارة مسرعًا كأنّه يهرب من مواجهتها أو سخريتها وانطلق صوب البناية. دقيقتان فقط وعاد أحمد فعلاً، لكن بوجه آخر غير الذي دخل به. وهي لم تدر المحرّك فورًا كما توقّعت. التفتت إليه بجذعها وظلّت تتأمّله مندهشة ثم سألته بحدّة: خير.. ظلّ ناظرًا إلى الأمام متفاديًا نظراتها، وخرجت الكلمات منه بصعوبة: سامح اعتذر. هنا جذبت شاهيناز المفتاح من فوق التابلوه ودسّته في المحرّك وزفرت زفرة حادّة ووجهها يتحوّل إلى وجه دبّ مختنق، لم يخرج من فمها حرف واحد وقادت السيّارة بأقصى سرعة محدثة أصواتًا وجلبة عالية بفعل احتكاك كاوتش العجلات بالإسفلت ومن عادم الشكمان ومن صوت نفيرها الحادّ وصوت الفرامل التي تكبحها وصدى أصوات احتجاج السائقين بالطريق وسبابهم البذيء ودعوات المشاة الذين أفلتوا بأعجوبة من اصطدامها بهم. كنت أقرب إلى الموت ولم يداخلني أمل بأنّني سأنجو تلك الليلة. ولم أعرف من هو سامح هذا، وعمّا اعتذر؟

Twitter: @ketab_n

لكنّني نجوت بأعجوبة على أيّ حال. وتوقّفت السيّارة أخيرًا قبالة مدخل الطالبيّة. تنحّى أحمد لكي أخرج من السيّارة ثم هَمّ بالعودة إلى جوارها، لكنّها سبقته وأغلقت الباب في وجهه وانطلقت بالسيّارة دون إشارة وداع. طيلة الطريق إلى شارعنا مشى أحمد إلى جواري دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ما حدث كان غريبًا ومدهشًا لي، لكنّي لم أعلّق على تصرّفها ولم أطلب منه التفسير أيضًا، ولم يغالبني الفضول حتى أسأله. كانت الإهانة كلّها موجهة إليه، لذا احترمت صمته وسكتّ حتى افترقنا بإيماءات الرأس لا بتحيّة ولا بسلام باليد.

توقّعت أن يمرّ عليّ أحمد صباح اليوم التالي ويفسّر لي ما حدث، وكنت متهيّبًا من أن ينكسر أمامي زعيمي ومنظّري أكثر ممّا انكسر ليلة الأمس. أخفيت شماتة شعرت بها تتسرّب إلى نفسي، لكنّني لم أتمكّن من السيطرة عليها. وهو لم يمرّ عليَّ صباحًا ولم أره لمدّة ثلاثة أيّام متتالية، وكنت محرجًا من أن أذهب إلى كلِّيّة الهندسة لأعرف منه موعد اجتماعنا التالي حتى لا يفهمني خطأ.

سألت عنّي شاهيناز أكثر من زميل حتى وجدتني بحجرة اللجنة الثقافيّة، اضطربتُ بمجرّد رؤيتها وفشلت في ردّ تحيّتها المقتضبة. ذهبنا إلى الكافتيريا وجلستُ بصبر نافد، لكنّها منعتني من طلب الجرسون، قالت إنّها تريدني في أمر مهمّ، في هذه اللّحظة انضمّ إلينا اثنان من زملائنا على المنضدة نفسها، فبان على وجهها الاستياء. نهضتْ وقالت بحدّة أمامهما: تعالَ أنا عايزاك ضروري. استأذنت منهما ووجدت نفسي خلفها عابرًا المناضد المتراصّة وتجمّعات الطلبة حول المدرّجات وفي الأفنية حتى وصلنا إلى باب الجامعة الرئيسي. لزمني الذهول والفضول والصمت. وصلنا إلى الساحة التي تركن سيّارتها بها في المساحة الخالية بين كلِّيّة الهندسة والحرم الجامعي. أقصى ما كان

Twitter: @ketab_n

يدور في ذهني خلال تلك المساحة أنّ حدثًا جللاً وقع بينها وبين أحمد الحلو، وأنّها تريد رأيي، أو شيء من هذا القبيل، وإن كنت أستبعد أن تهتم هذه الشاهيناز برأيي أساسًا، أو تلقي بالاً لحكمي أو رؤيتي أو آرائي. قادت بي السيّارة إلى كافتيريا مطلّة على النيل. كنت أجلس فيها مع هند، ومن المؤكّد أنّ أحمد الحلو كان يجالسها فيها أيضًا. كانت هذه أوّل مرّة أساق فيها إلى الكافتيريا دون أن أعلم سبب اللقاء.

جلست شاهيناز وبادرت الجرسون بطلب اثنين بيرة ستلا دون حتى أن أطلبها من الجرسون كأنّها تتخلّص منه. أشهرت في وجهي سبابتها بادئة الكلام بشرطين، أوّلاً: أنا عازماك ولا تحاول الدفع تحت أيّ سبب من الأسباب، ثانيًا: الموضوع الذي سنتكلّم فيه لن يخرج عنّا أبدًا حتى نفارق الحياة.. ولا تستعيده حتى في أحلامك. ثم وضعت كفّيها الاثنتين على كفّي وقالت بإيماءة آمرة: إحلف بهند الغالية إنّك موافق على الشرطين دول!

انتابتني قشعريرة عندما ذكرت هند بلسانها، ثم أحسست أنّها تحمل جبلاً فوق ظهرها، وأنّني يجب أن أقف بجانبها. أخرجت علبة سجائرها البلمونت (التي كان يدخّنها أحمد الحلو تضامنًا مع البروليتاريا) وأعطتني منها سيجارة. كان الجرسون قد صبّ لنا البيرة فأمسكت بكأسها وتجرّعت منه جرعة كبيرة، فقلّدتها بدافع الشدّ العصبي التلقائي. بدأت شاهيناز تتكلّم وهي مختفية تمامًا خلف دخان سيجارتها. قالت: أنت تعرف أنّ أنا لسّه زعلانة مع أحمد من يوم ما وصّلناك آخر مرّة.

قلت مجاملاً: معقولة!

قالت: على فكرة انت حالف.. هو أحمد ما قالّكش حاجة.

أقسمت بأنّه لم يقل لي حرفًا واحدًا عمّا حدث بينهما.

Twitter: @ketab_n

تنهّدتْ تنهيدة ارتياح، ثم جرعت كمِّيّة أكبر من الكأس، ونفثت دخانًا أشدّ كثافة، وهمّت بالكلام كالتلميذ الذي استنفد مرّات الرسوب وأصبح لا يأبه للأهل ولا للأصدقاء ولا للوم اللائمين. . «أيوا سقطت السنة دي كمان، حدّ ليه عندي حاجة؟».

ألقت بكلامها: سامح ده رابع صاحب ليه يخذله، آخره لما كنّا مع بعض. أكيد سمعت حوارنا.

لم أعلّق. استطردت: كان متّفق مع كل واحد منهم، إنّه ياخُد شقّته يوم. . وكلّهم وافقوا وبعدين اعتذروا بحجج خايبه. . بقيت مش عارفة إيه اللّي بيحصل. . وإيه النحس اللّي ملازمنا.

لم أفهم شيئًا حتى لو أنّ كلامها يبدو مفهومًا. ارتبكت. أحسست بأنّني في دنيا أخرى. كأنَّ ما يحدث أمامي وما تحدّثني عنه شيءٌ خرافيٌّ، وكانت قد توقّفت عن الكلام، فسألتها بغباء: هو انتو عايزين الشقّة ليه؟ واجهتني بحدّة: هو إنت هاتعمل مش عارف. أحمد قاللي إنّك أوّل واحد طلب منه الطلب ده.

أصبحت الرؤية جليّة أمامي. ما كنت أخمّنه وأستبعده بل أكاد ألاّ أصدّقه هو ما يحدث فعلاً. شاهيناز أتت لتطلب منّي الطلب نفسه. كنت محتارًا كيف أتعامل مع هذه البنت التي أمامي: كمنظّرة سياسيّة، كطالبة متفوّقة كما يدّعي أحمد، كمهندسة لها مستقبل واعد أم كداعرة بجحة تبحث عن مكان تخمد فيه نيرانها المتأجّجة في جسدها. رانت علينا فترة صمت طالت، كنت سرحانَ أقلّب الأمر في رأسي. مستحيل أن أوافق لها بعد أن رفضت الموافقة لأحمد. كما أنّ جرأتها أفزعتني فعلاً. هذه الفتاة لا تتورّع عن فعل أيّ شيء. ليس لها سقف كما يقولون. سألتني: كل ده بتفكر؟

أجبت: فعلاً أحمد كلّمني عن الموضوع ده. . وأظنّه قالّك سبب رفضي.

Twitter: @ketab_n

ثم سألتها: هو يعرف إنّك هاتقابليني النهار ده؟

تجرّعت باقي كأسها بتوتّر، ثم أجابت: لو يعرف ما كنتش خلّيتك تحلف إنّ الموضوع هايبقى سرّ بينا. . كان انكسارها مثيرًا لي، وبالرّغم من ذلك همست إليها معتقدًا أنّ كل من بالكافتيريا يسمعون حديثنا. كلّمتها عن محبّتي لأحمد وتقديري لصداقتنا وزمالتنا وقَسَم الأخوة الذي أقسمنا عليه في الخليّة. لكنّني لن أسمح لنفسي باستضافتهما في بيتي حتى لا يظلّ هذا المشهد عالقًا بذهني ويؤثّر على صداقتنا. ثم حكيت لها عن مخاوفي من أبي وأمّي اللذين بدآ يشكّان في سلوكي مؤخّرًا (هذا غير حقيقي).

أوقفتني قبل أن أستطرد ووجهها مختنق. هممت بالنهوض، رجتني أن أجلس وأشرب زجاجة أخرى. رفضت بشدّة، لكنّها أصرّت وجاهدت كي تستعيد ابتسامة صغيرة فارقت شفتيها، وقالت بصوت منخفض والأسى يغالبها إنّها تتفهّم موقفي وتحترمه، لكنّها في حاجة إلى شرب زجاجة أخرى وأن يشاركها أحد الشراب. ضعفت وجلست وكدت أن أهمّ بالموافقة، لكن شيئًا بداخلي ظلّ يلحّ عليّ بأن أستمرّ بالرفض. جاءت الزجاجتان وكلّمتني عن هند قليلاً في حدود معرفتها بها. فلم يلتقيا إلاّ مرّات تُعدّ على أصابع اليد، بالإضافة إلى ما كان أحمد يقصّه لها عن علاقتنا. عاودني الضعف مرّة أخرى لكنّني تماسكت. كانت البيرة قد جرّأتني قليلاً. سألتها سؤالاً مباشرًا فجأة: بصراحة إنتي ليه عايزه كده؟ أنا كنت فاكر أحمد هو اللي الرغبة مسيطرة عليه مش العكس.

أوقفتني بيدها مرّة أخرى وكأنّها تخشى أن تخرج منّي كلمات تجرحها، وقالت بعيون دامعة: أنا مقدرش أتصوّر حياتي بدون أحمد. بانام واصحى وأنا بفكّر فيه. ما دخلتش تجربة حبّ قبله وما اتصورش إنّي ممكن أحبّ حدّ تاني. إحنا بنلاقي بعض في كل حاجة: الأفكار،

Twitter: @ketab_n

العواطف، الهموم السياسيّة. . تعرف يا مصطفى أنا زرته في شقّته وتعرّفت على أهله. ناس طيّبين قوي وبسطاء، بس أنا ما رحتش عشان أتعرّف عليهم. أنا رحت عشان أشوف السرير اللي بينام عليه. الكتب اللي بيقراها. أوّل حاجة بيبصّ عليها في الشارع لمّا يصحى. هدومه الوسخة في طشت الغسيل. . تعرف يا مصطفى لمّا دخلت الحمّام، فضلت ماسكه بإيدي هدومه المنقوعه في الرابسو، وقعدت أشمّها يمكن أقدر أطلّع ريحة عرقه من وسط المعطّر الزفت اللي في الرابسو. في الأيّام الأخيرة ابتديت أحسّ إنّه متلهّف على مسك إيدي وعلى إنّه يلمسني، في صالة السينما، في العربيّة، أو يحضُنّي في المواصلات العامّة. كنت بادوب وأتحيّر. وبعدين ابتديت أقلق. هو عايز منّي إيه بالظبط. . حبّ أبدي ولا جسمي. عايز يركبني وبعدين يدّيني ضهره. ولا عايز يعيش معايا وجوايا للأبد. كنت باموت وأحيا كل يوم وأنا مش قادرة أعرف هو أيّ واحد فيهم. . عارف يا مصطفى تقدر تقول عليّا عاقلة أو مجنونة أنا مالقتش حلّ لينا إلاّ إنّي أديله اللي عايزه. الرغبة اللي بتملأ عينه وهو بيحضنّي. إن كان عايزني وعايز حبّي هايكون دا كل اللي أتمنّاه من قدري، وإن كان عايزني عشان يدوق عسلي ويرحل. . هاكون خدت الطعنة بدري، ويمكن أقدر أنقذ نفسي قبل ما أدوب خالص فيه.

لم أعلّق. لم أقوَ على النطق. وقفت ذاهلاً أمام حبّها الجارف، واختلط الصحيح لديّ بالخطأ. الحقّ بالزيف. كنت أرقبها وهي تتكلّم حتى أحتفظ في ذاكرتي بما يدينها مستقبلاً. لكنّها ألقت على مسامعي سيلاً دافقًا من المشاعر الفيّاضة، أطاحت بكياني كلّه. . غادرت سيّارتها بعد أن فتحت لها صفحة جميلة بقلبي، صرت أستعيدها كلّما ضاقت بي الأمور.

Twitter: @ketab_n

ـ ١٤ ـ

على الباب دقّ السائق دقّات رتيبة قويّة ومتعجّلة، فنهره الحاج حامد الحلو طالبًا منه التمهّل حتى يجهّز من بالبيت أنفسهم، انفتح الباب بعد فترة وظهر لنا عملاق حليق الشارب ذو لحية كثّة، يرتدي جلبابًا أبيض، احتضن والده وقبّل كتفيه باعتياديّة، ثم مدّ يده وهو يتفرّس في ملامحي وتردّد قليلاً، ثم اندفع لاحتضاني وقبّلني في اتجاه وجنتي دون أن يلامسهما ومن أعلى كتفيّ، وظلّ يربت على ظهري بعنف غير مقصود وهو يقول: مصطفى بارك الله فيك يا رجل.. ربّنا يكرمك ويتوب عليك توبة الصالحين. شكرته ونحن نعبر الصالة التي وضعت في منتصفها طبليّة خشبيّة كبيرة خالية من أطباق وعليها آثار طعام يبدو أنّهم رفعوه على عجل. دخل أحمد بنا غرفة صغيرة تستخدم كغرفة أنتريه. ثم استأذن لدقائق. كان السائق قد غادرنا وبقيت مع الحاج بمفردي. جلست متحيّرًا كيف سأواجهه وفيمَ أجادله؟ وهل أنا قادر حقيقة على إقناعه؟

أحمد الحلو الذي قرأ أكثر منّي في مختلف العلوم، وواجه الناس بقوّة، سواء كان واقفًا على المنصّة أو جالسًا بين المتابعين، وقاد الجموع في المظاهرات، وواجه وحشيّة السجون والسجّانين، وتعامل مع حثالة البشر والإليت أيضًا، هل أنا قادر على التأثير فيه أو دفعه إلى تغيير قرار اتخذه فعلاً؟ قطعًا لا.. وستخسر رجاءك يا حاج حامد. بدأ

Twitter: @ketab_n

يداخلني شعور بأنّ مجيئي إليه لن يزيده إلاّ تطرّفًا وغلوًا. بتّ أيضًا أخشى الصمت الذي ظهر عليه وبدا مخالفًا لسمته القديم. لم يكن عملاقًا هكذا، بدت الشرايين والأوردة ظاهرة فوق يده. اكتسى لحمًا واكتنزت عضلاته، وهي سمة غالبة فيهم. لا أعرف تحديدًا ما الذي يأكلونه في تنظيماتهم..! العملقة والنظافة والجهامة التي يحاولون إخفاءها بابتسامات ليست من القلب هي التي تميّزهم جميعًا على اختلاف هيئاتهم!

من الأسباب القويّة التي دفعتني إلى المجيء فضولي لرؤية شاهيناز، لكنّني على الفور أدركت الآن أنّه حلم مستحيل التحقّق. عاد أحمد بصينيّة عليها بعض أكواب الشاي الصغيرة، وناولني كوبًا بعد أبيه. ثم خبط على فخذي بحميميّة قائلاً: ستتغدّى معنا بإذن الله.

اعتذرت بأنّ لديّ موعدًا ووعدته بالحضور مرّة أخرى وأنا على يقين تامّ بأنّني لن أعود ثانية. بدأ الحاج حامد يفتح موضوعًا للحوار بحذر شديد. قال له إنّني أعمل بالصحافة الآن. عندما سمع أحمد بكلمة الصحافة قلب شفتيه استهانة وهو يقول بصوت منخفض: ربّنا يتوب عليه.

لم أعلّق أيضًا وتركت اللعبة تبدأ بين الأب والابن. استطرد الأب كاذبًا بأنّني سألته عن أحمد وعن أحواله، وبدأ أحمد يقول إنّه بخير وعلى ما يرام والحمد لله، ثم سألني عن أحوالي وإذا كنت قد تزوّجت أم لا، عندما أخبرته بأنّي لم أتزوّج بعد، كان سيهمّ بقول الأشياء المأثورة عن أهمّيّة الزواج وأنّه نصف الدين، ممّا اضطرّني إلى المبادرة بالقول إنّني في طريقي إلى الزواج، تبسّم وتمنّى لي الخير، وسألني عنها، فقلت أوّل شيء تبادر إلى ذهني، وكانت مارشا. لكن بمجرّد أن ذكرت اسمها الموحي أنّها أجنبيّة، بدأ يتململ في مكانه كمن لدغه

Twitter: @ketab_n

عقرب، وطلب منّي أن أتراجع عن هذه الفكرة، فإنّ الإمام أحمد بن حنبل قال في حكم دفن النصرانيّة في مدافن المسلمين بأنّها لا تدفن في مقابر المسلمين، فيتأذّوا بعذابها، وإن كان في بطنها جنين مسلم لا تدفن بمدافن الكفّار، فيتأذّى ولدها بعذابهم، وإنّها يجب أن تدفن وحدها. فقد أجمع علماء الأمّة على أنّ الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأنّ ذلك يحدث لروحه، لذا لزم التفريق في الدفن بين مقابر ومثوى المسلمين وغير المسلمين، كان الأب يبدو فخورًا بما يسمعه من ابنه ورأيت أن أنأى بنفسي عن الدخول في جدال عقيم. سكتُّ وظللت أتطلّع إلى الأب الذي عاد بالكلام إلى صلب الموضوع مدّعيًا بأنّني تضايقت جدًّا عندما علمت بخبر استقالة أحمد. قاطعه أحمد ساخرًا وهو يحدّق فيّ: وده يزعلك في إيه يا أخ مصطفى؟ ألا تريد الخير لي؟ أم جئت تنصحني بأن أعمل معكم في تزوير الحقائق والتدليس على الناس.

أحبّ اللغة العربيّة فهي مهنتي، لكن لا أحبّ من ينطقون بها على هذه الشاكلة ويرغبون في العودة بنا عشرات القرون إلى الخلف. تحمّلت الاستفزاز وحافظت على رغبتي في عدم التورّط أيضًا، وقلت ببساطة: أنت مهندس كويّس يا أحمد ما ينقلبش بيك الحال وتعمل صواني بسبوسة.

تغيّر وجه الأب كأنّه ليس من المفروض أن أقول هذا الكلام. وأحمد لم يقدر على كبح جماح حدّته، فكاد أن يصرخ في وجهي، وهو يقول:

أنا حرّ في مصدر الرزق اللي اختاره بعيدًا عن مالكم الحرام وجاهليّتكم المخزية.

Twitter: @ketab_n

قلت في نفسي هذا لا ينفع معه جدال ولا حوار. فلأقل الكلمتين اللتين أريد قولهما وأجري على الله. ربتّ على فخذه وانطلقت في الكلام دون أن أهتمّ بمقاطعاته. نبّهته إلى مستقبل بناته وأسرته، وكيف أنّهم دين في رقبته ليوم القيامة (كان يصرخ في وجهي وهو يقول أنت بتفهم إيه في الدين).. قلت له إنّ من الأفضل له وللجميع أن يفتح محلاً أو ورشة يمارس بها عمله وموهبته بدلاً من عمل البسبوسة والكنافة التي يريد بها تظاهرًا أكثر ممّا يريد رزقًا (هنا توقّف عن اعتراضه وبدأ يسمعني بغيظ).. أكملت: نعم.. أنت تريد أن تعلن لهم في كل لحظة أنّهم السبب في تحويل مهندس ناجح إلى عامل أرزقي.. نوع من الاحتجاج الصامت والسلبي الذي لن يفيد المجتمع، بل سيضيف إليه أعباءً أكثر. ابتسم بسخرية، ثم قال باستفزاز: كويّس.. لسّه حافظ الكلام الفارغ ده.. يا ترى مين اللي كان بيعلمه لك؟

لم ينجح باستفزازه في استدراجي إلى سخافات، وكنت منتشيًا بأنّه عاد إلى اللهجة العامّيّة وخلع قناع التسامح الوهمي الذي يرتديه. فجأة دخلت ابنته الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها أربع سنوات، ولم أكن قد رأيتها من قبل لا هي، ولا أيٍّ من شقيقاتها. كانت الطفلة ترتدي إسدالاً زاهيًا وعلى وجهها تحجيبة خانقة عند الرقبة الغضّة. رمت نفسها في حجر جدّها، ثم التفتت ورأتني. ابتسمتُ لها ومددت يدي فاتجهت نحوي مادّة يدها بالسلام. رآها أحمد تقترب منّي فركبته الشياطين وظلّ يصرخ فيها: أين الله يا فاطمة؟ أين الله يا فاطمة؟

انتبهت الطفلة وارتعدت وظلّت تنظر إلى سقف الغرفة، ثم فرّت بعد أن تمكّنت من لمس أطراف أناملها في مداعبة.. غادرت البنت الغرفة مسرعة وكنت قد اكتفيت بعد هذا المشهد. فأحمد بالنسبة لي وصل إلى عمق غور سحيق ليس بمقدوري الوصول إليه.. بات يخشى على طفلته

Twitter: @ketab_n

من رؤية الرجال. نهضت من فوري معتذرًا للحاج حامد وسلّمت على أحمد بفتور، وانتظرته للحظات حتى يُخْلي لي الطريق. هرولت هابطًا الدرجات القليلة. كنت أختزل برأسي مشهدًا رومانسيًّا قبل أن أصعد إلى شقّة أحمد.. أن أرى شاهيناز وهي محجّبة أو منقّبة أو كيفما تكون توارب باب حجرتها وتقف وراءه حتى تراني خلسة وأنا أغادر الشقّة. مسحت هذا المشهد من ذهني، فما عاد يهمّني أن تراني أو تتذكّرني أو أن تكون لي بها صلة من أيّ نوع: ماضية كانت أو مستقبليّة.

Twitter: @ketab_n

ـ ١٥ ـ

أحبّ هذا المقهى الذي أنا فيه الآن بمنطقة «بين السرايات» ولي ذكريات كثيرة مع كراسيه ومناضده وأركانه ونصبته التي يعلوها سناج الدخان الملتصق بالسقف. كنت أرتاده أيّام الجامعة، لم يكن رحبًا ومتطوّرًا، لكن بعضًا من بقاياه لاتزال موجودة. كان يقع في صفّ مباني حيّ «بين السرايات»، في مواجهة الجامعة. كان هذا الباب يدخلني مباشرة إلى كلّيّة الاقتصاد والعلوم السياسيّة ثم مبنى كلّيّة الآداب. لم يكن بالمقهى آنذاك دور علويّ، ولا فتيات يشربن الشيشة على رصيفه.

أتيت إليه متعمّدًا اليوم. كنت قد خرجت من بيت أحمد الحلو وبي رغبة كبيرة في الاختلاء بنفسي. تناولت كبابًا شهيًّا بمطعم بالهرم وفجأة تذكّرت هذا المقهى وقادني الحنين إليه. كنت أدور بعينيَّ أبحث عن الأركان المفضّلة لزملائنا وأصدقائنا. والمكان الذي كنت أنتحي فيه بهند. كان الأصدقاء يتركوننا بمفردنا نتكلّم دون حساب للوقت ودون حتى أن يلحّوا علينا بحضور محاضرة ما. كانوا متفهّمين لما بيننا. أنا مدين لها بالكثير. قابلتها في أوّل يوم دخلت به الجامعة. وظللت أنظر إليها من بعيد. لم يكن هناك شيء لافت يميّزها. تتبّعتها وهي تنقل جدول مواعيد المحاضرات. لم تكن جميلة بقدر لافت ولا جسدها مصدر فتنة من أيّ نوع. كانت عاديّة جدًّا. وكان قدري يلاحقني. كنت أقف بجوار «البنش» الذي تجلس عليه في أول محاضرة أبحث عن

Twitter: @ketab_n

مكان. استأذنتها في الجلوس بجوارها فابتسمت. «ستظلّ هذه الابتسامة تأسرني حتى مماتي». تكلّمنا ببساطة ودون حواجز قبيل وخلال المحاضرة. غادرنا المدرج معًا. تعرّفنا على مجموعات أخرى من الطلبة والطالبات سويًا. صرنا في غضون بضعة أشهر لا نفترق. كانت بسيطة في كل شيء. في عرض مشاكلها، في قول رأيها مهما كان صادمًا. أعطتني رقم تليفونها بعد أربعة أيّام من تعارفنا وشجّعتني على الاتصال بها. كنت أحيانًا أغيب عن المحاضرات لأزور عصام في كلّيّته أو لأمرّ على أحمد الحلو. فاتني درس قالت عنه إنّه مهمّ. طلبت منها أن تشرحه لي فيما بعد. قالت بابتسامة: وليه بعدين. . أنت تعدّي النهار ده عليّ في البيت أشرحه لك.

لم أعتبر الأمر جادًّا وظننتها تمزح. في اليوم التالي تعمّدت ألاّ تفتح الموضوع، وكنت قد نسيته أساسًا. لكن بعد عدّة أيّام عندما ذكّرتها بوعدها بشرح ما فاتني، عاتبتني بشدّة وأخبرتني بأنّني أحرجتها أمام والديها وخذلتها. دهشت جدًّا فلم أتصوّر أنّ الأمر جادّ إلى هذه الدرجة. كما حيّرني أن تكون كل عائلتها بانتظاري. قالت ببساطة: إنّ عائلتها تريد رؤيتي بعد أن حدّثتهم كثيرًا عنّي. لم يكن هناك ما يمكن أن يقال عنّي وأنا في بداية دخولي الجامعة، لكنّي لم أعلّق وأعطيتها موعدًا آخر، وذهبت.

استقبلني الأب ببشاشة وجلس معي قليلاً نتداول أمور الحياة. رحّبت بي الأم بابتسامة ودود، وظلّت تروح وتجيء بعيّنات حلويات كثيرة كي أتذوّقها وأُبدي رأيي فيها. لعبت مع أخيها الأصغر حسام ـ وكان في الإعداديّة ـ لعبة بلاستيكيّة عبارة عن ملعب كرة قدم به فريقان وكانت الكرة خشبيّة في حجم حبّة الحمّص الكبيرة، ولكي تحرّكها عليك أن ترجع اللاعب إلى الوراء بأصابعك بعد أن تكون الكرة قد سقطت في حفرته ثم تتركه فيدفع بقدمه الكرة. وكانت أختها الكبيرة

Twitter: @ketab_n

سوسن الموظّفة بوزارة الماليّة تتباسط معي وتحكي لي عن فترة دراستها الجامعيّة بكلّيّة التجارة، بينما هند تجهّز غرفتها لاستقبالنا. وعندما انتهت جذبتني من يدي كي أنهي اللعب مع حسام واعتذرت لسوسن بأنّ أمامنا مذاكرة طويلة. تقدّمتني إلى غرفتها البسيطة وكانت قد وضعت الكتب والكشاكيل على سطح المكتب، بجوارها كوبان من الشاي وضعتهما متقابلين. كنت أنظر لحوائط الغرفة المزيّنة برسومات بسيطة وأقوال مأثورة، وكانت ترقبني وهي تبتسم. التفتّ إلى الجدار الذي خلفي فرأيت عليه فرخًا من الورق المقوّى مكتوبًا عليه بالقلم الفلوماستر العريض بعض أبيات من قصيدة «لا تصالح» للشاعر أمل دنقل. وقفت باهتمام واقتربت أكثر كي أقرأ. كنت أقرأ بيتًا بصوت عالٍ وتكمل هي ما يليه:

لا تصالحْ

ولو توّجوكَ بتاجِ الإمارهْ

كيفَ تنظرُ في يدِ مَنْ صافحوكَ

فَلا تُبصرُ الدمَ في كلِّ كفّ

إنّ سهمًا أتاني من الخلفِ

سوف يجيئك من ألفِ خَلفْ

فالدمُ الآن صارَ وسامًا وشارهْ.

لا تصالحْ..

ولوْ قيلَ إنَّ التصالحَ حيلهْ

إنّه الثأرُ

تبهتُ شُعلتُهُ في الضلوعِ

إذا ما توالتْ عليهِ الفصولُ

Twitter: @ketab_n

ثم تبقى يدُ العارِ مرسومةً بأصابِعهَا الخمس

فَوقَ الجباهِ الذليلَهْ

انتهينا من القراءة، سألتني باهتمام: عجبتك؟ قلت مسرعًا: طبعًا، وحافظها كلّها. بان على وجهها الرضا. هذا الجوّ الحميم والقصيدة ومشاعر غامضة تأخذ طريقها نحو الوضوح، كل هذا ملأني بشحنة وجدانيّة، فلم تعد بي رغبة في الاستذكار والمطالعة. كانت هناك شرفة متوسّطة الحجم ملحقة بغرفتها. وفي الشرفة أرجوحة يهدهدها الهواء القليل، سألتها: بتاعتك ولاَّ بتاعة حسام، ضحكت وقالت: كانت بتاعت سوسن وبعدين بقت بتاعتي ودلوقتي أخدها حسام.. ثمّ أكملت بهمس: تحبّ تقعد فيها وأمرجحك، ابتسمت وقلت: يا ريت، صدّقت هند أنّي أرغب فعلاً في ذلك، فهمّت بالتحرّك. أمسكت بيدها وأجلستها، بدأت في فتح الكتاب والشرح لي بإخلاص وجدِّيّة، وكنت غير مستوعب لشيء. فجأة قامت وواربت الباب وهي تهمس لي: اشرب سيجارتك، أنا عارفة إنّك مش عارف تركّز من غيرها.. قلت لها: ما يصحّش.

ضحكت ضحكة رقيقة وهي تقول: ما تخافش ما حدش هايدخل علينا وإحنا بنذاكر. شربت السيجارة متعجّلاً، وهي واقفة إلى جوار باب الشرفة، وبيدها منشفة تطارد بها دخان سيجارتي حتى غادر الغرفة. خرجتْ بالكوبين لتغسلهما من آثار طافية السيجارة. بدأ بعد ذلك حسام يدقّ علينا الباب كل فترة ويدخل بفاكهة وسندوتشات وبشاي آخر. مرّ الوقت سريعًا. تركتني هند أرحل بصعوبة، سلّمت على والدها الذي كان يحلّ الكلمات المتقاطعة بجريدته المفضّلة، فنهض وشدّ على يدي بودّ وطلب منّي أن أهتمّ بهند في الجامعة، وأن أحضر كثيرًا كي أذاكر معها. في الحقيقة لم يتكرّر هذا اليوم كثيرًا. كنت أذهب إليها على فترات متباعدة. هذا الاهتمام غير العادي من

Twitter: @ketab_n

أسرتها كان يخجلني ويقلقني، وكنت غضًّا صغيرًا لا أعي كثيرًا من أمور الدنيا. لكن بقيت هذه الأسرة البسيطة عالقة بذهني كذكرى نبيلة حتى الآن.

أنا وهند غدونا صديقين ثم حبيبين دون أن نصرّح بحرف واحد من مشاعرنا.. وأنا اختزلت العالم كلّه في نظرة عينيها، وهدبيها الكثيفين الفاتنين.. عودها النحيل.. ابتسامتها التي تشبه قطعة اللؤلؤ فور اكتشافها داخل المحارة.. وعينيها السوداوين وأنفها المميّز.. أحببت حتى وحمتها التي تشبه النبقة الصغيرة أعلى صدغها الأيمن تتوسّط المنطقة التي بين نهاية حاجبها وأذنها.

بالرّغم من أنّ عصام ومن بعده أحمد الحلو هما أوّل من قرأ أشعاري، إلاّ أنّ هند كانت أوّل من تذوّقها. فتحتْ كشكولي بالمصادفة فوجدت به قصيدة مضت تلتهمها بعينيها وأنا أراقبها بخجل. جرت بها بكل حيويّتها المتدفّقة لتريها كل أفراد شلّتنا. كنت في منتهى الخجل كمن انكشفت عورته. أثنى عليها الزملاء ولم أقتنع برأيهم، فهم لم يقرأوا حرفًا في حياتهم عدا الكتب الدراسيّة. اعتادت أن تطلب منّي ما أكتبه كل يوم، وتصرّ على تفتيش كشكولي حتى تجد قصيدتي الجديدة وتفرح بها فرحة الأم بطفلها الوليد. صرت أرسل إليها رسائل مدغمة في قصائدي. فلو ضقت ذرعًا بتصرّف ما، أدوّن تصرّفها شعرًا في قصيدتي وأرقب بسمتها وهي تندهش أوّلاً ثم تتذكّر ما ضايقني. ولو راقني منها موقف تخرج قصيدتي فرحة جذلة. (في تلك المرحلة من العمر لم يكن ما أكتبه «قصائد» بالمعنى المعروف بل كان أشبه بالخواطر).

كانت هند شعلة نشاط. تشارك وتتعاون في أنشطة متعدّدة. فهي عضو عامل بفريق الجوّالة وجمعيّة أنصار المسرح، وجمعيّة محبّي الصحافة ومقرّرة أسرة أحبّاء مصر. بذلت ما في وسعها حتى شاركت

Twitter: @ketab_n

بقصائدي في معرض للتصوير الفوتوغرافي مع طالب فنّان من طلبة السنة الثالثة. صرت مزهوًّا بنفسي معتزًّا بجهودها معي.. أنا الطالب الذي لم تتعدَّ فترة وجوده بالجامعة الشهور الأربعة أشارك طالبًا مخضرمًا في معرض واحد.. انتقت بنفسها قصائد المعرض وكانت تحضر في الصباح الباكر وتقودني قسرًا لاستقبال زائري المعرض. اشترت أوتوجرافًا فاخرًا ليوقّع عليه الزائرون، ويكتبوا انطباعاتهم عن القصائد.. (مازلت أحتفظ بالأوتوجراف حتى الآن وأموال العالم كلّه لا تعادل صفحة من صفحاته).. كلّما فتحته وجدت كمًّا من الكلام المدهش الجميل العفوي عن قصائدي، التي كنت حتى قبيل المعرض بيوم واحد أعتبرها شيئًا تافهًا.. جعلتها هند شيئًا ذا قيمة.

كنت مثل السائح الذي هبط لأوّل مرّة في مدينة لا يعرفها من قبل. أرتني هند من النشاطات الطلابيّة الكثير. حفلات غنائيّة، مسرحيّات من بطولة الطلاب، بعض الجولات والرحلات مع فريق الجوّالة.

هند كانت تسكن بشارع خيرت في منطقة لاظوغلي وكنت أسكن في الطالبيّة. حدث اتفاق ضمني بيننا لا أعرف بالتحديد متى بدأ لكنّني أعرف متى توقّف. كانت تستقلّ المواصلات حتى ميدان الجيزة حيث نلتقي ونسير معًا حتى الجامعة. وفي العودة نفترق عند ميدان الجيزة حيث تركب الأوتوبيس الذي يوصلها لميدان لاظوغلي، وكنت أحيانًا كثيرة أصرّ على توصيلها حتى بيتها فتوافق بعد تردّد. وفي نصف المسافة كانت تطلب منّي النزول لنكمل المسافة سيرًا على الأقدام. ثم بدأت تصرّ على نشر قصائدي في الصحف والمجلاّت. لم أكن متأكّدًا من مستوى أشعاري، وهل هي تصلح للنشر؟ عاندتها كثيرًا ورفضت بإصرار حتى جاء يوم وأخرجت من حقيبتها مظروفًا وطابع بريد ودسّت قصيدتي الجديدة التي كنت أعرضها عليها داخل المظروف وكتبت عنوان صحيفة كانت تحتفظ به في حقيبتها. ألصقت الطابع وأغلقت

Twitter: @ketab_n

المظروف بلسانها (أبيع عمري الآن مقابل هذا المظروف). لم تبال باعتراضي وافتعالي الغضب. سحبتني من يدي حتى صندوق البريد الموجود في حرم الجامعة وألقت به داخله دون أن تأبه لي. أسبوع أو أسبوعان مرّا وقابلتني في ميدان الجيزة وبيدها شنطة بلاستيكيّة إضافية يبدو عليها من الخارج أنّها خاصّة بالملابس. سألتها عمّا بداخلها. ردّت بابتسامة: جايبالك بيجاما عشان لمّا تذاكر عندنا تبقى براحتك، صدّقتها فأنا أكثر شخص بالعالم يعلم أفعالها الجنونيّة. جلسنا بالكافتيريا وظللنا نتحدث حتى اكتملت شلّتنا وتجمّعت، ثم جاء أيضًا بعض أصدقائها وصديقاتها من فريق الجوّالة. أصبحنا أكثر من اثني عشر شابًا وفتاة. تصوّرت أنّه عيد ميلاد إحدى زميلاتنا وستعطيها هديّتها أمامي ويصبح منظري سخيفًا. وكان هذا موقفًا محرجًا منها نويت أن أؤنّبها عليه. أخرجت من حقيبة البلاستيك مجموعة كبيرة من صحيفة واحدة بالصفحة الثامنة منها قصيدتي ممهورة باسمي الثلاثي بالنبط الأسود العريض. كنت أقلّب عيني ما بين سطور قصيدتي التي لم أصدّق حلاوتها إلاّ وأنا أرى تأثيرها على وجه هند المتدفّق بالحيويّة والفخر. كان هذا أوّل وأجمل إعلان حبّ تقدّمه فتاة لشاب من وجهة نظري، وأعتقد أنّي لن أحصل على مثل هذه المكافأة مرّة ثانية حتى ولا في حياة أخرى. احتفلنا بمشروبات متنوّعة وأصرّت أن تدفع هي ثمنها. بدأ الزملاء في طلب القصيدة وكانت الصحيفة غير مهمّة لهم، فأعلنوا أنّهم لا يريدون إلاّ الصفحة التي بها القصيدة. انحنت هند على المنضدة وبيدها مسطرة صغيرة وبدأت في نزع الصفحة من الصحيفة، ثم تناولها لي لأكتب عليها إهداءً وأوقّعها ثم أعطيها لزميل طلبها. كان القلم يرتعش بيدي والزملاء يستحثّونني على التوقيع لهم والفرحة غامرة، وفي الوقت نفسه كنت أرقبها بحالة من الشجن والحبّ لم تحضرني مسبقًا وهي منهمكة في تسوية الصفحة المنتزعة بحرص وتأنٍّ،

Twitter: @ketab_n

وقبل أن تعطيها لي تنظر إلى اسمي مرّة أخرى وتبتسم كأنّها تخشى أن تفاجأ بأنّ عددًا ما منها محذوف منه اسمي. . لم نحضر محاضرات في ذلك اليوم احتفالاً بما حدث. فقط استأذنتني بضع دقائق كي تعطي بعض النسخ للأساتذة المقرّبين، كانت مصرّة أن أصطحبها مساء إلى البيت لأعطي أهلها الصحف، بعد أن أكتب إهداء لكلّ منهم، وكانت قد احتفظت بنسخة لي وخمس نسخ لحسام وسوسن والأم والأب ولها.

غادرنا الجامعة ظهرًا وتغدّينا بالخارج وشاهدنا فيلمًا سينمائيًا ثم عدنا إلى الجامعة مرّة أخرى لحضور مسرحيّة من بطولة بعض زملائها من جمعيّة أنصار المسرح، بعد المسرحيّة دخلت دورة المياه تأهّبًا للمشوار الطويل الذي كنّا سنقطعه حتى أوصلها لبيتها، ثم أصعد معها بناء على رغبتها. كان منظر الحمّام، واليوم يوشك أن ينتهي، سيّئًا جدًّا. الماء المتساقط من صنابير المباول المفتوحة والممتزج ببول الطلبة مع الماء الصافي المتساقط من الأحواض ومن المتوضّئين والمعجون بتراب أحذية الطلبة ونعالهم المختلفة جعل الأرضيّة شيئًا قميئًا. أضف إلى ذلك الروائح القذرة المنبعثة من تراكم الفضلات. دخلت كابينة الحمّام الأخير متصوّرًا أنّه سيكون الأنظف، قابلتني القذارة والروائح السيّئة نفسها. كانت قاعدة التواليت مكسوّة بورقة من جريدة كي تحمي مؤخّرة الجالس من القذارة. الورقة تكاد تكون ذائبة من الماء لكنّها بدت لي مألوفة، وليست غريبة عنّي. . رفعتها بأطراف أصابعي، فإذا بي أطالع فيها قصيدتي التي أمضيت نصف صباحي في إهدائها إلى الطلبة. بحثت كالمجنون عن الإهداء كي أبطش بمن فعل هذه الفعلة. وجدت الإهداء منزوعًا منها، فتأكّدت أنّه فعل ذلك عامدًا ولم يكن مزنوقًا في ورقة تحمي مؤخّرته ومؤخّرات مَنْ بعده. لم تعد بي رغبة في الحمّام. عدت إليها شبحًا وفرحة اليومْ كلّه انسحبت من

Twitter: @ketab_n

وجهي.. فزعتْ بمجرّد أن رآتني. ظنّت أنّني مرضت فجأة. جرّتني جرًّا إلى الكافتيريا وطلبت كوب ليمون من العامل قبل أن يقفلوا. جلست منهكًا.. ثم تناولت الليمون بسرعة. تركتني صامتًا ولم تلحّ في معرفة ما بي. كانت تتفحّصني بقلق. همّت بأن تسندني وأنا أخرج من الجامعة. تماسكت وقلت لها أنا بخير. همّت بطلب سيّارة أجرة كي توصلني. لمحت زميلاً لنا على وشك إدارة محرّك سيّارته فأشارت إليه. أمسكتُ بيدها قبل أن يلمحنا، وقلت لها مؤكّدًا بصوت حادّ: أنا كويّس. ارتعشت خائفة. كانت أوّل مرّة صوتي يعلو عليها. انكمشت وتراجعت. ضميري أنّبني فضغطت على يدها. ابتسمت ابتسامة شاحبة. قلت لها بوهن: نتمشى لحدّ ميدان الجيزة.. حدّقت في وجهي، ثم قالت بتردّد: إنت لسه تعبان؟! حرّكت رأسي نافيًا. سرنا حتى نصف المسافة وعلى سور كلّيّة الزراعة جلسنا نستريح.. خمّنتْ أنّ شيئًا يضايقني. طلبت منّي أن أتكلّم. كان همّ كبير في صدري أخشى أن أختنق به وأموت. أحسست لحظتها أنّ ما حدث لي متعمّد بمثابة إهانة لا تغتفر واستهانة شديدة بي وسخرية قذرة منّي. سرنا مرّة أخرى وأنا أحكي. مع كل توغّل في الحكاية كانت عروق رقبتها تنفر. كنت قد كوّرت الورقة البالية وكانت في جيبي، أخرجتها وفردتها أمام عينيها لتراها دون أن تتلوّث يدها. جذبتها منّي وتفحّصتها في ذهول، ثم بكت بكاءً شديدًا مرًّا. وظلّت تؤنّب نفسها على أنّها أفسدت فرحتي بأوّل قصيدة تنشر لي. جاهدت كي أنزع من رأسها هذه الفكرة. لكن هيهات! نسيت جرحي وألمي وبدأت أشفق عليها. استطعت أن أهدّئها بعد جهد. غادرني غضبي وعصبيّتي وشعوري بالإهانة، وحلّ خوف عليها وتوتّر وقلق ممّا قد تفعله بنفسها وهي تظنّ أنّها السبب فيما حدث. وصلنا إلى المحطّة. التفتت إليّ وعيناها مازالتا دامعتين وطلبت إليّ برجاء وتوسّل وتضرّع ألاّ أكتب إهداءً لأحد بعد الآن مهما كان

Twitter: @ketab_n

عزيزًا أو قريبًا أو مهمًّا، فقد تدور الأيّام وينقلب عدوًّا لك ويهين إهداءك. ثم وضعت يدها على يدي وطلبت منّي أن أقسم على ذلك. ابتسمت وذهني يتوقّد. ما كل هذه الأحلام الجميلة يا هند؟ هل ستصبح لي كتب ودواوين أهديها أو يرغب الناس في أن أهديها إليهم، ولماذا تتعاملين مع كتاباتي كأنّها أمر واقع وكأنّك تنظرين إلى المستقبل مباشرة بدون كرة بلُوريّة. جاريتها وأقسمت، ثم استدركت: ما عدا أنت طبعًا!

نظرت إليّ معترضة وقالت: أنا أوّلهم. . اللي انت بتكتبه ده لا ملكك ولا ملكي. دا ملك اللي هايقرا ويحترم اللي بيقراه. .

أذهلني كلامها الكبير فلم أنطق. لمحتْ الأوتوبيس قادمًا من بعيد فودّعتني. قلت بدهشة: إحنا مش متفّقين أروّح معاكي أدّي الجرايد لعيلتك؟

قالت بحزم: أنا اللي هادّيها لهم. . من غير ما تكتب حرف يخصّ واحد منهم. إحنا مش اتفقنا ماتهديش حاجة لْحَد.

فارقتني في ذلك اليوم وعندما افترقنا بعد ذلك لم أهدِ أيّ ديوان من دواويني لأيٍّ كان. . صغيرًا كان أم كبيرًا. مهمًّا كان أو تافهًا. باستثناء ديواني الأوّل الذي صدر من بيروت وعليه إهداء مطبوع لها مع رجاء بألاّ يغضبها هذا.

أغلب أيّام امتحانات السنة الأولى كنت أذاكر معها بناء على رغبتها وإلحاحها. حاولت بخبث إشراك أكثر من زميل وزميلة معنا. عاتبتني بحدّة، وهي تقول: إنت تعرفهم كويّس. تفتكر هايفهموا صحّ؟ وبعدين دول هايعطّلونا. . رغي. . رغي.

أدركت حينئذ أنّنا خلقنا لبعضنا، وأنّها متيّمة بي بالقدر نفسه. أثناء إجازة الصيف التي قضتها بين معسكرات الجوّالة وفي المصيف مع

Twitter: @ketab_n

أهلها. كنت أغامر كثيرًا حتى أراها وأجالسها بضع ساعات محتملاً الاقتراض المذلّ من شقيقتيّ، أو من والدي بعد الخضوع لتحقيق عن أسباب ودواعي السفر وأهمّيّة النقود التي أحتاجها. كانت قد طلبت منّي كثيرًا الانضمام إلى فريق الجوّالة لكنّني لم أحبّذ الفكرة. كنت أتمنّى أن ألازمها إلى الأبد لكنّني استسخفت فكرة القفز بالحبال وإضاعة المجهود في إحكام أوتاد الخيمة والسمر حول راكية نار أنشد بحماسة «شوما لك.. بوما لك..». كان لديها حلم جميل بأن تجوب كل محافظات مصر وكان انضمامها إلى الجوّالة في رأيها بداية لتحقيق هذا الحلم. كنت أيّامها أعيش بشخصيّتين فقط. شخصيّة معها تلازمها وتحبّها وشخصيّة أخرى لاهية مع عصام وأحمد الحلو وفريد.

أقنعها الزملاء مع بداية العام الدراسي الثاني أن ترشّح نفسها للجنة الفنّيّة، كنت محايدًا لم أُبدِ اعتراضًا أو حماسًا. كنت أرى شعبيّتها في ازدياد ممّا أقلقني وأشعرني بالخوف من أن يقتحم حياتها غيري. لم أتخيّل أو أتصوّر أن تنجح هند في انتخابات الجامعة باكتساح، وتتفوّق حتى على طلاب ينتمون إلى الجماعات الإسلاميّة المحترفة. لم أسهم في نجاحها إلاّ بكتابة بعض اللافتات، ولم أكتب أشعارًا حماسيّة تؤيّدها كما حاول أحمد الحلو أن يقنعني بذلك. للحقيقة وللتاريخ كان لأحمد الحلو دور مميّز في اليومين السابقين على التصويت النهائي، بالوقوف مع طلاب الدفعة وشرح دواعي انتخابها ومميّزاتها العمليّة والخدميّة. كنت معها وكأنّني من كوكب آخر، أهيم حبًّا وشغفًا بكل حركة من حركاتها، لكنّني لا أشارك إلاّ بصوتي اليتيم الذي أعطيتها إيّاه. لم أتأثّر ظاهريًّا بانشغالها المؤقت بعضويّة اللجنة وتنظيم النشاط الفنّي على مدار السنة الدراسيّة كلّها، ولم أشغل نفسي بنميمة الزملاء والزميلات لجلوسي بمفردي أو معهم دون مشاركة، أو بجوارها وهي توقّع موافقات إقامة الحفلات وتصاريح نشر صحف الحائط

Twitter: @ketab_n

والإعلانات التنويهيّة للبرامج الفنّيّة.. كان عصام مشغولاً بتجربته الجديدة مع الموديل وكان قد دخل في علاقات متعدّدة بدعوى أنّه فنّان بوهيمي عدمي، وانشغل عنّي تمامًا فلم يبقَ بجواري غير أحمد الحلو. الذي بدأ يؤثر عليّ تنظيميًّا. فشاركت بالتظاهرات المختلفة وحضرت الندوات الفكريّة الجادّة سواء بالحرم الجامعي أو بكلّيّة الهندسة، وكنت أنأى بهند عن أن تشاركني مظاهرة أو تحضر ندوة قد تثير حولها لغطًا، وتؤثّر على موقفها كعضو لجنة منتخب. لكنّ الأخبار لا تختبئ كثيرًا. علمت بمشاركتي، وأخبرتني ذات مرّة وأنا أذاكر معها في بيتها أنّ ما أفعله جميل وأنّها تتمنّى لو كانت تشاركني به. فقلت لها إنّ خدمة الطلبة من خلال موقعها قد تكون أجدى ممّا أفعله. تبسّمت ونظرت إليّ بحبّ وقالت بأسى: ما افتكرش.. ثم لم نتطرّق إلى هذا الموضوع مرّة أخرى.

كنت أحبّها جدًّا وهي تنتهز الفرص لتراني وتمازحني أو تطلب منّي بخجل أن أحضر إلى بيتها لأذاكر معها، في محاولات لتعويضي عن الفترة التي غابت عنّي فيها، كل هذا كان يزيدني غرامًا بها.. ولم أكن بحاجة إلى تواجدها المتعيّن. فهي تتخلّلني كلّيّة. في نومي وصحوي. في سيري وتوقّفي. كل التفاصيل الرومانسيّة الدقيقة التي قرأتها في الكتب فيما بعد كانت تحدث لي معها.

كنّا نسير في طريقنا إلى ميدان الجيزة وقابلتنا إحدى زميلاتها من عضوات الجوّالة في كلّيّة أخرى، لم أكن أعرفها من قبل. فسلّمتُ عليها وتقدّمتُ خطوات ريثما تنتهيان من حديثهما. كانت تصلني كلمات هند تعرّفها بي هامسة على أنّي خطيبها وأنّنا سنرتبط رسميًّا في نهاية العام. سمعت صدى قبلات التهنئة لهند وأنا منتشٍ حائر، من أين أتاها هذا اليقين. كنت فعلاً عازمًا على خطبتها في نهاية العام رغم ظروف أبي الصعبة في تلك الأيّام، فقد كان يجهّز أختي الكبرى

Twitter: @ketab_n

محاسن بعد أن أضنانا خطيبها بتقاعسه وقلّة حيلته، فتحمّل والدي أغلب التكاليف حتى يتمّم زواجهما. وكانت أختي التالية رضا مخطوبة أيضًا، وخطيبها لا يقلّ عن الأوّل انتهازيّة وَضِعةً وفقرًا، وغالبًا سيتحمّل أبي تكاليف زواجها أيضًا. أمّا اعتراضاتي على هاتين الزيجتين فقد ذهبت سدى، لأنّهم كانوا يعتبرونني الأخ الصغير الذي لا يرى ما يرونه، ولنظريّة سترة البنات التي تعتنقها أمّي وأقنعت بها أبي. وكان مجرّد طلبي أن أخطب وأنا بالعام الثاني بالكلّيّة غالبًا ما سيرفض ويقابل بعواصف ورعود وسخرية مريرة من أبي. . فمحاسن ورضا وهنّ بنات لم يُخطبا إلاّ بعد انتهاء دراستهما المتوسّطة. اعتمدت على أمّي في إبلاغ أبي والضغط عليه بأنّ خطبتي لهند لن تكلّف كثيرًا، وأنّني لن أتزوّج إلاّ بعد تخرّجي. وبعد إلحاحي الكثير طمأنتني أمّي بأنّها ستخبر والدي بعد نجاحي في نهاية العام. فركنت إلى وعدها مطمئنًا.

قال أحمد الحلو وهو شارد: خبر كويس. . بس انت مستعجل ليه. وبعدين مش يمكن خطوبتك لهند تأثّر عليك وتشغلك عن اللي بيدور في الوطن الأيّام دي!

رغم أنّ عصام لم يرها كثيرًا إلاّ أنّه شجّعني بحرارة، قائلاً: كده أحسن. . دي بنت كويّسه وبتحبّك. ودا أحسن ما تعمل زيي وتخرج من حبّ لحبّ وانت مش قادر تحدّد مين اللي تنفع لغاية لمّا تعنّس.

كان الجوّ شتويًا خالصًا. السماء فوق الجامعة رماديّة كئيبة، وبين الحين والآخر تسقط بعض قطرات المطر الصغيرة، فنعدو إلى داخل الكافتيريا محتمين بسقفها وجدرانها الزجاجيّة، ثم بالكاد تتسلّل أشعّة الشمس، فنعاود الخروج ونجلس أسفل مظلات المناضد. . ملابسي الشتويّة البسيطة لم تكن كافية لحمايتي، وكنت منشغلاً بفتح سترتي وإغلاقها طبقًا لدرجة الجو محتضنًا بكفي كوب الكاكاو الدافئ. كان الزملاء يتغيّرون على منضدتي متّجهين إلى محاضراتهم أو مواعيدهم،

Twitter: @ketab_n

وأنا بانتظار هند المنشغلة بفرقة الجوّالة لتحديد خطّة العمل وجداول إجارة نصف العام التي كانت على وشك الحلول. تقابلنا في الصباح وكان الجوّ جميلاً وذهبت معها إلى حيّ المناصرة المتخصّص في بيع الموبيليا والأثاث المنزلي، لتنتقي مكتبة تنوي وضعها في بيتها، وقالت إنّها ستخصّص بها ركنًا لمؤلّفاتي مستقبليًّا. كانت هند تحبّ كثيرًا الدخول إلى محلات الأثاث بصحبتي. وتنتقي وتختار وتفاصل في أسعار غرف النوم وغرف الأولاد والنجف والستائر والمطابخ.. ثم بعد أن تجهد البائع في الحسومات تطلب تخفيضًا آخر بدعوى أنّنا عريسان في بداية الطريق.. كان البائع يتجه إليّ ويشدّ على يدي مهنّئًا ثم يعطيها تخفيضًا آخر لا تقبله. فتعتذر له وهي تَعدُه بالعودة إليه لو وجدت أسعاره أرخص من أسعار المحالّ الأخرى، (وكنّا حتى تلك اللحظة لم نقل حرفًا لبعضنا بعضًا حول الحبّ أو الزواج). مجادلتها مع البائعين لم تكن تسرّني مطلقًا، ولم ألمّح لها أبدًا بأنّ هذا يضايقني. فرغم كلامها عنّا الذي كان يدغدغ أحاسيسي، لكنّني في كل مرّة نترك فيها البائع محبطًا، كنت أمشي مستاء.

تحوّلت السماء إلى كتلة رماديّة ودوّى رعد وبرق، برقٌ خاطف توالى بعده هطول سيل من المطر.. عدوت إلى داخل الكافتيريا متردّدًا بين أن أجتاز الفناء بسرعة، وأنا أصعد مُبتلاً إليها، وبين أن أندسّ بين الزملاء في أيّة محاضرة حتى تنتهي هند ممّا يشغلها عنّي، أو أن ألزم مكاني حتى تتذكّرني وتنزل. كان مستوى الرؤية صفرًا والضباب على مستوى أجسادنا أسودَ رماديًّا كئيبًا، فبدا مَنْ يفرّون أمامي في فناء الكلِّيّة مجرّد أشباح يهربون من المطر. توقّف أحدهم على مبعدة منّي محدّقًا في وجهي طويلاً وغير مبالٍ بوابل المطر النازل عليه، ثم بدأ يغيظني مشوّحًا بيده تجاهي وهو يخرج لي لسانه، وعندما أدركت أنّه خليل كان قد اختفى.. وأصابتني رجفة حتى خَفُتَ المطر قليلاً، ثم

Twitter: @ketab_n

عاد دويّ الرعد كصوت قنابل تنفجر. ونحن محتمون بداخل الكافتيريا وصلتنا أصوات صراخ وعويل، ورأيت طالبات وطلبة يندفعون ناظرين إلى أعلى. . خرجنا كلّنا من الكافتيريا ننظر باتجاه مبنى الكلِّيّة. كانت نوافذ الدور الثاني مفتوحة كلها، تطلّ منها وجوه فتيات مذعورات وشبّان يستنجدون. . جريت مع بعض الطلبة مخترقين بوّابة المبنى. فقابلتنا وجوه مذعورة وازدحام غير طبيعي بالدور الأسفل. بالكاد اخترقت صفوف الطلاب الهابطين متجهًا صوب الدور الثاني حيث مقرّ الجوّالة. رأيت دماءً كثيفة وجرحى ينزفون بغزارة ولم أتبيّنهم ثم دخلت في إغماءة. أفقت وأنا جالس على الدكّة الخشبيّة أمام المبنى وبجواري فتاة كانت قد أفاقت قبلي بقليل. كانت تنهنه وتبكي ولم أفهم منها شيئًا. لمحني رئيس الاتحاد فاقترب مني وأخذني تحت إبطه وأدخلني معه سيّارة الكلِّيّة. كان الزملاء الراكبون يضغطون على يدي ويربتون على كتفي ولم أجرؤ أن أسألهم عمّا حدث خوفًا. التفت إليّ رئيس الاتحاد ونحن بالقرب من مستشفى الهرم وقال: بسيطة بإذن الله. . زميلتنا هند هاتبقى زيّ الفل. . أنا شفتها بعيني بعد الانفجار بتساعد زملاءها.

كانت المستشفى التي أُعلنت فيها حالة الطوارئ مليئة بالطلبة والطالبات وبعض أولياء الأمور. ولم يسمحوا لنا إلاّ بالانتظار في المدخل. قالوا إنّهم يجرون بعض العمليّات البسيطة وطمأنوننا. كنت أغيب عن الدنيا وأعود لأجد وجوهًا غير الوجوه تجلس بجواري. قبيل المساء وجدت أحمد الحلو وشاهيناز بجواري بعد أن وصلهما الخبر في كلِّيّة الهندسة. في المساء طردتنا إدارة المستشفى بحجّة عدم إزعاج المرضى. لم أعد إلى البيت، استضافني أحمد في شقّته المتواضعة. لم أنم. كان أحمد يخرج كثيرًا ثم يعود، مرّة يستأذن أبي. ثم يحضر طعامًا. ثم يكلّم شاهيناز من الهاتف العمومي. وأنا لم أنم. . ولم

Twitter: @ketab_n

أبكِ. بداخلي شعور يفوق الحزن والألم. أغمض عينيّ كل بضع دقائق متصوّرًا أنّني سأصحو وكأنّ شيئًا من هذا لم يحدث. في الصباح الباكر جلست بمدخل المستشفى، أنا وأحمد الذي غاب عنّي ثم عاد بدموع حبيسة يخبرني بأنّ هندًا ماتت، لكنّني لم أصدّق هذه الأكاذيب، ولم أسمح لأحد أن يدّعي ذلك أمامي. . احتاج الأمر منّي شهورًا طويلة كي أعود إلى حالتي شبه الطبيعيّة وثمّة شيء فيّ قد اختلف. كنت قد حضرت جنازتها وفعلت فيها كل ما يخالف الشرع والدين كما يقول الفقهاء. . بكيت. . صرخت. . لطمت الجدران. . مرغت وجهي بالتراب. . لم أكن آبه لأصدقاء أو زملاء أو أهل. لم أعزِّ أسرتها مطلقًا. المُصَاب مُصَابي أنا، وأنا من بحاجة لجموع البشر كي تعزّيني. لم أدخل بيتها بعد ذلك. . ولم أعرف أخبارًا عن أهلها ولم يعرفوا أخبارًا عنّي. كأنّني متّ مع هند. . لم أشأ أن يراني أحدهم، فيتذكّرها وأنكأ لديه الجرح من جديد. اعتدت لمدّة شهر كامل أو يزيد أن أقوم برحلة مسائيّة قبيل الغروب أحمل دفتر أشعاري وأجلس منتظرًا هبوط الغروب على مقهى بشارع باب الوداع بجوار مدافن باب الوزير. . وما إن يبدأ الغروب، حتى أتسلّل بين شواهد القبور مخترقًا طرقًا ترابيّة طويلة لأصل إلى مدفنها. يصاحبني قطيع من الكلاب الضارية التي لا تكفّ عن النباح في وجهي أو تهمُّ بتمزيق ملابسي طيلة الطريق. . كنت لا أهتمّ بها ولا بأيّ آدميّ موجود على ظهر الدنيا. . اعتادت الكلاب عليّ بعد فترة يهزّ بعضها الأذيال وتسابقني وتصاحبني بصمت إلى شاهد قبرها. كنت أقرأ عليها قصائدي التي لم تقرأها في حياتها. القصائد التي كنت أخفيها عنها حتى لا يفضحني عشقي. . ثم أقرأ لها بعض السور القرآنيّة الطويلة من مصحف بيدي إلى أن يحين موعد صلاة العشاء فأنصرف. كنت أحكي لها كل ما يضايقني في يومي. . قلت لها مرّة إنّي ذهبت إلى حيّ المناصرة وفاصلت وساومت حتى

Twitter: @ketab_n

أقنعت البائع بأن يبيع لنا غرفة النوم بسعر مناسب وأنّي أنتظرها كي تأتي معي.. عاتبتها لأنّها تركتني وصعدت إلى غرفة الجوّالة وتركتني وسط البرد والصقيع الذي لازم حياتي.

زملاؤها قالوا لي إنّها كانت متألّقة ومنتشية بعد انتهاء اجتماعهم وموافقتهم على كلّ البنود التي وضعتها لهم لقضاء إجازة طيّبة.. وأنّهم كعادتهم عقب انتهاء كل اجتماع كانوا قد بدأوا يمزحون ويهرّجون ويلقون بالأشياء الموجودة على بعضهم بعضًا.. فألقى أحدهم بالدانة التذكاريّة الموجودة بالمكان نفسه منذ خمسة عشر عامًا تجاهها، فوقعت الدانة على الأرض قبل أن تتلقّفها هند فحدث الانفجار.. تحمّل جسدها الرقيق دانة تزن كيلوجرامًا من مواد شديدة الانفجار. أكّد الجميع في التحقيقات بأنّ هذه الدانة قد حصل عليها طلبة الجوّالة القُدَامى من معرض للغنائم عقب حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، وأنّهم كانوا كثيرًا ما يلقونها على بعضهم بعضًا بممازحة وأنّها وقعت على الأرض عشرات المرّات دون أن يحدث شيء. ماتت هند بدانة من الأعداء وصلتها حتى مقرّ دراستها كأنّها موقّعة باسمها، أو أنّها بموقت انفجار شفرته «هند»..

فاجأني الترَبي ذات مساء أنّه راقبني كثيرًا، وأنّه بكى وأنا أتلو القرآن. ثم اصطحبني إلى المقهى المجاور. استمع لي وحكى حكايات مدهشة عن موتى وشهداء غرام.. ثم ربت على ظهري بأبوّة واستحلفني بالله متوسّلاً ألاّ أعود إلى هنا مرّة أخرى، وقال بتوسّل: حرام.. اللي بتعمله ف نفسك دا حرام. أنت كده بتركّبها ذنوب. وطلب إليّ أن أعده، فلم أردّ، ضمّني إلى صدره طويلاً، ثم انصرف، تماسكت وجاهدت نفسي كي لا أبكي.. رحل بعد أن غرس في داخلي فكرة مرعبة بأنّي أحمّل أغلى ما أحببت في حياتي ذنوبًا.. تحت هذا التأثير انقطعت عن زيارتها لمدّة ثلاثة أيّام. لكنّني في ليلة اليوم الثالث قرّرت

Twitter: @ketab_n

أن أزورها في الغد مهما كان. . واستيقظت ليلاً على ضوء مبهر يخترق جفنيّ. عندما فتحت عينيّ كان الظلام يسود كل غرفة نومي. لكنّها كانت جالسة على الكرسي المقابل لسريري. . بملابسها نفسها في يومها الأخير. . لم يكن على رأسها هالة نورانيّة (كما كان طبيبي النفسي يسخر منّي). كانت بابتسامتها الودود نفسها ووجهها يشعّ حيويّة وتألّقًا. . ارتبكت وحاولت النهوض، لكنّها نهتني عن ذلك بإشارة من يدها، فمكثت في مكاني أنظر إليها غير مصدّق. . أغمض عينيَّ وأفتحهما. اتّسعت ابتسامتها وهي تقول: مصطفى هو أنت لحقت تنساني. لم أقدر على النطق. ضحكت بودّ ثم قالت: ما تزعلش أنا باهذّر. أنا عارفة كويّس أنت أد إيه بتحبّني. . بس عشان خاطري ما تجي ليش تاني. أنا كويسة لمّا أعوز أشوفك هاجيلك، اندهشت. لاحظت دهشتي فعلّقت: مش زي ما أنا كده. هاجيلك دم ولحم، وهانكمل حياتنا. إنساني مؤقتًا. . حقّق كل اللي كنّا بنتمنّاه. فجأة هاتلاقيني جنبك وهاديلك علامات. فاهم يا مصطفى علامات. .

غادرت المكان طيفًا جميلاً، ولذت بسريري منخرطًا في البكاء. قامت أمّي على صوتي. . كان البيت كلّه مرتبكًا بما يحدث لي منذ الحادثة. احتضنتني أمّي، فازداد بكائي ولم أتوقّف، حتى سقطتْ على وجهي دمعاتها الساخنة. . وبدأت تقرأ القرآن على رأسي إلى أن نمت.

بعد أيّام قليلة، ذهبت لأوّل مرّة إلى طبيب نفسي. غافلت الجميع وذهبت إليه سرًّا. بدا منصتًا لي وأنا أحكي له، ثم قال بخفّة إنّه معجب بقصصي وتهيّؤاتي وإنّ من الأفضل لي أن أكتب قصصًا للسينما بدلاً من الشعر. أحمد الحلو وعصام هما من تحمّلاني في تلك الفترة، وآزراني حتى تماسكت.

Twitter: @ketab_n

- ١٦ -

وقفت أنتظر كريم في الجهة الأخرى وهو يدخل إلى الموّان (محلّ البويات ومستلزمات البياض). كان صاحب المحلّ جالسًا على مقعد خلف بنك خشبي يحتلّ واجهة محلّه الصغير، وصبي داخل المحلّ يناوله طلبات الزبائن. بمجرّد أن لمح البائع كريم واقفًا وسط الزبائن القليلين حتى كشّر وجهه، وأشاح إليه بيده طالبًا منه الانصراف من هنا. تحرّكت قليلاً حتى لا يقترب منّي كريم، فيظنّ صاحب المحلّ أنّي معه. لم يبتعد كريم كثيرًا عن مدخل المحلّ. استند بظهره على هيكل سيّارة واقفة على الرصيف ومضى يتابع صاحب المحلّ وهو يقضي حاجة زبائنه، فينصرفون واحدًا تلو الآخر. حتى خلا المحلّ تمامًا. التفت الرجل إلى صبيِّهِ الذي أسرع بمناولته علبة الغراء السريع. لفّها بورقة صحف متأمّلاً كريم بغيظ وهو يقدم نحوه بتمهّل وتأنٍ. زفر صاحب المحلّ وقال له بحدّة: ما تقرّب يا زفت هو انت ماشي في زفّة.

ضحك كريم ضحكته التي تتأرجح ما بين الذكاء والبلاهة، ثم مدّ يده بكمّيّة من النقود ضئيلة الفئة، كانت مكوّرة داخل جيب بنطلونه. بصّ فيها البائع المستاء ثم رماها في دُرجه. سبقْتُه بخطوات وكان يتبعني محافظًا على ثبات المسافة بيننا. توقّفت عند زاوية شارع منزوٍ، لحق بي وعبرني دون أن يتوقّف. أعمته الكُلّة فنسي اتفاقنا. ناديته بصوت منخفض، ثم بصوت عالٍ حتى انتبه وعاد. صرخت فيه: يا

Twitter: @ketab_n

غبي.. مش أنا اللي اديتك فلوس الهباب ده.. (ومضيت أقلّده) ٢٠ جنيه يا أستاذ عشان أعمّر دماغي. وبعدين تدّيله الفكّة اللي في جيبك وتطرمخ على العشرين جنيه.

ضحك طويلاً، وهو يقول «العشرين جنيه بتوعك ضاعوا».. قلت له بسخرية: ضاعت فين يا فالح إذا كنت أنا ما سبتكش لغاية ما جبت الهباب اللي في إيدك ده. وبعدين تمشي كده من قدّامي ولا كأنّي موجود. قال ببساطة: افتكرتك مش عايزني. كان قد أغاظني جدًّا، فسببته: لأ، عايزك يا روح أمّك. تكدّر وجهه: إلاّ سيرة الأمّ يا أستاذ مصطفى. بلعت التأنيب على مضض: ماشي يا كريم بيه. دماغك دلوقتي بقت عال. هاتيجي معايا بالليل ولاّ لأ. ردّ مقاطعًا: لو عايزني دلوقتي.. أنا فاضي، بالليل ما اضمنش ظروفي. همست لنفسي: «مش فاضي يا ابن الكلب.. هو أنت وراك حاجة من أصله.. أنا اللي جبته لنفسي».

كان منشغلاً عنّي بصبّ الكلّة في أكياس بلاستيكيّة صغيرة متساوية الحجم. نظرت يمينًا ويسارًا، ثم صرخت فيه: بطل اللي انت بتعمله ده وابقى اعمله بعدين وأنا مش موجود!

توقّفت يده عن الصبّ، وقال: بالليل ما اضمنش وممكن أنسى.

لم أهتمّ بما يقوله ووجّهت إليه كلمات قاطعة: هاستناك بالليل ع القهوة.

كنت أتلقّى رنّات متصلة على المحمول من زينب طيلة الأيّام الثلاثة الفائتة. وكنت محبطًا وقلقًا لا وقت لديّ حتى أبحث في أسباب إحباطي وقلقي. وليس لديّ وقت أيضًا ولا بال رائق لمقابلة زينب وتحمّلها ليلة كاملة. ظللت لفترة متردّدًا بين إنهاء العلاقة معها متخلّيًا عن لحظات حميمة وجميلة تخفّف من حدّة توتّري، وبين أن تبقى في موضعها من حياتي وأدفع من افتعال المشاعر مقابل ما تعطيني. ملت

Twitter: @ketab_n

أخيرًا لحسم الأمر، وقرّرت أن أصارحها وأقطع الشعرة المعلّقة التي تربطنا. كلّمت مارشا أوّلاً وأخبرتها بأنّي سأسهر معها وأبيت عندها. كنت في طريقي إلى عصام عندما ظهر على شاشة محمولي رقم مجهول. كانت زينب تحدّثني من الشارع، قبل أن تعاتبني على تجاهلي لها الفترة الماضية وعدم الردّ عليها، طلبت منها أن تقابلني في كافتيريا فندق الكوزمو. دهشت وحاولت الاستفسار. لم أزد في كلامي معها وقلت إنّي متعجّل وحدّدت لها ميعادًا في الثامنة مساء. بهذه المكالمة حدّدت مدّة لقائي مع عصام بأربع ساعات. قابلني عصام بحالة من الفرح والبهجة لم أعهدها فيه من قبل. كان عائدًا لتوّه من سنغافورة منذ ليلتين فقط، وكان مزاجه صافيًا جدًّا ورائقًا جدًّا، وكنت أنا على النقيض. لم أظهر ما يكدّرني أمامه وتركته يحكي عن احتفاليّة الزواج الأسطوريّة التي أقاموها له، وأهلها الذين اعتبروه ابنًا لهم، ومرؤوسيها وكبار عملائها الذين تفانوا في تقديم خدماتهم إليه. كما حدّثني عن رحلاته البرّيّة والجويّة داخل سنغافورة، عن المطاعم والبارات والمناظر الخلاّبة التي تشبه الخيال: الشوارع النظيفة. الجوّ الصافي الخالي من الغبار والتراب كأنّك تعيش داخل خيمة أوكسجين مثل المطرب المسخ.. «مايكل جاكسون».

فجأة وجدت نفسي مندمجًا في حكاياته وتجواله.. أنظر بعينيه وأشمّ بأنفه وأستطعم بفمه وأحسّ بلمس الرياح وندف الثلج على وجهي. نسيت أحمد الحلو ومارشا وياسمين وكريم وزينب، ورأيت بدلاً منهم سامنثا وعصام وكمًّا مدهشًا من عوالم التكنولوجيا الدقيقة.

دفعني فكري المراوغ الذي دأب على تكدير حياتي إلى سؤاله عن فنّه، وهل أقام معارض جديدة هناك؟ هل أنجز لوحات جديدة ليعرضها في مصر؟ انتبه عصام كمن أفاق فجأة من حالة تخدير طويلة. تلعثم (أو هكذا خيّل لي)، ثم قال بصوت خافت: جهّزت بعض الاسكتشات

Twitter: @ketab_n

وهاكمّلها هنا في مصر. سألني عن أحوالي، ثم استمع لما قصصته عن أحمد الحلو بشبح ابتسامة. لم يندهش ولم يباغَت ولم يبدِ رأيًا. سألته: سمعتني.. ردّ وهو يصبّ لي كأسًا: سمعتكَ ومش هاعلّق.. سببته ممازحًا واغتظت من حالة العالم بكل شيء والمتوقّع والمتنبّئ التي تتلبّسه. فقلت متخابثًا: كنت ممكن تتوقّع إنّه هايقلب إسلامي.. ردّ بسخرية: الحمد لله إنّه ما أعلنش نفسه نبي. عقّبت: وشاهيناز؟ علت ضحكته هذه المرّة، وهو يقول: جديدة حكاية البسبوسة، بس إنت تعرف شاهيناز أكتر منّي، وتعرف إنه لو قلب درزي هيّ كمان هاتبقى درزيّة.. يعني اللي بتقوله ما فيهش جديد. لم أشأ أن أكدّره بما قاله لي أحمد عن عدم جواز دفن الكتابيّة في مقابر المسلمين، فعصام على رأسه بطحة ومصيبته أكبر، فسامنثا بوذيّة وليس لها الحقّ في الدفن أساسًا طبقًا لقراءات أحمد، ولو قلت ذلك ولو على سبيل المزاح، فمن المحتمل أن يغضب منّي عصام.

استطعم النبيذ بفمه، ثم استطرد: أيوه.. إيه الجديد في اللي شفته وارتبكت منه؟ مش اللي حصل لأحمد أفضل بكتير من بعض تحوّلات الأخوة اليساريين. على الأقلّ هو ما سرقش وما شاركش في التستّر على فساد وما مصش عرق العمّال الغلابة.. طول عمر أحمد الحلو بيسعى ورا مثاليّات مفقودة.. خلّيه يحلم ينفّذها ولو تحت أيّ راية في اعتقاده إنّها اللي هاتحميه.

أراحني كلام عصام وجعلني أنتبه. وقبل أن أسأله سؤالاً آخر باغتني: إيه أخبارك مع مارشا؟ أجبت متعجّلاً: عادي. صبّ كأسًا آخر، وهو يهمس: قل لي بالتفصيل..

كنت بحاجة للكأس فأفرغت ما به في جوفي مرّة واحدة، ثم نهضت مستأذنًا، تطلّع إليّ متسائلاً فأجبته: هاجيلك بُكرة واحكيلك كل حاجة عشان دلوقتي عندي ميعاد مهمّ، ألحّ عليّ بالجلوس، فطلبت

Twitter: @ketab_n

منه أن يريني الاسكتشات التي رسمها في سنغافورة، حدّق في وجهي طويلاً وابتسم وهو يشير لي بالخروج ويقول: طريقك أخضر لمّا تحكيلي كل حاجة بكره. أبقى أورّيهلكم.

تركته وأنا أسأل نفسي في حيرة عن السبب الذي جعلني لا أحكي له كل شيء بالتفصيل. فعصام أصبح الشخص الوحيد الباقي لي في هذا العالم. الوحيد الذي من الممكن أن أبوح له بكل شيء عنّي حتى لو كان مخزيًا أو صادمًا أو حتى مخالفًا للتابوهات. لماذا لم تعد بي رغبة في الحكي؟ هل لأنّه لم يعد لديّ شيء مدهش يمكن أن أحكيه؟ أم خوفًا من تأنيبه ولومه أو ردّة فعله التي قد تكون مجرّد ابتسامة ساخرة؟! لا أدري. . كان كل إحساسي لحظتها أنّي غارق في مستنقع من الخراء، وأستنكف أن أدعو أحدًا لانتشالي مفضّلاً الغرق فيه على سخرية أبديّة عقب النجاة.

كانت زينب تزدرد حبّات الفول السوداني وتداعب بالشوكة طبق المزّة وأمامها زجاجتان من البيرة، إحداهما فارغة والأخرى أوشكت على الانتهاء. لم أتأخّر على موعدها أكثر من نصف ساعة، وكان عليها أن تنتظر حضوري، وألاّ تبدأ بالسكر بدوني. ابتسمت وهي تشعل سيجارتها وقالت وكأنّها تعتذر عمّا أراه: جيت قبل الميعاد بنص ساعة وأنا حاسّة إن دماغي ها تنفجر، قلت يمكن البيرة تهدّيها. أحضر الجرسون زجاجتين أخريين. ملأت الكوب وتجرّعته بسرعة دون أن أحاذر لخبطة البيرة مع النبيذ، فقد كانت أمامي كلمات فاصلة لابدّ من قولها وأنتهي وأستريح من هذا العبء الذهني الذي يجثم على عقلي بلا فائدة. همستْ ضاحكة: منظرك مش عاطفي. . مش كنّا شربنا أحسن في بيتنا. كانت تطلق لفظة «بيتنا» على شقّتي وعلى دولاب ملابسي «دولابنا»، كأنّها مصرّة على اقتسام حياتي وليست ظلاً باهتًا كما أتصوّرها. كنت قد سكتّ فأعادت الحوار نفسه وهي تلوّن مخارج

Twitter: @ketab_n

الحروف بغنج، تبسّمت رغمًا عنّي وبتّ أحسّ أنّ هذه الأنثى عضو جنسي أنثوي يتحرّك على قدمين، قلت بغلاسة: مش هاينفع.. ورايا شغل وعندي حاجات مهمّة ومش فاضي. دفعت بحبّة فول سوداني في فمي حتى أتوقّف عن الاستطراد. رشفت كأسها وهي تتأمّلني قائلة بصوت محبَط: يظهر إن فيه واحدة تانية في حياتك. لم أعقّب. فاستطردت: ويمكن مش واحدة بس.. يظهر كتير. لم أرغب في الردّ على هذا اللعب النسائي، فأهملتها وانهمكت في أكل المَزّة. رفعت كأسها، وبعد جرعة كبيرة أصدرت صوتًا يشبه التنهيدات جعلني ألتفت إليها مرغمًا. فهزّت لي رأسها هزّ الفاهم، ثم سألتني بهدوء وبابتسامة عريضة: إيه الحكاية؟ قول كل اللي انت جايبني عشانه. أنا سمعاك كويس.

حيّرتني ابتسامتها واستفزّتني أيضًا، فانطلقت في القول.. قلت كلامًا كثيرًا عن الحبّ والصداقة والزواج وأنّنا قد نصلح كأصدقاء، لكنّنا لا نصلح كأزواج، لأنّ هناك اختلافات كثيرة بيننا. نهضت فجأة فتوقّفت عن الكلام وتصوّرت أنّني أهنتها. لكنّها فاجأتني بقبلة على شفتيّ وأخرى على جبيني، ثم جلست مرّة أخرى. لم أدرك مغزى ما فعلته وهممت بمواصلة الحديث. لكنّها وضعت سبابتها على فمي وطلبت منّي ألاّ أكمل. صبّت من زجاجتها في كوبي وهي تهمس: من أوّل ما تعرّفنا على بعض عجبتني فيك حاجات كتيرة.. رجولتك وإنسانيّتك وذكاءك وثقتك بنفسك. الحاجة الوحيدة اللي كانت تضايقني فيك إحساسك بأنّك أذكى من الناس. كنت بكره فيك تعاليك بذكائك عليّ. لمّا أطلب منك حاجة أو أسألك على معلومة كانت بتوصلني منك بسمة سخرية وبتسبق شرحك المتعالي. أنا ماعمريش حبّيت حدّ. أنت أقرب واحد لحالة الحبّ اللي كنت باتمنّاها. أنا عندي مشاكل كتيرة. أنا باحب الناس كلّها وباشوف فيهم الشيء الكويّس وكل حدّ

Twitter: @ketab_n

يعملّي حاجة كويّسة، كنت باكافؤه على الحاجة دي. إن شاالله أديله جسمي. عارف! ممكن ناس كتير تقول على ده «شرمطة». . لكن إنتَ عارفني. أنا ما باخُدش مقابل ده فلوس ولا ترقية في شغل ولا عشان ينزل اسمي ببنط ٢٤. أنا بعمل ده كأنّي طفلة حدّ أداها حتّة شوكولاتة فأدته بوسه. شرفي اندبح من زمان وأنا مش هاقعد جمبه وألطم. إنتَ كنت أهمّ واحد في حَياتي. كنت بتسمعني وتشاركني همّي. وباحسّ إنّك بتبقى عايز تعمل المستحيل عشان تساعدني. ولمّا وقفت جمبي واستضفتني. أنا كنت باكافأك يا أستاذ يا ذكي. ياللي مخّك أكبر من حتة بنت من الأقاليم جاية تتفرم في مدينتكم القاسية. كان ممكن أكدب عليك وما أخليكش تلمس حته من جسمي وأخلّيك تتجوزني، وكنت شايفة في عنيك إنّك ملهوف عليّ. لكن أنا أصرّيت أورّيك أنا إيه. تعرف ليه؟ عشان باحبك واحترمك. كنت باكافأك بجسمي عشان حنّيت عليّ. لكن لمّا كانت عنيك بتيجي في عنيّا تطلب إنّنا نتجوز، كان لا يمكن أكافأك بجسمي الملوّث.

وهي تتكلّم، بدأتُ أحسّ بالصدق نابعًا من أعماقها، وكأنّها حفرت حروف كلامها بإزميل من حنان في قلبي، فقمت واحتضنتها فترة طويلة، وظللت أربت على ظهرها وأقبّلها في وجنتيها غير آبه بمن يحيط بنا من عشّاق وروّاد ولا حتى بالساقي ومدير الأوتيل. ثم جلست وأرحت ظهري على مسند الكرسي وأغمضت عينيّ، أمّا هي فقد اغرورقت عيناها بالدموع إثر احتضاني لها. تركتني غارقًا في صمت طويل، كنت أحاول إعادة تقييم حياتي كلّها. فحتى زينب التي لم أهتم بتصنيفها في حياتي علّمتني أشياء لم أنتبه إليها أبدًا. تذكّرت مغامراتي معها. حدّتي معها وقسوتي عليها غير المبرّرة أحيانًا والتي كانت تتحمّلها بصبر لا مثيل له. وسخريتي الحادّة منها وكيف كانت تتقبّلها بابتسامة وتهجم عليّ.وتقبّلني في فمي وهي تكبّل يدي خلف ظهري

Twitter: @ketab_n

حتى لا أسترسل. كم من المرّات لطمتها ووبّختها وألقيت بها من فوق السرير، فلم تتأوّه أو تمتعض أو تغضب منّي. كانت تنفض ما علق بملابسها من أتربة ثم تصعد إلى السرير مرّة أخرى منكمشة داخل نفسها، وكأنّ جسدها انضغط وجسدها العريض يدخل في بعضه حتى أصبح حجمه ضئيلاً، ثم بعد وقت قليل من هذه الحالة تدسّ نفسها في حضني، وتكون أسباب قسوتي غير المبرّرة هذه أسبابًا واهية. فمرّة لمجرّد أنّني استيقظت ووجدتها تقبّل رأسي وعنقي أو جسدي كلّه، وتكاد أن تزهق روحي، فأصحو كالمجنون أبطش بها.. أحيانًا كانت تفتعل الزعل فتخرج من الغرفة تجاه المطبخ وتعود وبيدها كوب من الشاي تشربه بعيدًا عنّي وتتجاهل رؤيتي. كنت أحايلها فتبتسم وتسألني: تحبّ تشرب شاي؟

كنت أعود إلى رشدي فألومها مرّة أخرى بودّ: يعني انتِ كنت عملتي لي!

قبل أن أنهي الجملة تكون قد قفزت خارج الغرفة وأتت بكوب الشاي الذي أعدّته لي مسبقًا وتركته بداخل المطبخ لتلاعبني.

كان حالي يرثى له. لو أملك الخيار والقدرة على اتخاذ قرار سليم لتزوّجتها فورًا، هاربًا من قدري مع مارشا، وأوهامي مع ياسمين ومن ذكرياتي مع هند. أنا بائس جاء لينهي علاقة، فإذا به عالق داخل كرة صوف ضخمة من الشرايين والأوردة الدقيقة التي لو قُطع جزء منها سأنزف، وأموت.

أفقت على كفّ حانية على ظهر يدي، وزينب تقول هامسة: إيه يا أستاذ.. رحت فين؟

تأمّلتها وأنا أشرب في صمت.. فاستطردت بغلاسة: هو انت مش وراك ميعاد دلوقتي؟

Twitter: @ketab_n

انتبهت. . وحمدت الله لأنّ المقهى على مقربة من الأوتيل الذي نسيت نفسي فيه مع زينب. . المنطقة كلها تتبع نفوذ كريم. وقرّرت أن أهمّ بالانصراف لمقابلة كريم ثم المبيت مع مارشا. إلاّ أنّ شيئًا بداخلي أصرّ على ألاّ أترك زينب في تلك الليلة. أمسكت بيدها ونهضت. . ضحكت بصفاء وهي تهمس في أذني: عارفة والله من قبل ما أجي إن احنا هانبيت سوا الليلة.

رحلت زينب في الصباح الباكر لتأخذ تكليفاتها من الصحيفة. استيقظت بعد رحيلها بخمس ساعات، مزّقت الورقة التي تركتها لي فوق الكمودينو وألقيت بها في التواليت. وعاودني مزاجي السيئ فلعنتها ولعنت محاولاتها الدائمة إقحام نفسها في حياتي. ما لي أنا ومال تكليفاتها. إن كانت هناك تكليفات أو صحيفة من أصله. القصاصات المنشور بها اسمها التي كانت تريها لي أحيانًا ممكن لأيّ إنسان متعلّم بعض التعليم أن يكتب مثلها، وهو يتبرز أو وهو في انتظار دوره بمحلّ الحلاقة. .

مارشا لم تتصل بي على الهاتف المنزلي ولا على المحمول، كأنّي لم أعطها موعدًا وأخلفه. كأنّها لم تتحفّز وتختنق وتغتظ من برودي وقلّة أدبي اللذين منعاني من الاعتذار. قرّرت كثيرًا أن أتصل بها وكنت أتردّد. . لكن نفسي الأمّارة بالسوء ألحّت حتى اتصلتُ. ولا حياة لمن تنادي. . أرسلت إليها رسالة قصيرة بأن تسامحني، وأنّني سأحضر لها مفاجأة معي. وتركتها تخمّن المفاجأة التي لم أكن أعرفها أنا نفسي.

مررت على أحد تلاميذي الأجانب المقيمين بوسط البلد وأنهيت حصّته. كان جسدي لايزال مخدّرًا، ومثقلاً بكمّيّة الكحول الكبيرة التي تناولتها أمس مع بعض سجائر الحشيش. وفجأة وجدت الدنيا أضيق من ثقب الإبرة وأنا أبحث عن مكان ألتجئ إليه أو صحبة أنضمّ إليها. استبعدت عصام لأنّني كنت عنده أمس، وزينب جثمت على أنفاسي

Twitter: @ketab_n

حتى الصباح، ومارشا سأذهب إليها ليلاً. أمّا ياسمين فستتعلّل بالمذاكرة أو بأبحاث الجامعة أو بملازمة جدّتها التي تعاني من اكتئاب كلّما بقيت بمفردها فترة طويلة!

رسالة موجزة على جهاز المحمول أطارت الخمر من رأسي.. المرسل مارشا. متن الرسالة مقلق «أنا في الفيّوم مع ديانا وسأعود بعد أسبوع، حاول أن تستغلّ الوقت وتعمل بقوّة كي ننجز».. شعرت بارتباك، فأعدت الاتصال بها، لكنّها لم تردّ.. ازدادت حدّة اضطرابي. عصام لم يكن بمرسمه وهاتفه أيضًا لا يردّ، كعادته إذا كان منهمكًا في عمل ما أو مشغولاً. اتصلت بعوض «إيفالد». قال لي إنّه لم يره ولا يعرف أنّه عاد من سنغافورة إلاّ منّي، كما أخبرني بأنّه مشغول بترتيبات الزواج وتعقيداته الإداريّة.

ما حمّى الزواج التي تجتاح البشر هذه الأيّام؟! زواج.. زواج.. كأنّه موسم معاشرة القطط. عوض الألماني سيتزوّج من مصريّة، وعصام تزوّج من سنغافوريّة.. وقد يكون مقدّرًا لي أن أتزوّج من مارشا الأميركيّة.

مارشا ستمكث أسبوعًا في الفيّوم ضيفة على إيفلين السويسريّة الأصل والمقيمة بالفيّوم. المكان هناك رائع وجميل سواء بالبيت الريفي صغير المساحة رغم أنّه يشبه دوار العمدة بما يجمع من شخصيّات متعدّدة الجنسيّات «الكوزموبوليتان» الذين ينزلون دائمًا ضيوفًا على إيفلين. كانت متزوّجة خلال عقدي الستينات والسبعينات من شاعر عاميّة شهير، ثم ناقد أدبي.. وكانت إيفلين دائمة الانتقال ما بين سويسرا ومصر حتى استقرّت أخيرًا ترعى مشروعها المختار وتربّي جيلاً من الخزّافات والخزّافين المصريين وصانعي وصابغي السجّاد اليدوي والجلابيب التي يتقن صنعها أهل كرداسة. إيفلين لها رحلة سنويّة إلى أوروبا تسوّق منتجاتها وتتعرّف على «هواة زيارة الشرق»

Twitter: @ketab_n

المنبهرين بأجواء ألف ليلة وليلة وتحضرهم معها إلى الفيّوم، القليل منهم يصدمه ما يراه فيعود مسرعًا إلى بلاده، والكثير يبقى ويتفاعل ويؤدّي مهمّته التي حضر من أجلها في دعة وسكون. مارشا تحبّ إيفلين. وبالأدقّ تحبّ نمط الحياة الذي تعيشه، وقدرتها على تحمّل إقامتها بمصر والتي تكاد أن تكون هجرة، فقد أجادت اللغة العربيّة والدارجة والفلاّحي التي تقترب كثيرًا من لغة أهالي الفيّوم، وأصبحت تفكّر أيضًا باللغة العربيّة.

قالت لي مارشا إنّها عندما تكون بائسة ومحبطة تهرع إلى الفيّوم لتعيش وتستمتع بالحياة البسيطة: تربية الدجاج. جلب المياه من البئر الجوفي عن طريق الطلمبة. تتعلّم بعض دروس الرقص مع الراقصات الروس اللواتي تحضر لهنّ إيفلين مدرّبًا متخصّصًا وراقصة محترفة لتعلّمهنّ. تنتعش مارشا وتتألّق وسط حفلات الزار والذكر والديسكوهات الغربيّة التي تتفنّن إيفلين في إقامتها.

تعرفتُ إلى إيفلين قبل مارشا بسنوات، لكنّني لم أعرّف مارشا على إيفلين. وجدت مارشا تعرفها كما تعرف الكثيرات من أمثالها في كل مجتمعات الأقلّيّة بالقاهرة. مجتمع الأرمن والجالية اليونانيّة، وحتى جالية فرسان مالطة الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

كان ذهابها لرؤية إيفلين رسالة موجّهة إليّ، مفادها أنّها تمرّ بإحباط ما، وعلى الأغلب أنّني الذي سبّبته لها. فهي لم تدعُني للذهاب معها وسيصبح شكلي سيّئًا ومثارًا للتأويلات المخزية لو ذهبت خلفها. هي بحاجة للترضية وهو ما سأحاول عمله بشكل ما عند عودتها. لأنّ إرضاءها التامّ معناه الحقيقي فنائي. على الأغلب الفكرة فكرة صديقتها الأنتيم ديانا مسؤولة البعثات التعليميّة بالسفارة الأميركيّة بمصر، مارشا تعرفها منذ سنوات وبينهما مصالح مشتركة أجهلها، أخاف من ديانا وأرهبها فدماغها منظّم ومرتّب، ولها حيثيّة كبيرة بين الجالية الأميركيّة

Twitter: @ketab_n

بمصر. تقابلنا كثيرًا ولم نتبادل غير الودّ، حذّرني عصام وعوض منها كثيرًا، ولكنّهما لم يبيّنا لي الأسباب، رغم أنّ مارشا وديانا تقيمان في مبنى واحد، إلاّ أنّني لم أتورّط في زيارتها بمنزلها أو حضور الحفلات التي تقيمها إلاّ فيما ندر. لديانا اهتمام بالدراسات الميتافيزيقيّة وحصلت على عدد من الشهادات عبر الدراسة من خلال شبكة الإنترنت، وتدّعي أنّها تفهم في وسائل العلاج الصيني باستخدام الإبر ووسائل العلاج باستخدام الـ short wave. كان هذا من دواعي سخريتي منها أمام مارشا التي كانت تعاتبني بشدّة حتى نهتني تمامًا عن الخوض في هذا الموضوع. ديانا متزوّجة ولديها بنتان وزوجها مقيم في أميركا ولم يأتِ إلى مصر مطلقًا، وأنا لا أعرف مدى علاقتهما الزوجيّة، وهل هي موصولة أم مقطوعة؟ لكنّني أعرف أنّها تحبّ مطربًا صعيديًّا اسمه شريف، ليس لديه حظّ كبير من الشهرة بقدر ما له من جاذبيّة جنسيّة، شريف متخصّص في غناء «النميم الصعيدي» وأنا أحبّ هذا النوع من الغناء وأحبّ صوته، وقد حضرت له عدّة حفلات بالـ jazz club بصحبة مارشا وعصام، وكنّا نجد ديانا هناك. ديانا متيّمة به، وتحاول بشتّى الطرق استخدام علاقاتها المتشابكة في وضعه على خريطة الغناء المصري كما أخبرتني مارشا.

الليل احتجزني بالبيت أدخّن ما تبقّى من سجائر محشوّة، وأشرب ما تيسّر من كؤوس وأنتظر ما لا يجيء. مللت القراءة في كتب لا يبقى منها في ذهني شيء. مللت استجداء الشعر فَيَضِنُّ عليّ. واجترار الماضي يقرّبني من أشدّ حالات الهوس جنوحًا إن صحّ ما حذّرني منه الأطبّاء. حالة البلد العامّة بكل سوئها ملجإي وملاذي. عندما تعود مارشا سأشارك بتظاهرات واعتصامات ووقفات احتجاجيّة والتوقيع على بيانات، وسأعود إلى التألّق والنشاط.

أحبّ مارشا بكل ما يكتنفها من غموض، وقد يكون غموضها هذا

Twitter: @ketab_n

هو الذي أطال العلاقة بيننا. هي بولنديّة الأصل أميركيّة الجنسيّة. هاجر أجدادها إلى أميركا قبل الحرب العالميّة الثانية. تمتلك مارشا كل مقوّمات الجمال الذي يتوق إليه أيّ شرقي. العيون الخضراء والشعر الأصفر والقامة النحيفة والطول المعتدل. وتمتاز بتفكير مرتّب وذكاء ومعرفة ثقافيّة متميّزة. لم تنهِ مارشا أيًّا من رسائل الدكتوراه التي انهمكت فيها، كما أنها غيّرت مواضيع رسالتها أكثر من مرّة. من «خلايا التيّار اليساري بمصر» إلى «التنظيمات الهامشيّة وتأثيراتها في مجرى السياسة المصريّة» إلى «التيّار الديني الأصولي وعلاقته بالأنظمة العربيّة». . وبدّلت أكثر من جامعة أميركيّة للإشراف على رسالتها، كما أقنعتني. رسالتها الأخيرة التي استقرّت عليها عن «وسطيّة الإسلام وتطرّفه من خلال تشريح الطبقة الدنيا المصريّة»، وآمل أن تتمّها وأنا على قيد الحياة. . مارشا مكثت بالأردن عامًا تعلّمت فيه بعض مبادئ اللغة العربيّة، ثم استقرّت بمصر منذ ست سنوات. أجادت فيها اللغة العربيّة وأتقنت العامّيّة وتعلّمت اللهجة النوبيّة فهمًا لا نطقًا، وكل هذا كي يخدم رسالتها كما تدّعي. والدتها مدرّبة جمباز إيقاعي بواشنطن d.c ومنفصلة منذ سنوات، تعيش بعيدًا عن أبيها الذي يعمل أستاذًا في مركز أبحاث تابع لجامعة كولمبيا. مارشا وحيدة لا أخ لها ولا أخت، لكن لها أقارب عديدين من جهة الأم والأب. لم تزر مارشا بولندا أبدًا ولا فكّرت في زيارتها، ومن أمنياتها أن تزور السعوديّة والعراق وقطر والكويت، ولم أعرف لماذا؟

كنت قد زرت أميركا عقب أن زارني طيف هند، وأنا أعمل بشركة الإعلانات، وأبْدت عدم رضاها عن ذلك. تركت العمل وقرّرت أن أجرّب حظّي بزيارة أميركا أو حتى الاستقرار بها. كنت قد بدأت كورسات علاجي من الإدمان بمصر ونجحت إلى حدّ ما في التخلّص منه. فاجأتني أميركا من زوايا أخرى غير ما يراه الناس بالنسبة لها.

Twitter: @ketab_n

أربكتني حساباتهم الرياضيّة التي يخضعون كل شيء لها، حتى العواطف والأفكار المجرّدة، وتحويلهم كل القيم المعنويّة إلى قيم مادِّيّة يسهل التعامل معها. الآليّة تتحكّم في حياتهم، والإنسان كي يتعامل مع الآلة لابدّ أن «يفرمت» المادّة الخام أوّلاً، فعبوة البطاطس الشيبسي على سبيل المثال تبدأ بعجينة يتمّ إدخالها في قوالب تخرج الأحجام والأشكال المطلوبة، ثم تقلى في الزيت. كل الأمور بأميركا حتى المواد الطبيعيّة يجب «فرمتتها» ثم تحويلها إلى سطح مستوٍ وزوايا حادّة، لكي تتعامل مع الآلات. الإنسان لا يتدخّل إلاّ لتسوية السطح وتكوين زوايا حادّة لكي تتوافق مع تروس الآلات. الآلات ضدّ الأنسنة والآدميّة. فمن المعروف طبِّيًا أنّ جسم الإنسان لا توجد به زاوية حادّة واحدة. يعيش الأميركان على النظام الثنائي المكوّن من عددين: (١) و(صفر).. ميزة هذا النظام أنّ للأشياء احتمالين فقط. عند رقم (١) يسير وعند رقم (صفر) يقف. الإدارة الأميركيّة تخيّرك بين شيئين: أنت مع الديموقراطيّة أم ضدّها؟ أنت مع الإرهاب أم ضدّه؟ أنت محور الخير أم محور الشرّ؟ الحكومة الأميركيّة تتصوّر أنّها تبسّط الأشياء للشعب حتى يسهل عليه الاختيار، وعندما أصبحت تهيمن على العالم تعاملت مع كل الدول بالمنطق نفسه.

كنت مقيمًا في نيويورك، وهي مدينة تنقسم إلى شوارع أفقيّة وأخرى رأسيّة. الشوارع الأفقيّة مرقّمة وبلا أسماء والشوارع الرأسيّة (AVENUE) بأرقام وبلا أسماء. سهولة الفكرة تبدو من أنّ الشارع رقم ٧٧ هو أكيد بعد شارع رقم ٧٦، بينما عندنا شارع صفيّة زغلول ليس بالضرورة بعد شارع سعد زغلول.. الأرقام عندهم تحمل معلومة لا أكثر ولا أقلّ، وأسماء الشوارع عندنا تحمل ذكريات وعواطف.

الحركة سهلة هناك والإدارة محكمة، إنّما العواطف في إطار المعلومات. ومع كل التطوّرات التكنولوجيّة والقفزة الهائلة في عالم

Twitter: @ketab_n

الإنترنت فوجئ الإنسان الأميركي بأنّه أصبح عبدًا للمعلومة، وأنّه لا يقدر على إتمام كتابة روايته إلاّ بعد أن يفتح جهاز الكمبيوتر لأنّها محفوظة داخل «فايلات» وكل أفكاره مدوّنة في «الهارد ديسك»، الذي إذا عطُب لأيّ سبب ضاعت أفكاره تمامًا.

كنت بزيارة لجامعة كونيكتيكت Connecticut التي تقع في الشمال الشرقي، وبينها وبين نيويورك مدّة لا تتجاوز الأربع ساعات. الكهرباء انقطعت لمدّة نصف ساعة فقط. لكن في هذه المدّة الوجيزة كنت لا تستطيع أن تشتري لبانًا أو أطعمة أو تدفع المصروفات الدراسيّة أو تمتحن أو تعرف درجاتك، فكل الدرجات مدوّنة بالكمبيوتر. انقطعت الكهرباء نهارًا ورغم ذلك أصبح الإنسان عبدًا للمعلومة. الإنسان ليست به زوايا حادّة والألوان في داخلها ألوان، فالأبيض بداخله أسود وفي داخل الأسود أبيض. بلادنا بها تاريخ وحضارة ومن الصعب إخضاعها لمثل هذا النظام الثنائيّ، لأنّه نظام معقّد بلا مشاعر أو عواطف. الألوان امتدادها نهائي لا يفصل بين اللون والآخر شيء. قوس قزح متعاظم ليس له حدّ. والحضارة الأميركية تبدو ضدّ طبيعة الإنسان وليس بها إبداع إنساني كبير. إنّ أغلب إبداعها من إبداع الإنسان الآلي الذي يفعل كل شيء بدقّة لا تقبل الخطأ. الخطأ البشري جميل تحسّه في إبداعات الحضارات القديمة ويُزيد جمالها جمالاً. مفكّرنا الكبير زكي نجيب محمود له رأي في الحضَارة الأميركيّة «بأنها الحضارة التي يعبّر عنها اللبان وناطحات السحاب وموسيقى الجاز». . وهو وصف في منتهى الدقّة، لأنّ الوحدة نفسها تتكرّر في عدد لانهائي من المرّات. اللبان فيه الحركة نفسها التي تتكرّر عددًا لانهائيًا من المرّات. وموسيقى الجاز تتكوّن من مجموعة تآلفات هرمونيّة متكرّرة. وناطحات السحاب وحدة واحدة تتضاعف كما تشاء.

ما نراه حولنا من تردّ في السياسة الأميركيّة عند إدارة أيّ بلد حاربته

Twitter: @ketab_n

وانتصرت عليه يرجع إلى أنّها تفشل دائمًا في التعامل مع فوضويّة الفكر الإبداعي الإنساني.

أنا أتعامل مع مارشا بإحساسي نفسه تجاه الحضارة الأميركيّة. أفهمها وأفهم تطلّعاتها، وأقدّر حساباتها المتوازنة، التي أعرف جيّدًا أنّني مجرّد رقم فيها وأحاول أن أكون مؤثّرًا وخاضعًا أيضًا إذا ما تطلّب منّي ذلك، وأعاملها بفوضويّة الفكر الإبداعي إذا ما أردت أن أكون متمرّدًا.

عدت من أميركا بعد عام بفشل شنيع، وصرت أضحوكة العائلة والجيران. لكنّني عندما قلت لعصام كل ما ذكرته سابقًا، كان فاتحًا فمه عن آخره. يسمعني بإنصات شديد. وعندما انتهيت ضحك ضحكًا هستيريًّا، وطلب منّي ألاّ أسكت على نفسي وأن أتّجه فورًا إلى أقرب طبيب نفسي.

Twitter: @ketab_n

- ١٧ -

توالت مشاهد العنف المقزّز ضدّ الأطفال وأنا أتابع الشاشة بوجه حاولت بقدر الإمكان أن يبدو محايدًا. كان وجه مارشا يتدفّق بالدماء والحيويّة حتى وهي تتظاهر بالتأثّر وتعيد لقطات بعينها ببطء أو بسرعة. كانت يدها اليمنى مشغولة بالتدوين، والريموت على فخذها الأيسر تلمسه بأنامل يدها اليسرى، وهي تشرح لي بعضًا ممّا كان يحدث هناك ولم أكن قد رأيته من قبل موثّقًا. كانوا الأطفال أنفسهم الذين يشبهون كريم ووردة ومريم والآخرين. .

ليس هناك فارق كبير بيننا كعرب وبين البرازيل، فكلانا عالم ثالث متخلّف وفي سبيله إلى الاندثار. كانت المشاهد التي تتوالى على الشاشة وثائقيّة حقيقيّة، تُظْهِر كيف نمت وانتشرت ظاهرة أولاد الشوارع في البرازيل، وكيف تضامنت المافيا البرازيليّة مع الشرطة وتولّوا القضاء على الظاهرة نهائيًا بسحلهم بالشوارع وبصلبهم على أعمدة الإنارة وبالمدرّعات التي تسير ليلاً تصطادهم وتقتنصهم كالكلاب. وانتهى الفيلم بسادة رسميين على أكتافهم نجوم يتحدّثون بفخر عن كيفيّة القضاء الناجح على مثل هذه الظاهرة في بضعة أشهر. سريعة جدًّا مارشا ومنظّمة وذهنها مرتّب. بينما أنا مشغول بتفاهاتي، كانت هي مشغولة بمراسلة عدد من جهات الإنتاج الدولي الكبرى حتى تتعرّف، ثم تحصل على ما يمكن توثيقه عن هذه الظاهرة.

مارشا راسلت واستقبلت طرودًا فيها أشرطة، رأتها بمفردها وانتقت

Twitter: @ketab_n

واختارت واشترت هذه المشاهد الأرشيفيّة من التليفزيون البريطاني مع حقّ استخدامها في فيلمنا المزمع إنتاجه، دون الرجوع إليَّ أو حتى أخذ رأيي كاستشاري. . كنت مذهولاً مستريبًا، فخلال مناقشاتنا الطويلة على مدى أشهر حول هذا الفيلم لم تخبرني قطّ بأنّها ستشتري موادّ أرشيفيّة من تليفزيونات عالميّة تدعم بها فكرتها. طلبت منّي فقط مخاطبة عائلة الموسيقار النوبي حمزة علاء الدين الذي يعيش بأميركا، فقد كنت على علاقة بهم، وأن أستأذنهم وأستأذن الموسيقار في وضع موسيقاه على الفيلم. تقاعست طبعًا عن تنفيذ هذا الطلب. كما كنت أتعمّد أن أبطئ عمليّة تنفيذ الفيلم. أتعامل معها بنظريّة العصا والجزرة. أجمع وأقرأ لها ما يكتب في صحافتنا عن تلك الظاهرة وأدعوها، وأحضر معها الأفلام الوثائقيّة التي تدور حول طرح الظاهرة، وأجمع أخبار الروايات أو حتى المسلسلات الدراميّة التي تعتزم طرق موضوع أطفال الشوارع. أعرّفها على بعض هؤلاء الأولاد وأحدّثها عن خفاياهم وأماكن إقامتهم واختبائهم ومأكلهم وملبسهم وطرق هروبهم من الناس والشرطة. ثم أدسّ لها السمّ في العسل حتى تصرف نظرها عن هذا الموضوع، كأنّي حارس بوّابة هؤلاء الأطفال والوحيد القادر على منعها أو السماح لها بالولوج في هذا العالم. وها قد ردّت لي الصاع صاعين. . أخبرتني بدون إعلان وبالصلف الغربي المعهود بأنّها ستمضي قدمًا في إتمام المشروع ولو بدوني. وأنّ تأجيلاتي وتسويفي لن تعيقها. كان خليل القزم يتقافز أمامي وأكاد أن أراه، وأتخيّله وهو يخبر كل التلاميذ بأنّها ستستغني عنّي، وأنّها منذ الآن تجهز من تتستر خلفه عند استخراج تصاريح التصوير بالشوارع والموافقات الرقابيّة. وأنّها منذ الآن تمهّد فراشها كي يعتليه غيري. . كنت بداخل حالة تشبه الحمّى، وكلّما أغرقت رأسي بالمياه وعدت من الحمّام كان رأسي يضجّ حممًا ولهبًا وكانت مارشا تتأمّلني بقلق.

Twitter: @ketab_n

مرّرت يدها على رأسي، وقالت برأفة: أنت مريض.. تحتاج إلى طبيب، هززت رأسي بالنفي وحاولت التماسك، تناولت منها كأس الويسكي الدوبل فاستعدت بعض تماسكي. ارتاحت عندما لاحظت استعادتي لحالتي الطبيعيّة. انتقلت إلى جواري وقبّلتني قبلة خاطفة على خدّي، ثم عادت تخرج من شنطتها الكبيرة أوراقًا وفاكسات وخطابات مسجّلة. عبرت عيناي الأوراق والمكاتبات دون أن أتوقّف عند إحداها. وكالحاوي الذي فشل في إدهاشك، فقرّر أن يقدّم لك خدعته الكبرى، أخرجتْ مارشا من وسط دوسيه كبير ميزانيّة فيلمنا المزمع تنفيذه وأرتني السطور التي بها اسمي كصاحب الفكرة وكاتب السيناريو ومشرف الإنتاج، وأمام كل وظيفة رقم كبير بالدولار الأميركي. كنت مشغولاً بفكرة أنّ الفيلم فعلاً في طريقه إلى الإنتاج سواء بي أو بغيري، بينما كانت مارشا مشغولة بفرد سجّادة الإغراءات المطويّة، فتارة تريني المراسلات المتبادلة بينها وبين المهرجانات الدوليّة التي بها أقسام للتمويل، ومهرجانات وجّهت إليها تحيّة على الفكرة ودعوة للاشتراك بها عقب انتهاء الفيلم، ومهرجانات عرضت شراءه بعد الانتهاء منه ومشاهدته لتقيّمه، ومهرجان سويسري كبير عرض عليها المساهمة في التمويل بمبلغ رمزي قدره أربعون ألف دولار أميركي على أن يتمّ تحويل جزء من المنحة عقب إرسال السيناريو التنفيذي الكامل لدراسته والموافقة عليه، ومهرجان آخر عرض دفع منحة رمزيّة قدرها خمسة عشر ألف دولار أميركي دعمًا للفكرة في مقابل ذكر اسمه في تترات الفيلم..

وافقت مارشا على العرض السويسري الذي أعتقد أنّ إيفلين لها دور مباشر في الحصول عليه. كما أنّها لم ترفض عرض المهرجان الأخير الذي يرغب في وضع اسمه كراعٍ من رعاة الفيلم. كل هذا حدث من خلف ظهري، وأنا منشغل بالعبث مع أفكاري وهواجسي

Twitter: @ketab_n

ومنشّطاتي الجنسيّة والأدوية التي تحقّق الانسجام النفسي والتي وصفها لي طبيبي. ومارشا اشتغلت وعملت وأرسلت وفاضلت وأنفقت نقودًا للحصول على مواد أرشيفيّة مذهلة، ووجدت دعمًا ماليًا ومعنويًا تتغطّى أسفله وهي تنفق على إنتاج الفيلم. كانت مارشا تتأمّلني وأنا أفكّر بعد كل الوثائق التي أرتني إيّاها. كانت نظراتها تخترقني وهي محدّقة بي بتحفز كأنّها سيّدة مسيطرة منحت نفسها لزوجها، فأخفق في ليلة غبراء فوقفت على رأسه تطلب منه كوليه ذهبيًّا أو أسورة ثعبانًا، حتى لا تفضحه.. سألتني بفحيح: إيه رأيك في المفاجآت دي؟ لو خرج من فمي أي حرف لانكشفت.. اضطررت أن أحتضنها وأقبّلها على وجنتيها وعلى مفرق شعرها ثم أستقرّ فوق فمها. نظرت إليّ بدهشة ثم ربتت على ظهري، وهي تقول كمن تودّ التأكّد من شيء ما: ما تصوّرتش يا حبيبي إنّ الأخبار دي تفرحك كده!

حتى لا يخونني لساني بأيّ تعقيب، بلعت بقايا الكأس وجاهدت وأنا أستأذن منصرفًا بحجّة العودة إلى كريم.. كنت في صراع مع نفسي كي أرضي مارشا. طرف الخيط بيدها مشدود على آخره ويكاد أن ينقطع، وكان لابدّ أن أرخي طرفي حتى لا تنفصم العلاقة. كان لابدّ أن أمضي قدمًا في إتمام الموضوع حتى لا تغضب مارشا غضبة وحشيّة. كان لا بد أن أجد كريم. وبجهد يسير وجدته بعد أن ترصّدته في كل الأماكن التي يحتمل وجوده فيها. وجدته على ناصية الخرابة التي تقع خلف النادي الدبلوماسي بوسط البلد، وهذه الخرابة واحدة من مناطق نفوذه. وجدت صعوبة في إقناعه بالذهاب معي وفي ركوبه التاكسي حتى بعد أن أخذ منّي مبلغًا ماليًّا جسيمًا، سبّب لي كثيرًا من المشاكل بداية بالشرطي الذي تدخّل وأنا أطارده لأقنعه بالذهاب معي، ثم سائق التاكسي الذي رآني وأنا أدفعه داخل السيّارة، ثم تفرّغه التامّ لتعبئة عبوات الكلّة داخل أكياس بلاستيك والسائق ينظر إلينا بريبة من

Twitter: @ketab_n

خلال مرآة السيّارة ومحاولاتي دفعه كي يتوقّف، وصوت خروشة البلاستيك الذي يوتّرني ويربك السائق. لعلّ الشيء الوحيد الذي حماني من السائق شكّه في أن أكون من شرطة المباحث أو وكيل نيابة أو أيّ جهة رسميّة أخرى. ويبدو أنّ السائق ارتكن إلى هذا التصوّر، غير معني بنا. كان كريم يتحدّث معي أو يلقي بحديثه تجاه السائق بسياق غير الذي نتحاور به، بلكنة مطّاطة يمدّها بقدر استطاعته حتى يجمع ما يودّ قوله. هممت عند كل توقّف أن ألقي به من السيّارة وأعود إلى مارشا خاوي الوفاض، وبدأ صبري ينفد تمامًا تجاهه حتى وجدت نفسي أمام البناية.

مرّ كريم عبر الآلة بسلامة وحمدت الله على أنّه لم يكن يدسّ شفرة تحت لسانه. لم يدقّق رجال الأمن في تفتيشه واكتفوا ببسمة خبيثة وهم يرونه بصحبتي. كنت قد دسست أكياس الكلّة داخل قميصه خلف الحزام وتبقّى منها واحد داخل كم قميصه لزوم المزاج. وقفت أرقبه بإعجاب وهو مشغول عنّي بمطالعة هيئته في مرآة المصعد يمسّد شعره بيده العالقة بها بقايا الكلّة كما يفعل الشباب بـ «الجل». ثم هرش فروة رأسه بعنف، فتعقّدت خصلات شعره، وأصبح منظره مقرفًا وابتسامته تكبر وتكبر وهو يتأمّل نفسه بزهو. ثم التفت وسألني بغتة: حلوة؟ لم أفهم، فاستدرك بنفاد صبر كأنّه يكلّم غبيًّا: الأميركانيّة. فهمت وتكدّر وجهي فلمحني بسرعة بديهة وانتبه معتذرًا: ماقصدش يا باشا. . أنا عارف إنّها تبعك وأنت ولا مؤاخذة صاحبي وأنا ماخونشي أصحابي.

أفلتت منّي ضحكة مبتورة وأنا آمل أن لا يضايق مارشا كما ضايقتها وردة.

فتحت لنا جوليا الباب بدهشة المتخلّف عقليًّا وبرعب تجربتها المريرة مع وردة، أزحتها ودخلت بكريم إلى الصالة. كان يرقب لونها الأبنوسي وضفائرها المجدولة بتعجب. تهلّل وجه مارشا عندما رأت

Twitter: @ketab_n

كريم، نظرت إلى جوليا لتحضر العصير المثلّج، ثم جلست بانبهار تتأمّل أكياس الكلّة التي يخرجها كريم من كل جزء في جسده كصائغ يعرض ذهبه وياقوته على أميرة عربيّة. مال على أذني هامسًا: قول لها تحبّ تجرّبها.

لكزته بمرفقي وأخبرت مارشا بما قاله لي، فضحكت ولمعت عيناها وغمزت لي وهي تقول: تحبّ تجرب معايا، انطلق كريم يجيب على كل أسئلتها ويرقبها وهي تدوّن على الورق ما يقوله، فيتذكّر أشياء نسيها ثم يعيد ذكرها. كان فخورًا مزهوًّا بأنّ حياته موضع اهتمام أجنبيّة. كانت مارشا تتبسّط معه وتكاد تطعمه بيدها الكروسان، بينما هو على النقيض يجلس واضعًا قدمًا على قدم، غير آبه بأصابع قدمه القذرة المتدلّية من شبشبه. سألته مارشا عن الكلّة ومفعولها، وصوّرته بالكاميرا الديجيتال وهو يقلّبها ويتعاطاها حتى بدأ مفعولها يثقل دماغه، وأصبح يأخذ وقتًا طويلاً في إدراك السؤال، ويجيب على ما يتذكّره منه كيفما اتفق في دماغه. كانت كلّما سألته سؤالاً يكاد أن يكون مريبًا من وجهة نظره، كان يلتفت إليّ ويسألني بدون صوت «هل أجيب على هذا السؤال» وكنت أهزّ رأسي، فيجيب.. كان يؤكّد لها في كل لحظة بأنّ ولاءه لي مهما تبسّطت هي معه، وهذا ما أرضاني. كريم ليس وردة التي من الممكن أن تبيعك للشيطان مقابل حفنة نقود أو حتى بلا مقابل. أحسست أنّ كريم دعّم موقفي عند مارشا وبدأت أحبّه فعلاً.

فاجأتني مارشا في المطبخ حين صارحتني بنيّتها استضافة كريم عدّة أيّام لتسجّل معه بالفيديو عدّة محاورات، وسوف ترسل هذه المحاورات إلى بعض جهات الإنتاج لتؤكّد لهم فعليًا أنّها تمضي قدمًا في المشروع. سخّفت لها الفكرة وحذّرتها من أنّ كريم غير خاضع للسيطرة وأنّ ردود أفعاله غير محسوبة، وأنّه في رأيي أكثر خطرًا من وردة التي سبق وأرعبتْها ليلة كاملة، عندما هاجمت جوليا بالأوفيس

Twitter: @ketab_n

بعد نوم مارشا مصرّة على أن تغتصبها، ولم تقدر عليها مارشا حتى جئت في السادسة صباحًا وطردتها شرّ طردة. قلت لها إنّ كريم رغم حبّه وإطاعته لي، فإنّني لا آمن له في حالة عدم وجودي. وطمأنتها بأنّي أستطيع إحضاره في أيّ وقت تشاء بدون أن نضغط عليه لأنّه مهمّ بالنسبة لكلينا، فهو الذي سيفتح لنا بوّابة الدخول إلى عالم أولاد الشوارع. ظلّت مارشا تنظر إليّ طويلاً، وبدت متردّدة في الاعتراض على كلامي، بعد أن دبّ الخوف في قلبها من تكرار تجربة وردة، وبعد إحساسها بأنّي مازلت مسيطرًا. همست لها بأن تعطي كريم بعض الدولارات لأنّ لها مفعول السحر لديه، وإذا ما طلبته لن يتردّد في الطيران إليها. وفعلت مارشا ما طلبته منها كما منحته أيضًا بعض الفاكهة وبعض البقالة.

طلبت منّي مارشا أن نتعشى بالخارج، ثم تصطحبني مع مجموعة من أصدقائها لحضور حفل غنائي في «داون تاون»، لكنّني اعتذرت عن الذهاب معها بحجّة أنّي منهك، واعتذرت أيضًا عن البقاء بمسكنها إلى أن تعود. كنت بحاجة إلى الاختلاء بنفسي، كما أنّني أصبحت أتحسّس من وجود الأجانب المكثّف بمنطقة وسط البلد، بالرّغم من أنّي مزروع بينهم طوال السنتين الأخيرتين. وفي الأيّام الأخيرة بالذات بدأت أشعر بهم يحيطون بي في كل مكان، وبدأت أحلم بهم. أسير في شوارع وسط البلد التي أحفظها جيّدًا وفي منطقة الهرم التي ولدت بها، وفي حيّ الحسين الذي أعشقه فلا أجد أحدًا أمامي غير الأجانب. أذني تلتقط لغات مختلفة ليست اللغة العربيّة من بينها. أقابل وجوه الشقر والحمر والعيون الخضراء والشعر الأصفر. أقزامًا وعمالقة، بدناء ونحيفين يسيرون كلّهم في تشكيلات عسكريّة. دائمًا يقابلونني وجهًا لوجه. بجواري لا أحد وخلفي لا أحد، وهم صفوف كثيفة على مرمى البصر. يبتسمون لي ابتسامة تبدو كفم سمكة القرش، ويفسحون لي

Twitter: @ketab_n

بأدب طريقًا لكي أعبر. أتخلّلهم فأصبح لا أحد. وتتوالى الأحلام والكوابيس. كابوس آخر قذر أبدو فيه حارس عرين الأسد، المكلّف بإطعامه وإزالة مخلّفاته.. وهم يطيرون في كل مكان ثم يستقرّون فوقي. يلقون عليّ من طائرتهم الحربيّة أطفالاً في أعمار شتّى، سليمي الجسد وأعناقهم مجزورة ورؤوسهم مهشّمة. ألقي بهم إلى الأُسود الضارية الحبيسة. وجوه هؤلاء الأطفال غير محدّدة الملامح، لكنّني لو ركّزت قليلاً قد تتشكّل بوجوه كريم ووردة ومريم.

زينب لا تخلو من مفاجآت. تسير حاملة أجولة الدهشة توزّعها في كل مكان. كنت بجروبي أشرب قهوة وأجلس في انتظار عصام الذي سيمرّ عليّ بعد انتهائه من درس اليوجا. وإذا بها تسير على رصيف شارع قصر النيل ولمحتني أجلس من وراء الزجاج. خبطت بيدها بفرحة على الزجاج. ثم دخلتْ. جلست ومدّت يدها إلى سيجارة من علبتي وأشعلتها، وقالت بابتسامة خبيثة: مستنّي مين؟ تحبّ أمشي لو فيها إحراج ولاّ حاجة كده ولا كده؟

ابتسمت وقلت: تقدري تقعدي براحتك أنا مستنّي عصام وقاعد زهقان.

قالت: كويس أنا كنت جايالك كده كده بالليل.. عايزة أحكي لك حاجة مش هاتصدقها، بتحصل مرّة في المليون!!

قلت: إحكي لغاية ما عصام يجي بس ياريت تكون حاجة مسليّة.

افتعلتِ الغضب، وقالت باستياء: بقول لك إيه أُقعد معووج واتكلم عدل.. هو إنت فاكرني أراجوز أسلّيك. ناقص تخلّيني أرقصلك كمان.

رفعت حقيبتها وقامت، قلت لها: اترزعي وبطّلي لعب عيال.

حدّقت فيّ ثم جلست كالأمّ حين تطيع ابنها المدلّل بزهق. أرجعت ظهرها إلى الخلف ومدّت يديها على امتدادهما، ثم وضعتهما على

Twitter: @ketab_n

المنضدة، ومضت تعبث بالولاّعة والسجائر. ثم أمسكت بفنجان قهوتي وقرّبته من وجهها ودبّت إصبعها فيه واستخدمته كالملعقة في أكل تنوة القهوة الباقية. ثم دلقت نقطة صغيرة من المياه بداخله وقلّبته ووضعته بالمقلوب على الطبق. كانت في حالة لم أعتدها فيها من قبل وكنت أرقبها بصمت، وعندما انتهت سألتها بمزاح: هاتشوفيلي الفنجال؟

تنهّدت: أنا اللي محتاجه حد يشوفلي الفنجال والأتر ولاّ العمل اللي معمولّي على ضهر تمساح يتيم. جاء الجرسون فطلبت منه شايًا بالحليب كعادتها، وما كاد يغادرنا حتى اقتربت منّي وهمست: هو هنا بصحيح بطلوا يقدّموا خمور.

هززت رأسي بنعم وعقبت: إيه؟ دماغك عايزه كاسين.

شردت بعينيها، ثم أخرجت سيجارة من حقيبتها ظلّت تعدّلها فترة بين أصابعها، ثم دسّتها في فمها، فأشعلتها لها، ثم قالت لي ما يؤرقها ويذهلها.. وأذهلني أيضًا.

إنّها كانت تغطّي التظاهرة التي تؤيّد القضاة أمام دار القضاء العالي كمندوبة عن الجريدة، بناء على تكليف من رئيس التحرير.. وإنّها تابعت ما يحدث بضجر، فالجوّ من وجهة نظرها معتاد ومكرّر، وعبارة عن دراما ساكنة لا تتصاعد. رجال الأمن يحيطون بالمبنى خلف متاريسهم والمتظاهرون المؤيّدون للقضاة في مواجهتهم بعد مساحة خالية، يهتفون ويرفعون شعارات، والقضاة محتجزون بحجّة حمايتهم، وهم واقفون بملابسهم الرسميّة وعلى صدورهم الأوشحة والأوسمة.. وكأنّك تبثّ برنامجًا بهذه اللقطة طوال اليوم. تركت زينب مصوّر الجريدة يصوّر، بينما دوّنت الكتابات التي على اللافتات وشعارات المتظاهرين، ورصدت انفعالاتهم وهم واقفون بمكانهم يتزايدون ويتناقصون بمعدّل ثابت. كانت زينب نشطة متحرّكة تحبّ الحركة، لذا زهقت بسرعة وقرّرت الاكتفاء بما رصدته معلنة لنفسها بأنّها لو عادت

Twitter: @ketab_n

إليهم في يوم القيامة لن تجد جديدًا. فجأة ـ على حدّ قولها ـ لمحتني بمقربة من المظاهرة فاخترقت المتظاهرين متحرّكة تجاهي، لكنّها في آخر لحظة رأت فتاة أجنبيّة بجواري وفي يدها كاميرا ديجيتال تصوّر بها ما يحدث وتكلّمني، ثم تجذب يدي لنتحرّك إلى جانب آخر (كل ما قالته زينب قد حدث فيما عدا أنّي لم ألمحها مطلقًا ذلك اليوم).. قالت إنّها تأمّلتنا فترة حتى حفظت شكلها ولبسها، ورأتني أكلّمها ونتحرّك سويًّا، وأنّه لا مجال لادّعاء عدم معرفتي بها. قلت بسخرية: يعني أنتِ تفتكري إنّي كنت هاقولك ما اعرفهاش؟ ردّت بسرعة: عارفة إنّك بجح، ثم أكملت حكايتها.. بعد أن «رأيتكما معًا» على رأي نجاة الصغيرة. قاطعتها: كامل الشناوي يا حمارة. اغتاظت وقالت: مش هاحكي..

كنت غير مرتاح، فقد بدأت أستشعر قلقًا وشرًّا ما. إنّها تحكي بغيرةٍ، وتعطي نفسها الحقّ في استجوابي عمّن كان معي. وهذا تطوّر لم أعهده فيها. ربما تكون قد راجعت نفسها وقرّرت أنّي أحسن استثمار لحياتها، ويبدو أنّها أحسّت بما يدور في ذهني، لأنّها قرّرت أن تكمل حكايتها مرّة أخرى. وقالت إنّها لفّت على محلات طلعت حرب تتفرّج على الملابس والأحذية التي لم تفكّر يومًا بشرائها، فهي تشتري من البالات بوكالة البلح والأحذية والشنط من محلات السيّدة زينب، وإنّها اتجهت بعد ذلك ناحية شارع قصر النيل في امتداده الأخير، وإنّ الرصيف كان ممتلئًا بالبائعين الجائلين والناس الذين لهم هوايتها نفسها في الفرجة والاستطلاع.. وأثناء اختراقها لرصيف الشارع بين المشاة كادت أن تصطدم به، التقت عيونهما لجزء من الثانية. ثم انطلق كل منهما في طريق مختلف. كان شابًّا أجنبيًّا بملابس مهلهلة يحمل على ظهره جيتارًا خشبيًّا. كان الشابّ ذا لحية خفيفة، وشعره منسدل إلى الخلف بضفيرة ذيل الحصان. وجهه ناحل وبقايا

Twitter: @ketab_n

ندوب ونمش تضفي عليه هالة قدسيّة. تجمع ملامحه بين ملامح جيفارا وتشارلز مانسون (بحسب وصف زينب) التي أكّدت: لم يفارق خيالي قطّ تلك الليلة. فذهبت إلى مقرّ الجريدة في الصباح وألقيت إليهم بما كتبته، ولم أنتظر حتى يأتي المصوّر فأدعم موضوعي ببعض الصور. نزلت أبحث عنه في كل شبر من وسط البلد طيلة أيّام ثلاثة (تصوّرتها ـ وهي تحكي ـ كاللبؤة داخل الأحراش تتشمّم رائحة السباع وتتبعهم حتى تقضي منهم وطرها..).

خلف الإفريز الخشبي المشغول في بار «الهالجيان»، وجدته.. كان يحتسي زجاجة براندي ٨٤ وجيتاره راقد على الكرسي الذي بجواره. دخلت بسرعة من الباب قاصدة طاولته مباشرة. جلست أمامه بلا استئذان. بوغت لحظات، ثم تذكّرني. لم أستأذنه في أن يقدّم لي كأسًا، أو ينتظر الساقي حتى يحضر لي كوبًا فارغًا، شربت رشفتين من الزجاجة مباشرة، وانطلقت في التحدّث معه بلغة إنجليزيّة مهشّمة وفهمت لغته الإنجليزيّة البسيطة. وفهمنا أحاديث بعض واتفقنا في آراء واختلفنا حول آراء أخرى (لك أن تتخيّل ما شاء لك التخيّل مدى معرفة هذا الرجل بالإنجليزيّة أصلاً). اسمه خوليو أندرناس، مكسيكي يعمل ملحّنًا وصاحب فرقة شعبيّة متجوّلة يجول بها أنحاء المكسيك ودول أميركا اللاتينيّة لتقديم العروض الغنائيّة. تخلّى عن فوجه السياحي المنخرط داخل السياحة المنظّمة، وتجوّل وحيدًا بين الأهرامات ومنطقة مصر القديمة بين الآثار القبطيّة والإسلاميّة. راقب الشعب المصري البسيط وتمنّى أن يعود بمصريّة حسناء إلى بلاده. عندما رأى زينب أحسّ أنّها بشارة السماء. لكنّها إشارة لم تتعدَّ اللحظات، ثم اختفت. وعندما رأته أيقنت أنّها تقابل قدرها واختفى من أمام ناظريها، لكنّها أصرّت أن تنال قدرها بيدها فبحثت عنه حتى وجدته. وعندما وجدها حقيقة مجسّمة تجلس أمامه بعد ثلاث ليالٍ مضنيات، أقسم بينه وبين نفسه ألاّ يغادر

Twitter: @ketab_n

مصر إلاّ وهي معه. أنهيا سهرتهما في أوتيل صغير بوسط البلد بعيدًا عن مقرّ إقامة الفوج الذي أتى بصحبته. وتساهل معهما مدير الأوتيل والموظّف المسؤول فباتا ليلتين أخريين. كان موعد انتهاء رحلة خوليو قد أزفّ وأقنعته زينب بعد جهد مضنٍ بالعودة إلى المكسيك خاليًا من الرفيقة المصريّة، بعد أن حالت بينهما وبين السفر سويًّا بيروقراطيّة عظيمة أخّرت حصولها على جواز السفر وتأشيرة الدخول بحجّة أنّ ذلك يستلزم وقتًا. ودّعها ورحل، ووعدها وعدًا جازمًا بأنّه سيخاطب سفارة بلده بمصر بخطابات رسميّة من المكسيك، حتى يسمحوا لها بالدخول. وعدته زينب بإنهاء الإجراءات الورقيّة التي لم تكن بالحسبان. أنهت زينب قصّتها وتركتني حائرًا بين أن أصدّقها أو أسخر منها، أو أن أقلق على أنّها أيضًا ستتركني، لكن رغمًا عن ذلك صدمتها وأنا أسألها عمّا ستفعل بأبيها وأمّها وشقيقاتها وأخيها الصغير المعاق.

لم تنبس بكلمة، ونظرت إليّ نظرة يلوّنها الأمل والحزن، قطعها عصام الذي وقف أمامنا على المائدة وسلّم عليها بتحفّظ. عرّفتهما إلى بعضهما. كانت تتأمّله بدهشة ثم قالت بغير تصديق: هو ده عصام صاحبك.. معقولة! كان عصام مندهشًا من ردّة فعلها، فصرخت فيها: ماله عصام؟ شايفاه بديل.

ضحكت ضحكة مستفزّة وهي تقول: آه بديل حصان.. ها ها..

توتّر عصام ونفرت عروقه، فاضطررت أن أسبّها: روّحي بقه يا روح أمّك.. وقتك انتهى، أربكها سبّي لها أمام عصام.. تراجعت وظلّت تتأسّف لعصام: ماعلهش.. أنا ماقصدتش.. مصطفى يعرف إنّي باحب أهرّج خصوصًا لما أكون مش مبسوطة.

لم تجد أحدًا منّا يسألها عن سبب عدم انبساطها. فنهضت، ودّعتنا دون أن تسلّم وهي تجاهد أن تبدو غير متضايقة، ثم قالت: هاعدّي عليك قُريّب.

Twitter: @ketab_n

غادرتنا وهمس عصام: هو أنت مش هاتبطل العك أبدًا؟

ضحكت وأنا أشير إليه: من شابه أخاه...

قال بجدِّيّة: بس أنا استقمت بعد ما اتجوزت.. الدور والباقي عليك.. ما تتجوز مارشا وتخلص. لم أعقِّب. استطرد: والله أنا باتكلم بجد.. هتفضل تجري ورا خيالات وفي الآخر برضه حتندب في مارشا. على إيه بقى التعب.. قصّر الطريق وخدها.

سألته: إيه آخر أخبارك؟

ردّ بما كنت أتوقّعه منه، وهو أنّه ذاهب بعد أسبوعين إلى سنغافورة، لأنّ سامنثا حجزت له بأهمّ قاعة في سنغافورة ليعرض فيها لوحاته. وأكمل بأنّه سيمضي هناك شهرًا كاملاً. أسبوعًا يجدّد به حياته مع سامنثا وثلاثة أسابيع مدّة العرض.

لم أجد ما أعقّب به على كلامه، يبدو أمامي هو وسامنثا كالأشخاص الزُمبي وهم يخرجون من القبور ويتحرّكون صوب الفريسة. كانت قد مصّت دمه وأصبح من أتباعها. فاجأني وقال: تروّح معايا أحكيلك واحنا بنشرب نبيت في البيت.

رفضت بحدّة، بعد أن هاجمني مشهد النبيذ الأحمر وهو يشربه بنابين. كان يربت على ظهري ويهدّئني، وأنا لا أزال مأخوذًا.

Twitter: @ketab_n

ـ ١٨ ـ

بعد هند كنت أنانيًّا في علاقاتي العاطفيّة كلّها. . وبقدر ما أحسست بالارتياح لتخلّصي من زينب، إن صحّ ما ادّعته، بقدر قلقي وغيرتي وغيظي حتى أنّني تمنّيت لو كانت بصحبتي فأنهال عليها ضربًا وسبًّا. كنت من داخلي أكاد أن أكون متيقّنًا من أنّها وجدت الأجنبي وتعاشره، وكان هذا أمرًا عاديًّا تفعله كل يوم تقريبًا، لكن ما غاظني حقًّا أنّها حدّثتني عن هذا الأمر، فأصبح أمامي حقيقة ماثلة لا خيالاً أخمّنه. زينب البلهاء أحبّت أجنبيًّا عابرًا، التقت به مصادفة وسط عشرات الألوف من عابري منطقة وسط البلد كل يوم. رأت فيه جيفارا زعيم القرن العشرين وتشارلز مانسون زعيم الهيبز، وربما نيلسون مانديلا محرّر جنوب أفريقيا. هامت به وبجيتاره الخشبي، ثم بلغ بها ضيق الأفق ونضوب الخيال أن تنتظر دعوته إيّاها لزيارة المكسيك. وأوصلتها بلاهتها لأن تصدّق كل هذا وتبني أحلامًا معه هناك.

وكأنّي بالتفكير فيها أستدعيها. هاتفتني على هاتف المنزل فبادرتها بأنّي لن أكون بالمنزل اليوم وسأبيت عند عصام. قالت إنّها مشغولة أيضًا ولم تتصل لتبيت عندي. ثم بدأت تعتذر عن ردّة فعلها عند رؤيتها عصام، وتكاد تقسم بأنّها فزعت وتصوّرته لأوّل وهلة شقيق خوليو، فهو يشبهه إلى حدّ كبير، غير أنّ خوليو نحيف وأبيض نوعًا ما، ووجنتاه مشفوطتان كتوابع لتدخينه المارجوانا. طلبت منها بحدّة أن تبعد عن عصام وألاّ ترمي شباكها عليه وإلاّ. ضحكت وقالت إنّها لا تدري هل هذه غيرة منّي على عصام أم عليها. ثم طلبت منّي أن أبلغ

Twitter: @ketab_n

عصام اعتذارها وأنّها مستعدّة أن تعتذر له مباشرة في أيّ وقت أحدّده. قلت لها ألاّ تشغل بالها، لأنّني أخبرت عصام أنّها مجنونة. ضحكت بصوت عالٍ ثم قالت وهي تنهي المكالمة: بكره تقول: ولا يوم من أيّامك يا زينب!!

الدنيا تكاد تأفل عليّ. أجلس على قطعة فلّين في متاهة محيط ضخم. لا أعرف أين سترسو بي مارشا؟ ولا أين سيأخذني كريم ووردة وصحبتهما؟ ولا نهاية لطريقي مع ياسمين. ولا متى سيتركني عصام وحيدًا ويستقرّ مع سامنثا؟ ولا أين الواقع والخيال فيما حكته زينب؟

«تخلّيت مؤخّرًا عن عمل توازنات بين الشرّ والخير، فكل ما أريده خيرًا ينقلب عليّ شرًّا محضًا. أحسّ أنّ ملاك اليمين عندي عاطل عن العمل. أنا من أنصار المدرسة القديمة في الدراما. أن يكون هناك جانب خيِّر وجانب شرّير، وأن يحدث بينهما صراع ينتصر فيه أحدهما على الآخر، وأعتقد أنّ الدنيا كلها بنيت على هذا الصراع، وأنّه بلا وجود للشرّ لا وجود للدنيا من أساسها. بقاؤنا يعتمد على الصراع، وصراعنا من أجل البقاء.. وهكذا ندور في حلقة مفرغة!».

كان هذا ما خططته بيدي قبل أن أغطّ في نوم عميق، سكري بيِّن، وكنت أظنّ أنّي سأخلق شعرًا من هذه الأفكار بمجرّد أن أفيق.. لا كتبت شعرًا ولا أتى الوحي أصلاً، وقرأت الورقة عدّة مرّات ثم ألقيت بها في مزراب الحمّام. هجرني الشعر تمامًا في السنوات الأخيرة. لست آسفًا عليه.. فلا أنا المتنبّي ولا بقيت هند معي لتقرأ كل ما أخطّه أيًّا كانت قيمته. قطعًا أنا الآن في حالة اكتئاب شديدة. سوداويّة لن يخلّصني منها الطبيب النفسي، ولا حتى أدوية مضادّات الاكتئاب أو المكتوب على أغلفتها «تحقّق الانسجام النفسي».. ينتهي اكتئابي غالبًا بمجرّد دخولي في أحداث جديدة غير معتادة سواء كانت جيّدة أو سيّئة. أن أشغل نفسي بشيء أو يشغلني شيء!

Twitter: @ketab_n

على المستوي الظاهري من تفكيري، أبدو متعاليًا على كريم وصحبته ومارشا والجيتو الذي هي بداخله، وعلى زينب التي لو كان داروِن قد عرفها لأثبت أنّ الإنسان أصله فَرْج.. وعلى مستوى بؤرة الشعور وهامشه بلغة «السايكتريين» أنا متأكد من أنّ كل هؤلاء خلاصي من الاكتئاب الشديد الذي نهايته أن أعتزل العالم. ينتقدني عصام كثيرًا بمجرّد أن يراني مدّعيًا أنّ أخباري وأفعالي التافهة التي لا تعجبه تصله أوّلاً بأوّل.. ولا أعرف لِمَ ينتقدني عصام؟! هل اجتراري ذكرياتي أو محاولة البحث عن ماضٍ أو انشغالي بالحنين إلى الماضي أو nostalgia كما تصف مارشا حالتي هو ما ينتقدني بسببه، أم تصله أخبار كاذبة عنّي من عوض أو من آخرين.. لم أجادله كثيرًا فلم يعد يهمّني. بئس الطالب والمطلوب. عصام متحقّق في الرسم والفنّ التشكيلي. متصالح مع نفسه والآخرين. ومنحته الحياة نصفه المفقود. وأنا لم تعطني الحياة شيئًا، بل أخذت: أخذت منّي هند وأبقت لي جسدًا غبيًّا عنيدًا متمسّكًا بحثالة الأرض. وهند لم تعد كما وعدتني. مرّت السنوات ولم تعد. ولم ترسل إليّ أيّة إشارة.. ومستحيل أن تحلّ محلّها ياسمين. مهما تشابهتا في أمور عدّة.. هند نورانيّة لا مثيل لها وياسمين أرضيّة كالباقيات.

أنا في حاجة إلى معاودة طبيبي النفسي، ذلك المغرور الذي يتباهى بدكتوراه روسيّة في التنويم المغناطيسي، ويدّعي أنّه لو نوّم شخصًا أصلع، وأمر بصيلات شعره المختنقة أسفل جلدة دماغه بأن تنمو وتتكاثر، فسيصحو الأصلع وفي رأسه شعر مسترسل على كتفيه. لم أر أصلعَ واحدًا يدخل عنده كي يثبت نظريّته، لكنّني ادّعيت تصديقه حتى لا أفقد معالجًا آخر لحالتي.

آخر تحليلات طبيبي حامل الدكتوراه الروسيّة أنّ حالتي عبارة عن اضطراب في الوجدان ثنائي القطب، أي له قطبان يتراوحان بين

Twitter: @ketab_n

الاكتئاب الشديد والمرح الطاغي الذي يقترب من الهوس. وأنّ كثيرًا من الأطبّاء النفسيين الجهلاء يشخّصون مرضي على أنّه فصام. وهذا تشخيص خاطئ. الحقيقة أنّني ارتحت لهذا التشخيص لأنّه قريب من حالتي، فأحيانًا أكون شديد المرح وأحيانًا أخرى لا أطيق الدنيا والحياة. . أردف طبيبي متصوّرًا أنّه يخفّف عنّي وقع المرض بأنّ أشهر المصابين بهذا المرض من العظماء. فالروائي العالمي إرنست هيمنجواي كان مصابًا به، وانتحر بفعل حالة اكتئاب حادّة. والقائد البريطاني العظيم ونستون تشرشل قاد المعارك الفاصلة في تاريخ الحرب العالميّة الثانية وهو في موجة مرح. وكذلك فنّاننا العبقري صلاح جاهين كتب أوبريت «الليلة الكبيرة» وهو في حالة هوس، وانتحر وهو في حالة اكتئاب. الله يطمئنك يا دكتور عرفت مصيري الآن. إمّا أن أقتل نفسي أو أمرح لدرجة الهوس فيخلون لي عنبرًا أبديًّا بمستشفى المجانين.

ضبطت نفسي في حالة غير طبيعيّة. أصبحت مغرمًا بزينب ومفتونًا بجسدها. أتمنّى لو تعاود الاتصال، فأقنعها بالمبيت معي اليوم، آملاً في ألاّ تأبه لحجّتي بالغياب عن البيت وتقتحم الشقّة في أيّ وقت. . أو تأتي لأي سبب لاستعادة ملابسها الداخليّة، لكتابة موضوع عاجل لا تملك كلفة كتابته في كافتيريا عاديّة أو في كافتيريا النقابة المدعّمة. إحساسي بدنو أجل العلاقة زادني تمسّكًا بها. أستعيد الآن مفاتنها. أختزن كل جزء بجسدها في خلايا حصينة داخل تلافيف دماغي. أتذكّر شبقها الجنسي. رائحة جسدها. ابتسامتها السعيدة لحظة الرضا وشهقاتها المتتالية عند الذروة. استطعم طهوها المتعجّل الشهي، غسيلها ذا الرائحة النفّاذة الذي تغسله على يدها هربًا من التعامل مع الغسّالة النصف أوتوماتك، كيّها المتعجّل لكل ملابسي بما فيها جلبابي

Twitter: @ketab_n

وألبستي الداخليّة، تنظيفها للغرف المستعملة والمهملة في الصباح وكيف تفرض نفسها فرضًا داخل المكان. أكاد أحسّ بلمساتها الصغيرة، بشعيراتها العالقة بالبانيو والملتصقة بقطعة الصابون. أشمّ بقايا من أنفاسها في فوطة استحمامي المعتادة على رائحة جسدها. في حبّة الزيتون التي قضمت منها قضمة دون أن تكملها، في تفل الشاي الممتزج بالحليب المتبقّي من كوبها بداخل الحوض.

طريق طويل محفوف بالمخاطر أصبحت أخوض فيه، عالقًا بين شتّى العوالم بلا حبّ حقيقي. . فلا ياسمين تطابقت مع هند ولا مارشا اكتفت منّي وكفتني الأخريات، ولا زينب ستستمرّ معي لو خمدت رغبتها بالمكسيكي وارتبطت بي. . كل نماذج المرأة بداخلي مشوّهة عدا هند التي أصبحت روحًا خالصة لا تتقيّد بجسد ولا تحدّها تفاصيل. حياتي أصبحت صدئة خربة ولا أمل في خلاص. أنا! حتى لم أصبح شاعرًا كبيرًا أو كاتب أغانٍ متواضعًا. . البين بين هو أصعب ما ينحدر إليه المرء. كان مدرّسنا بالمدرسة الابتدائيّة يقول لنا إنّه لا يتذكّر أحدًا من تلاميذه باستثناء المتفوّق الفذّ والفاشل المتمرّد خميرة النكد. حين كان تلميذ من فصلنا يتفوّق في شيء كالخطابة أو الإجابة السليمة أمام المفتّش أو اللباقة أمام مسؤول، كانوا يبلغون مدير المدرسة بأنّ تلميذًا من فصل خليل فعل كذا وكذا. . وشيئًا فشيئًا أصبح خليل الفاشل الشقي المدمّر هو العلامة لفصلنا، ثم لمدرستنا!

عقب تخرّجي، وقبل أن أعمل بوزارة التربية والتعليم، كنت قد تعرّفت على شركة للإعلانات وبدأت أعمل لهم إعلانات قصيرة موحية، كنت أربح منها الكثير وتألّق اسمي في نطاق هذا الوسط الإعلاني. وبدأت وكالات أخرى تطلبني بأجور أعلى، لكن هند أطلّت على حياتي فجأة وأنا في حالة تخديريّة سيّئة من تعاطي البانجو والماكستون. فوجئت بها جالسة أمامي على الشيزلونج المقابل. نظرت

Twitter: @ketab_n

إليّ طويلاً بصمت موحٍ. حوّلتني إلى طفل يتلقّى لوم أمّه العنيف. ذلك اللوم الذي لا يصاحبه صوت، بل تغيّر في قسمات الوجه إلى درجة من درجات الحزن المكتوم، وتلوّن في حدقتي العين كالأرض العطشى حين تبلّلها ببعض الماء. . قلت لها بتوسّل: لن أفعل ذلك مرّة أخرى، قالت إنّها لن تأتيني قطّ بعد الآن، إلاّ إذا عدت كما تركتني. حاول معي صاحب الاستديو والملحّنون الأصدقاء وحتى الشعراء المنافسون، لكنّني تركتهم غير نادم. تخلّصت من ثقافة الكتابة عن «الكفروبيد» ووسائل مقاومة الحشرات الزاحفة والطائرة. توقّفت عن الترويج لسلع زائفة غير ضروريّة وواقيات دم الحيض وحفاضات الأطفال، اعتبرها زملائي ومنافسيّ ورؤسائي بالإعلانات نزوة كثيرًا ما تمرّ على العاملين بهذا المجال، وأنّني سأعود إلى رشدي بعد حين. لكنّني لم أعد مرّة أخرى. وعندما انخرطت في التدريس وبدأت أعتاده وعلى وشك حبّه فجأة تزايدت هلاوسي البصريّة، وأصبحت أرى الفصل كله خليل. . بمعاونة طبيب التأمين الصحّي انتقلت إلى عمل كتابي بالوزارة لمدّة عام. أعفوني بعدها من العمل وأوحوا لي بتقديم استقالتي بعدما وصلهم تقرير طبّي يفيد بأنّي ما عدت أصلح للعمل. الجانب الإيجابي في تلك المرحلة، أنّني تخلّصت من إدماني المخدّرات والحِقَن التي كانت تزيد من ضلالاتي الفكريّة. . صحيح أنّني عدت بعد عدّة سنوات إلى المخدّرات والخمور، ولكن بنسب معقولة لا تقترب من الإدمان. . لكنّني ما عدت مطلوبًا في السوق لا كاتب أغان ولا صانع أفكار إعلانيّة جيّدة كما كانوا يقولون، وما عدت أيضًا أكتب شعارات سياسيّة فذّة أو أشعارًا ثوريّة كما وجّهني أحمد الحلو. . تحوّلت كما تحوّل زعمائي ومُنظّرِيّ. الفارق الضئيل بيننا أنّهم أصبحوا يتكالبون حول مصالح ومنافع يضعون أيديهم عليها، وظهرت عليهم آثار النعيم ومازالوا ـ رغم ذلك ـ يتكلّمون عن معاناة الفقير وحقوق المواطن في

Twitter: @ketab_n

كل الفضائيّات.. وأنا انحسرت عنّي أضواء كانت محدودة أصلاً، وأصبحت أعيش على مدّخرات حصلت عليها بإرث من أبي وبرواتب من بلاد ما عدت أحبّها، وبتعليم الفرنجة اللغة واللهجة التي تمهّد لهم السيطرة علينا في غضون حقب سنويّة قريبة. لا أنتِ تركتني يا هند ورحلتِ، ولا أخذتني معك.. وأنا طفلك الذي تركتِه بلا حماية، فماذا تتوقّعين؟

Twitter: @ketab_n

- ١٩ -

«لا تتعلّق بشيء سوف تخسره مستقبلاً»، كانت هذه «لازمة» عند طبيبي النفسي يصرّ دائمًا على نصحي بها، وأنا ما فعلت شيئًا بحياتي إلاّ وهو عكس هذه المقولة. أتعلّق دائمًا بما هو مؤكد أنّني سأخسره. كانت صورة هند أسفل بنورة زجاج مكتبي. بعض قصائدي والأقوال المأثورة تغطّيها تمامًا، إلاّ أنّني كثيرًا ما أخرجتها وجلست أطالعها وأتأمّلها وأكلّمها ثم أدسّها أسفل قصاصاتي. جلست زينب على هذا المكتب قليلاً لكنّها لم تكتشفها، ولم تهتمّ بقراءة مدوّناتي الواضحة تمامًا أسفل الزجاج بقدر اهتمامها بسرعة إنجاز تحقيقها، أو فبركة موضوعاتها.

كان أمامي وقت طويل قبل الاستعداد لحضور حفل وداع العزوبيّة للمواطن الألماني «إيفالد» الذي يسمّى الآن «عوض» بعد أن أشهر إسلامه الشهر الماضي، تمهيدًا لزواجه من عائشة المصريّة التي تعمل موظّفة في جمعيّة الصداقة المصريّة الألمانيّة. عوض صديقي منذ عامين وقد عرّفني عليه عصام صديقه الأقرب. أحببته ودخل قلبي بسرعة، فهو دمث و«جدع» بمفهوم ابن البلد، رغم أنّ هذا رابني في بادئ الأمر، فالألمان يبدون خلافًا لذلك. عوض ألماني شرقي مازالت ميوله الفكريّة تجنح إلى اليسار حتى بعد هدم الجدار الفاصل بين بلديه والتضامن أسفل الراية الغربيّة. جاء إلى مصر بتكليف من شركة مرسيدس العالميّة للتدريس بالجامعة الألمانيّة بالقاهرة وتدريب مهندسي المستقبل، عوض هو الغربي الوحيد الذي ساعدته في تعلّم اللغة

Twitter: @ketab_n

العربيّة بدون مقابل باعتباره صديقًا، بعد أن تلاقت أذواقنا في النبيذ والمشويات وآراؤنا السياسيّة التي تتعارض مع آراء معظم الغرب. عارضتني مارشا كثيرًا في أن أعطي جزءًا من وقتي دون مقابل، وقالت لي: لو أخوك طلب أن تدرس له، فلابدّ من مقابل.

عوض ذكي ولمّاح. الْتهم اللغة الدارجة بسهولة كبيرة حتى أصبحنا نستغني عن اللغة الوسيطة بيننا، وصرنا نتكلّم بالعاميّة المصريّة بناء على طلبه وإلحاحه، وكعادة الأجنبي إذا ما قابلته مفردة غريبة يسارع بتدوينها في مسوّدة، ثم يبدأ في استعمالها على الفور. فجأة وجدت نفسي لا أطيق الورق والكتابة وأحنّ إلى الانهماك في أيّ عمل يدوي مضنٍ، فغادرت الشقّة سريعًا إلى بيت الطالبيّة، وانهمكت في طلاء أفاريز لوحات عصام بالجَمَلُكَّة وإصلاح الرفوف وترتيب الاسكتشات وكنس الأرضيّة حتى أُنهكت تمامًا ونمت فترة القيلولة هناك. بمجرّد أن عدت إلى شقّتي بوسط البلد وأنهيت حمّامي، جاءني عصام في الموعد بالضبط واتجهنا إلى منزل عوض بالمعادي لحضور الحفل.

حفل «وداع العزوبيّة» هو حفل أميركي الأصل على ما أعتقد، أخذه عنهم الأوروبيّون. يلتقي فيه أصدقاء العريس الحميمون ليقضوا وقتًا سعيدًا مع نساء غريبات وأصدقاء جدد وخمور شتّى، ويحتفل فيه العريس بآخر يوم من أيّام عزوبيّته. مارشا كانت تعلم بأمر الحفل وهمست في أذني ضاحكة بألاّ أبالغ في الشرب والعربدة وإلاّ ستقيم حفلاً قريبًا لوداع عزوبيّتها وتكيدني. ثم اتفقت معي على اللقاء صباح اليوم التالي للحفل.

فاجأت عصام بأنّي طليت براويز لوحاته ورتّبت اسكتشاته، وبدا عليه كأنّي ذكّرته بها لأنّه شرد قليلاً، ثم قال إنّه سيأتي إليّ قريبًا في بيت الطالبيّة لينتقي منها بعض اللوحات والاسكتشات التي قد تلهمه عمل لوحات جديدة لمعرضه القادم بالقاهرة.

Twitter: @ketab_n

وصل إلينا ضجيج الحفل المدوّي ونحن أسفل المنزل. قابلنا البوّاب بترحاب شديد، وكنت متحيّرًا كيف يتحمّل الجيران كل هذا الدوي والإزعاج دون شكوى. لحقني عوض ببعض السجائر الملفوفة، ثم بالويسكي وشربت ورقصت كثيرًا حتى بدأت الأشكال التي ترقص حولي تتحوّل إلى هلاميات، وبدأ عصام يضايقني بإصراره على مغادرتي الحفل. فغضبت منه واستنجدت بعوض، واندمجت فيما أنا فيه، ولم أعرف عنه شيئًا خلال هذا الحفل الذي يبدو أنّه غادره عقب حديثه مع عوض. استيقظت على صداع رهيب مع ميل للقيء، وكانت هناك سمراء عارية نائمة على صدري تغطّ في نوم عميق، أزحتها وجريت إلى الحمّام متخلّصًا ممّا في بطني، ثم اتجهت إلى المطبخ وجهّزت لنفسي كوبًا كبيرًا من النسكافيه الأسود. أفقت وبدأت أستعيد التركيز وابتسمت مندهشًا حين رأيت كل هذه الأجساد العارية الراقدة في الهول وفي الغرف وكل مكان بالشقّة، وكيف عبرتها دون أن أصطدم بها عند ذهابي إلى الحمّام. استيقظ عوض على صوت حركتي بالمطبخ فأعددت له كوبًا ابتلعه بسرعة، وعقب خروجه من الحمّام أطلق فيهم صيحات حتى استيقظوا وبدأوا يرتدون ملابسهم وهم يأكلون ما يجدونه بالمطبخ من فواكه وعصائر وبقسماط وباتون ساليه، ثم بدأوا يغادرون المكان فرادى. اقتربت منّي السمراء وقبّلتني طالبةً رقم تليفوني وعوض ينظر إليها مبتسمًا. بحجّة ما لم أعطها الرقم. وعندما سألته عنها ضحك بشدّة، وقال إنّها إريتريّة وإنّني قد عرضت عليها الزواج ليلة أمس. كانت قد رحلت ولم أكن قد عاينتها جيّدًا لأقرّر أن أستمرّ في موضوع زواجها أم لا.

كانت شقّة عوض قد أصبحت ساحة فوضويّة بعد معركة بدائيّة، عرضت عليه المساعدة فقال إنّه لديه من يقوم بذلك.

Twitter: @ketab_n

جلست في مقهى قريب من جاليري «الكاتاكومب» في انتظار مارشا. غير بعيد عن منزل عوض. يمتلك جاليري الـ cata comp فنّانان تشكيليّان مصريّان من أصدقاء عصام، وفنّان تشكيلي إنجليزي، والكاتا كومب اسم لاتيني صادم جدًّا ومعناه «المقابر الجماعيّة»، ورغم أنّ الجاليري يحتلّ بدروم عمارة ضخمة بالمعادي، إلاّ أنّ ديكوراته وقاعاته وبهوه الرحيب تضفي عليه بعدًا أسطوريًّا. . عصام يسوّق معظم لوحاته ومنتجاته الخشبيّة وتحفه المصنوعة بإتقان في هذا الجاليري. لو أنّك من روّاد المكان لاستغرقت يومًا كاملاً لمتابعة التفاصيل الدقيقة على الجدران والسقف بالإضافة إلى المقتنيات التي تمثّل فنون الكرة الأرضيّة من الفنّ البدائي إلى ما بعد الحداثة. لم أعرّف مارشا على هذا الجاليري، إيفلين تكفّلت بهذا، وما إن زارته مارشا حتى أصبحت مفتونة به تنتهز الفرص والمجاملات لتشتري من بضاعته كي تهديها لأصدقائها ومعارفها. أغلب مشترياتها من السجّاد اليدوي والخزفيّات التي تنتجها صديقتها إيفلين، المكان مشغول دائمًا بروّاده من الأجانب العابرين والمقيمين ورجال السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي وزوجاتهم وبعض زوجات رجال الأعمال. بمجرّد دخولك الجاليري تصبح داخل لوحة تشكيليّة متعدّدة المدارس والمذاهب. فأنت بين الفورير والمنك والردنجوت والعقال العربي وبِدل الجينز والكاجوال، وأنفك عليه أن يستقبل روائح أدخنة تبغ غريبة ممزوجة بروائح عطور شانيل وكريستيان ديور والمسك العربي والدلكة السودانيّة والإفريقيّة.

توقّفت مارشا بسيّارتها أمام المقهى وأشارت إليّ بالصعود بجوارها حتى نُدخِل السيّارة معًا إلى الكراج. وراحت تتفحّصني وتهندمني، ثم تشمّمتني وأخرجت عبوة بارفان صغيرة وطلبت منّي فتح فمي ووجّهت الرشاش داخله. كان هذا البرفان يزيل روائح الفم والخمر والتبغ،

Twitter: @ketab_n

وكنت معتادًا أن تستخدمه معي في سهراتنا الخارجيّة، لا قبل الظهر، لكنّني لم أعترض.

انتقت مارشا سجّادة حائط يدويّة مرسومة بإتقان، وانتقيت مكتبة صغيرة كنت أعرف أنّها من صنع عصام. ضحكت مارشا بصوت مكتوم، ثم انتقت علبة للمجوهرات كنت أنا وهي نعرف أنّها من صنع عصام. دوّن مدير الجاليري عنوان إيفالد كي يرسل هذه الأشياء إليه بعد أن ألصقنا عليها كروتًا بإسْمينا.

لم تبدأ مارشا الحديث عمّا دار أمس بحفل «وداع العزوبيّة» وبدت غير مهتمّة، اهتمّت بالحديث عمّا يجب أن أرتديه وما يجب أن أتعطّر به ليلاً في حفل الزفاف، وودّعتني معتذرة عن حضور عقد القران بمسجد النور عقب صلاة المغرب، وطلبت منّي أن أخبرها بموعد ومكان الحفل حتى تقابلني هناك.

قابلني عصام باستياء وحدّة لم أعهدها فيه من قبل. أخبرني بأنّني تطاولت عليه وأنّني تقريبًا قد طردته من الحفل، وأنّه لاحظ تردّي حالتي وسوءها ورفضي الانصياع لرجائه بأن أتوقّف عن السُّكر، وأنّني كنت كمن يرغب في الانتحار. لا أتذكّر شيئًا من هذا على الإطلاق. فاعتذرت له وسكتُّ. عاد إليه صفاؤه وطلب منّي أن أحكي له ما فاته. لم أتذكّر شيئًا عدا الفتاة الإريتريّة فحدّثته عنها وعن مشروع الزواج، فضحك بشدّة وهو يقول: مش بعيد تكون اتجوزتها بالليل وبعد تسع شهور تبليك بولد، فجأة وجدت نفسي أندفع وأقول: يا ريت. حدّق عصام في وجهي مليًّا فخجلت.

كان عقد القران بمسجد النور يكاد أن يكون وهميًّا، فعوض وعائشة قد وثّقا زواجهما بالشهر العقاري وفي السفارة الألمانيّة بالقاهرة، لكن عقد القران على يد مأذون ضروري وواجب أمام أهل العروس وصديقاتها. تمّت المراسيم باستثناء توقيع عقود الزواج وانصرف أهل

Twitter: @ketab_n

العروس والحاضرون، عدا قلّة وثيقة الصلة بالعروس إلى الحفل الصغير الذي أقامه العريس احتفالاً بزفافه. لحقت بي مارشا وجلست إلى طاولتي التي يجالسني بها عصام وبعض الفنّانين التشكيليين. رقصت مع مارشا ورقص عصام مع زميلة تشكيليّة، وكانت السهرة ناعمة جميلة لم يكدّرها شيء، بخلاف تغابي عصام مرّة عندما كنت أحدّثه عن جمال الليلة، وقال بخبث: عقبال ما تعملها بقى.. انت ناوي تعنّس؟

لاحظت تكدّر وجه مارشا واحتقانها ولم أفهم في بادئ الأمر سبب تكدّرها، فالمفروض أن يسرّها ما قاله عصام لأنّه يتمنّى أن أتزوّجها. عصام أيضًا لاحظ آثار السمّ الذي بصقه في وجه مارشا، فاعتدل وتراجع وبدأ يمازح مارشا وينكّت معها بالإنجليزيّة.

أتى عوض بعائشة وجلس معنا قليلاً، ثم شكر كلاًّ منّا على ما قدّمه إليه من هدايا وانصرفا إلى منضدة أخرى. كنت قد أغلقت جهازي المحمول، وكلّما أخرجته لمعرفة الساعة أو من اتصل بي، وجدت رنّات من زينب أو أرقامًا مجهولة، ثم خمس رسائل متتاليّة منها. ذهبت إلى الحمّام لأقرأ هذه الرسائل على راحتي، وكانت كلّها تقريبًا نسخًا مكرّرة مضمونها «عايزاك ضروري ردّ عليَّ».

لم يكن من الذوق ولا الكياسة أن لا أصطحب مارشا إلى بيتها، وكانت خلال رقصنا سويًّا قد تركت بخياشيم أنفي رائحة نداءات جسدها المتأوّد. ضحكت بشدّة عندما سألتها عمّا كدّرها في كلام عصام، فذكرت أنّها أحسّت أنّه بخبث يريد أن يزوّجني من سنغافوريّة شبيهة بزوجته سامنثا، أو سامنثا نفسها ربما أخبرته أنّ لديها زوجة مناسبة لي. كلّما تذكّرت هذه الواقعة أضحك وأشعر بانتشاء ورجولتي تزكم أنفي.

حدث لي هذا سابقًا مع مارشا في بدايات علاقتنا، عندما طلبت

Twitter: @ketab_n

منّي أن أحدّد طبيعة علاقتنا، فقلت لها على استحياء أصدقاء مقرّبين. وكنت أتصوّر غضبها وحدّتها، لكنّها فاجأتني بابتسامة وقبلة على فمي، وقالت بعدها إنّها موافقة. وحين حملت سألتني بهدوء: هانعمل إيه؟

هكذا ببساطة كأنّها تأخذ رأيي في لون السوتيان. طلبت منها بخوف وحذر التخلّي عنه، فاحتضنتني ووافقت وهي تهمس في أذني بأنّ كل ما أريده طالما أنّنا اتفقنا عليه فستنفّذه فورًا. هنا حدثت لي الحالة السابقة نفسها، حالة الانتشاء الذكوري. ومن بعد هذا الموقف بدأتْ في استعمال حبوب منع الحمل بانتظام بعد أن رفضتُ أنا استخدام الواقي الذكري، فهو حائل غير طبيعي على أيّة حال.

على ذكر حبوب منع الحمل هي في الأصل اختراع ألماني، حين كلّف أدولف هتلر علماءه باختراع دواء يستخدم في إخصاء الرجل أو تعقير المرأة بهدف استخدامه على الشعوب المزمع احتلالها حتى لا تتكاثر ولا يختلط دمها بالدم الآري المقدّس.. وبذلك يحفظ نقاء الدم الآري إلى الأبد. فشل هتلر في الحرب وانتحر، وهرب علماؤه إلى أوروبا وأميركا حاملين مسودات اختراعهم الوليد، ودعمتهم أميركا بالمعدّات والأموال، لكن الاختراع لم ينجح عندما استخدم على النساء البورتوريكيّات والأفروأميركان، بل أدّى إلى توقّف حمل مؤقت. ومن هنا جاءت فكرة استخدامه لتحديد النسل واعتبره العسكريّون أهمّ إنجاز في خدمة المرأة، بل أصبح رمزًا لتحرّر المرأة في الستينيّات.

تستخدم مارشا الآن الدواء الذي كان من المقرّر أن نباد به، وينقّى الجنس البشري به منّا. ويبدو أنّني أخطأت عندما منعتها من الحمل منّي بعد ذلك، وكان من الأفضل أن ألوّث نقاءها بنطفة من نطف أفريقيا.

Twitter: @ketab_n

ضقت ذرعًا بالدروس والمرور على شقق تنتج صحفًا خاصّة، وعدت إلى البيت متعبًا مهدودًا ونمت من فوري في الصالة حتى أيقظني رنين الجرس المزعج المتواصل، قمت بحنق وقابلتها بوجوم وغضب وكدت أن أقفل الباب في وجهها. إنّها زينب كما هي. أزاحتني بلامبالاة ودخلت. كوّمتني على الأرض وأنا في حالة خلط بين النوم واليقظة ولا اتزان لديّ. اشتعل غضبي وظللت أصرخ فيها وأسبّها غير عابئ بالجيران ولا السكّان ولا الكون كلّه. التفتت إليّ وكأنّها من سكّان مجرة أخرى لا تفهمنا ولا نفهمها، وأقبلت عليّ بالابتسامة البلهاء نفسها، ثم مدّت إليّ يدها لأتعلّق بها. ولما أبعدت يدها عنّي بضيق لم تبتعد ولم تتراجع، انحنت وأحاطتني من أسفل إبطي ورفعتني بغتة وأنا مازلت أهدر سبابي ولعناتي، وأكاد أجنّ من حملي كطفل صغير، وصرت أحرّك قدميّ كالصبي العنيد، وأجاهد قوّتها العاتية حتى ألقت بي على سرير غرفة النوم، وتجاهلتني تمامًا كأنّها عدّلت صفيحة قمامة بحاجة إلى اعتدال. هدأت ثورتي وسكنت لرقدتي وصرت مكتفيًا فقط بسماع أصوات صدى ما تفعله بالخارج، الشيطان وحده يمكنه التغلّب على هذه الأنثى الواقفة الآن على حافة سريري في سروالها الداخلي وتعدل صديريتها باهتمام، وهي تحدّثني عن أسباب تجاهلها وعدم الردّ على هواتفها ورسائلها. ثم لم تنتظر إجابتي. خرجت وعادت بزجاجة ويسكي. صبّت منها كأسًا لنفسها وآخر لي وتحرّكت مرّة أخرى والكأس في يدها.

كان الزمن مفقودًا بالنسبة لي، ولا أدري ما التوقيت، هل هو قبل منتصف الليل أم بعده؟ وبدأت الأصوات الصادرة من زينب وهي بالخارج، مع دخولها المتوالي لتعبئة كأسها والصبّ لي، مع تخيّلاتي التي تتداخل وتتشابك، ثم بدأت أراها اثنتين ثم أربعًا، ثم أطيافًا

Twitter: @ketab_n

هلاميّة ثم أدركتني الغيبوبة.. مئات من الكوابيس والأحلام المحبطة ظلت تتدافع بداخل رأسي مع أصوات دوي عملاق، استيقظت بعده وأخذت فترة حتى أدركت أنّه صوت الغسّالة الكهربائيّة، وبدأت أتيقّن من وجود زينب. سرت عابسًا تجاه الحمّام فوجدتها مرتدية جلبابي ومنهمكة في إدارة الغسّالة على ملابسي وملابسها. التفتت على صوت خطواتي وقابلتني بابتسامة طفلة شقيّة، وهي تقول: صباح الخير، لم أسمعها وسط هدير الغسالة المتزامن مع صداع سخيف أقام برأسي منذ استيقاظي. لكن حركة شفتيها أراحتني وامتصتني لا أدري لماذا! افتعلت الغضب وهتفت: غسيل على الصبح، أومأت إلى شبّاك الحمّام الذي تتخلّله أشعّة الشمس وقالت مازحة: قصدك عزّ الظهر.. إتشطف في الحوض لحدّ ما أخلص. أهملتها ودخلت الحمّام وجلست بملابسي متصوّرًا أنّها ستحسّ وتتحرّك.. لكن لا فائدة. ظلّت تنظر إليّ بتحدٍّ لكن بمجرّد تحرّكي نحوها مغتاظًا جرت، وأغلقت خلفها باب الحمّام.

أنهيت حمّامي وجلست في الصالة منتظرًا أن تنتهي ممّا تفعله، حتى هاجمتني رائحة البيض المقلي. انتبهت لنفسي: كيف أطعتها بهذه السهولة؟ كيف تحمّلت الضجّة التي تحدثها دون أن أفتك بها؟ كيف قبلت دور الزوج المسكين المقهور دون ردّة فعل حاسمة؟

إنّها تعد الآن طعام الإفطار ولم تسألني ماذا آكل؟ أو ماذا أفضّل القهوة أوّلاً أم الإفطار؟ إنّها اليوم بالذات تعاملني كزوجة مستبدّة وأنا بعلها الذي لن يجرؤ على فتح فمه.

قبلت كل ما يحدث صاغرًا، والتهمت ما أمامي من بيض وجبن ومقبّلات وشربت كوب الحليب الدافئ. ثم انتبهت إلى شيء كان غائبًا عنّي: أين نامت زينب بالأمس؟ لم أحسّ بثقل جسدها ولا رائحته

Twitter: @ketab_n

المميّزة، لم تصطدم قدمي بمؤخّرتها ولا يدي بصدرها، لم أجدها جاثمة فوقي تقبّل ما تيسّر منّي.. لم يمتلئ أنفي برائحة غنجها. لم أجد قطعة من ملابسها معلّقة على مسند السرير أو ملقاة بجواري أو مشتبكة بقدمي عند النزول. سألتها، فضحكت بشدّة وهي تشير إلى الغرفة الثانية. اندهشت وقلت لها ساخرًا: ما خوفتيش تنامي لوحدك؟ ضحكت وأخرجت لسانها. أثارتني بهذه الحركة، فقمت تجاهها وحضنتها وقبّلتها على وجنتيها لكنّني أحسست ببرودة شفتّي، وكأنّهما سحبتا الروح من وجهها بمجرّد أن احتضنتها. تحرّكت بخبث تجاه حلمة أذنيها «مكمن إثارتها».. ارتعدت ولأوّل مرّة منذ علاقتنا تدفعني بيدها بعيدًا. صدق حدسي وتأكّدت مخاوفي. أمسكت بيدها واتجهت بها نحو غرفة النوم. كانت يدها في يدي بملمس فريزر الثلاجة نفسه. وكانت تهزّ رأسها رافضة وهي تقول بتوسّل: مصطفى.. بلاش عشان خاطري، جلست بعيدًا عنها مكتئبًا. لم أكن بحاجة لممارسة الجنس معها، فقد أنهكت نفسي بالأمس مع مارشا. ولم تكن الدورة الشهريّة أو الزلازل أو البراكين لتمنع زينب من ممارسة الجنس. إنّما منعها الحبّ. أنا أعرف ذلك وأحسّه في الأنثى. لقد أفلتت زينب منّي وبدأت هزائمي تتوالى.

كانت ترقبني بأسى وحيرة ربما غير مصدّقة أنّي أهتمّ بها هذا الاهتمام، وخشيتُ أن تتراجع، أو تصرّ على موقفها فتهتزّ صورتها في ذهني المضطرب أساسًا. مددت إليها يدي بعلبة السجائر، فأشعلت واحدة بفمها ونهضت ووضعتها بفمي كعادتها، ثم أشعلت لنفسها سيجارة أخرى. بادرتها بالسؤال عن أخبار السفر. قفزت من مكانها وكأنّها تنتظر منّي هذا السؤال. جذبت حقيبتها من الداخل، وعادت في أقلّ من ثوانٍ. ثم راحت مزهوّة تُخرِج ما بالحقيبة من أوراق وهي

Twitter: @ketab_n

تستعرضها أمامي. أوراق مختومة وموثّقة ومكتوبة بالإنجليزيّة، الورقة التي تظهر كاملة أمامي، تقول إنّ المدعو خوليو اندراس صاحب فرقة «أحلام الشعوب» الغنائيّة، يدعو الآنسة زينب حسين لزيارة المكسيك على ضمانته الشخصيّة. ألقيت بالأوراق إليها متظاهرًا بعدم الاهتمام. فتحت جواز سفرها وإصبعها على ختم السفارة وتأشيرة الدخول، كان موضوع سفرها بالنسبة لي هزلاً في هزل، وكعادتي في التشكّك والتي سأموت بها لم أكن أصدّق أنّها من الممكن أن تحدث. لكنّ المستحيل قد حدث.

لم أسألها عن كيفيّة حصولها على موافقة المؤسّسة التي تعمل بها إذا كانت تعمل أصلاً، أو النقابة إن كانت صحفيّة حقيقيّة!! أو حتى موافقة والدها. لم أسألها كيف تجنّبت البيروقراطيّة الحكوميّة العقيمة، وخلصت منها في مدى أشهر قليلة. أو كيف صدّقها الغبي المأفون خوليو وأرسل إليها دعوة لزيارة بلده، وهو لم يتعرّف عليها إلاّ في الشوارع والبارات والمطاعم. لم يلتق بأهل لها أو صديق. لم يتأكّد إذا ما كانت مجنونة أم عاقلة. بلهاء أم ذكيّة. أيضًا لم أتخيّل ماذا يمكنها أن تفعل هناك بدون لغة ولا نقود ولا موهبة حقيقيّة، عدا كونها أنثى شبقة.

كانت زينب الساكنة الآن عدا عينيها اللتين تحدّقان في وجهي، كأنّي قد تعرّفت على فتاة لتوّي، وسرت معها بضع خطوات، وفجأة وجدتها تقفز إلى سور كوبري قصر النيل ثم توازن قدميها على الإفريز الحديدي الضيّق، وتأخذ نفسًا عميقًا، تفرد بعده ذراعيها يمينًا وشمالاً تعانق بهما الهواء الذي يملأ صدرها، ثم تهمّ بالقفز إلى النيل. ماذا بوسعي أن أفعل؟ أتركها تقفز وتغرق، أم أبقى متفرّجًا على رقصة الموت حتى انتهائها؟ هل أستطيع إقناعها بالتراجع عن السفر، حتى لو ترتّب على ذلك تعلّقها بي كالعلقة؟ هل أصمت وأتجاهل؟

Twitter: @ketab_n

كانت لاتزال تراقبني بصمت، ثم قامت تنزع ملابسها وهي تتحرّك باتجاه الحمّام. ثم تعالى صوت غنائها، فنهضت خلسة لأتأكّد ما إذا كان باب الحمّام مفتوحًا. كان مواربًا كالعادة. ظللت أنتظر اللحظات التي تلي غناءها، حيث تنادي عليّ كي أدعك ظهرها بالليفة الخشنة، وتتفجّر أنوثة، وهي ترقبني أتأمّلها، ودشّ البانيو يسقط على جسدها بللورات فضيّة تتلألأ. لكنّني انتظرت ولم تناد عليّ. خرجت ولاحظتْ تغيُّري. اقتربت منّي بشفتيها وظلّت تقبّلني من أسفل ذقني حتى أعلى صدغي من الجهتين. وقالت باستنكار: إيه ده.. دقنك بتشوّكني، ثم فجأة جرت نحو الحمّام وغابت لدقائق، ثم عادت تجذب يدي وتشدّني تجاه الحمّام، كان رف الحوض عليه عدّة الحلاقة وبجوارها الطبق الذي تبرّد فيه المياه وتتخلّص من الشعر العالق بالفرشة. جذبت الكرسي الخشبي وأجلستني بالقوّة، ووضعت على صدري الفوطة وانطلقت تحلق لي ذقني. كانت تحبّ أن تحلق لي ذقني بنفسها، ولا أعرف ما الذي يدعوها إلى ذلك، ولم أسألها طيلة علاقتنا. جرحتني جرحًا طفيفًا. وهمَّت أن تلعقه كما كانت تفعل، لكنّها توقّفت في نصف المسافة، وجرت إلى حقيبتها وعادت بقطنة مبلّلة ببعض البرفان مسحت بها جرحي. أشارت إلى ملابسنا المعلّقة على حبال الغسيل وقالت آمرة: بعد أن ينشفوا طبّقهم وسيبهم لي المرّة الجايّة أكويهم.

لبست وتعطّرت وبدت متأهّبة للرحيل. غافلتها ودخلت غرفتي ثم عدت إليها، وعندما كانت تقبّلني مودعة، دسست في جيبها ألف دولار. أحسّت بيدي وتحسّست النقود ثم جنّت تمامًا، ألقت بها على الأرض، وكادت تبكي وهي تقول: دول تمن إيه؟

عجزت عن الردّ لحظات ثم تماسكت، وقلت لها أشياء كثيرة عن الصداقة والمشاركة، وإنّني لو كنت في مثل ظروفها كنت سأطلب منها. قالت بحسم وجزم إنّ خوليو أرسل إليها مبلغًا معقولاً بالإضافة

Twitter: @ketab_n

إلى التذكرة، وإنّها اشترت ما يلزمها، وستعطي الباقي لأهلها، إلى أن تتاح لها فرصة إرسال نقود إليهم من المكسيك.

كانت الأوراق الماليّة ملقاة على الأرض، وقدماها تبتعدان عنها باتجاه الباب. ثم فجأة توقّفت، واستدارت نحوي وقالت بتشكّك: إنت عايزني أودّعك فعلاً قبل ما أسافر، ولاّ عملت الحركة الخرا دي عشان ما أجيش تاني.

كان الخزي يتلبّسني، وأعتقد أنّ فمي خرجت منه بضع كلمات تناشدها بأن تزورني قبل السفر.

Twitter: @ketab_n

ـ ٢٠ ـ

انقطعت عن العالم تقريبًا إرضاءً لمارشا وبدأت في التحضير لفيلمنا القادم، ولحسن الحظّ نجحت بكثير من الجهد في إقناعها بتنفيذ سيناريو «الخطر القادم»، على مرحلتين: المرحلة الأولى في قيظ يوليو وأغسطس والمرحلة الثانية خلال شهري ديسمبر ويناير في فترة البرد القارس. ويسبق هاتين المرحلتين معايشة شبه كاملة لكريم وشلّته أرصد فيها أفعالهم وأتابع أحوالهم عن قرب. أقنعتها بأنّي سأرقب تفتّحهم كبراعم صغيرة، ثم كفراشات تغادر شرنقتها في الربيع وأتابع أحوالهم تحت قيظ الحرّ ووسط الصقيع. أعجبتها الفكرة تمامًا وإن بدت قلقة من المدى الزمني الطويل الذي حدّدته وعرضت أن تأتي بفريق تصوير غربي محترف، تتحمّل هي كلفته أو بفريق مصري إن رغبت أنا. رفضت بشدّة، فالأولاد لو أحسّوا بأنّ أحدًا يراقبهم سيتصرّفون بغير طبيعتهم، كما أنّنا سنكون عرضة لأسئلة الأمن وتدخّلاتهم، والرقابة أيضًا لن تسمح لنا بتمرير هذا السيناريو. رضخت أخيرًا. وكنت في حاجة إلى هذا الوقت الطويل لألملم ذهني المشتّت في سبيل اتخاذ قرار صائب مرّة واحدة في حياتي. وكنت متصوّرًا أنّ مارشا ستكتفي بمتابعتي عن بعد ولن تتدخّل في التفاصيل وستتركني أعمل أو لا أعمل على حرّيّتي. لكنّني كنت واهمًا جدًّا لأنّها بعد أسبوع واحد من اتفاقنا استدعتني وأهدتني كاميرا ديجيتال احترافيّة واردة من الخارج (من أميركا على الأغلب لكنّها صناعة ألمانيّة). كما ألزمتني بخطّة عمل متقنة راعت فيها جداولي الدراسيّة وأعمالي المؤقتة بالصحافة

Twitter: @ketab_n

والأوقات الخاصّة، التي يمكن أن نقضيها معًا والأوقات التي من الممكن أن أتابع فيها موضوع الفيلم، ودفعت لي دفعة ماليّة كبيرة تحت حساب عمل الاسكربت وفوجئت أيضًا بها تصطحبني إلى محام متخصّص في قضايا حقوق الملكيّة الفكريّة، وتمّ الاتفاق على مسوّدة عقد بيننا حرصت فيها على اتخاذ كافّة الضمانات القانونيّة لعدم تشويه فكرتي، بحكم أنّ اسمها طُرح كمخرجة ومنتجة للعمل، وألزمتها ببند صريح بعدم حذف أو إضافة أيّ مشاهد إلاّ بموافقة كتابيّة منّي. كنت أتكلّم مع المحامي وأعاملها كما لو كنّا خصمين يتواجهان أمام محكمة، وكنت أعتقد أنّها ستغضب وترفض إتمام الاتفاق، لكنّها وافقت ببساطة وهي تقول: ده أمر طبيعي، فالعمل سينسب إليك كما ينسب إليّ. إزاي تتصوّر أن أضيف أو أحذف مشاهد من غير موافقتك؟

لأوّل مرّة نتواجه هكذا أمام غرباء ونتعامل بعقود واتفاقات لم نتكلّم فيها مسبقًا. أصبحنا نلعب في مساحة مكشوفة الآن وكنت أتصوّر أنّني المنتصر، لكنّها وافقت على كل شيء ووقّعت بثقة وارتياح إلى درجة أنّني تعاطفت معها واستبعدت هواجسي ووساوسي قليلاً.

كنت قد تورّطت بالكامل ودخلت مستنقع الشكّ والريبة بالتعامل مع أجانب في العلن، وفي مواضيع قد تمسّ الوطن أو قد يساء فهمها، أو قد تؤلّب عليّ الجميع أصدقاء وأعداء.

لمّا خلوت إلى نفسي كان القلق قد تمكّن منّي وأحسست بأنّ الشيطان يخرج لي لسانه ويضحك عليّ، فقد هربت من أميركا في الماضي وها أنا أخدم أهدافها الآن. مارشا تقيم بمصر كل هذه المدّة وتغيّر رسائل الدكتوراه كما تغيّر ملابسها الداخليّة، ثم فجأة تقرّر أن تصبح مخرجة لمجرّد أنّها درست الإخراج في أميركا قبل أن تأتي إلى الشرق. وأنا أعرف كيفيّة الحصول على دبلوم الإخراج من هناك..

Twitter: @ketab_n

ثلاثة فصول دراسيّة مدّة الفصل ثلاثة أشهر. تتلقّى دروسًا على أيدي العاملين بالسينما الهوليوديّة من العاطلين أو المتوقّفين عن العمل منذ فترة وتحصل على شهادة لتعلّقها بالبيت لا لتُخْرِج بها. شاهدت فيلمها القصير جدًّا (مدّته ٨ دقائق) الذي تخرّجت به في المعهد، وكان فيلمًا أقلّ من العادي، وشاهدت لها فيلمًا آخر مدّته ٣٠ دقيقة وكلّه ثرثرة وادعاء. كيف عادت إليها فكرة الإخراج، ومن السبب في عودتها: كلامي عن أولاد الشوارع وتخوّفي من هذه الظاهرة أم قدرتها العجيبة على رصد القنابل الموقوتة داخل المجتمع المصري؟ أم أنّها تلقّت توجيهًا من هناك؟

أنا أسير جسدٍ ورغبةٍ لا تنتهي وأعرف أنّ هذا الداء سيكون سبب فنائي، وأنّني لن أنجو ورغم ذلك لا أودّ الإفلات حتى على سبيل المحاولة. قد يكون أطبّائي مصيبين في آرائهم عنّي وتحليلاتهم لنفسيّتي. قد يكون هذا كله وهمًا أو شيئًا عاديًا جدًّا وأنا أضخّمه بمرضي. أنا لن أدافع عن دولة ولا عن مجتمع، وأنا شخص نكرة لا أُذكر.

بدأت في وضع الخطوط العريضة للسيناريو، وأبيت على نفسي أن أقدّم هؤلاء الأطفال كمزار سياحي يدهش الغرب ويفتنه، ولن أقدّمهم كأطفال اختاروا الشارع بإرادتهم، سأدين الأهالي والحكومة والمجتمع كله وكذلك المجتمع الدولي الذي يشغل الحكومات بمصالح وأهداف وصراعات، فتتردّى الشعوب شيئًا فشيئًا. كانت أمامي إحصائيّات مرعبة بخطّ مارشا من منظّمة الصحّة العالميّة تقدّر عدد الأطفال المشرّدين بمصر بما يزيد عن مليون طفل مُشرّد. قد يكون هذا الرقم مبالغًا فيه لكن لو كانوا يُقدَّرون بنصف هذا الرقم لكان الموقف رهيبًا. إنّنا نحتاج إلى مائة فيلم تسجيلي على الأقلّ لرصد هذه الظاهرة، وكي ننبّه لخطرها ونقترح الحلول.

Twitter: @ketab_n

للشارع قانون غير معلن ورؤساء وبلطجيّة وتابعون ضعفاء. . أرصفة المشاة يحتلّها بائعو الفواكه والخضر والشامبوهات وأدوات التجميل المضروبة والجوارب والكوتشيهات غير آبهين بقوانين إشغال الطريق ويحلّون مشاكلهم مع السلطة بنقود يحمّلونها على ثمن البضاعة.

يستيقظ طفل الشوارع ولا يجد ما يأكله، فيبدأ بخطف برتقالة أو جوافايّة أو حبّة خوخ أو مشمش، ويثير جنون البائع الذي يطارده ولا يقدر على اللحاق به. كما أنّهم يضايقون المشترين وخاصّة النساء بالتحرش والإيذاء الجسدي العنيف الذي يهربون بعده. أمّا ليلاً فهم يتسلّون باستخدام أمواسهم الحادّة في شقّ المشمّع الذي يغلّف به البائعون عرباتهم الخشبيّة، قبل أن ينصرفوا إلى منازلهم ويسرقوا ما تقع عليه أياديهم. ينتقل الصراع إلى مرحلة أكبر عندما يدفع البائعون لرجال الشرطة كي يطاردوا أولاد الشوارع، ويؤذوهم بدنيًّا ويلقوا بهم في السجون مع عتاة الإجرام، أو قد يتّفقون مع رجال العصابات والمافيا على قتل هؤلاء الأولاد ووأدهم أحياء، كما يحدث في شيلي والبرازيل وغيرهما من دول العالم الثالث. الخطر القادم الحقيقي ليس من الأولاد الذين صُرعوا وقُتلوا بأيدي الشرطة ورجال العصابات. الخطر القادم سيأتي من الأولاد الذي نجوا وأفلتوا من الموت. ما مرّ عليهم من إيذاء جسدي رهيب سيدفعهم دفعًا لمطاردتنا في الشوارع وسلبنا واغتصاب بناتنا ولن يتورّعوا أيضًا عن اقتحام مساكننا. لقد رأيت من واجبي أن أنبّه إلى هذا الخطر، أنا الذي لم أترك بصمة على ظهر الحياة أريد أن أعلن احتجاجي وأنبّه إلى هذا الخطر.

بدأت رؤيتي للفيلم منطلقًا من هذا التصوّر وعملت بأكلي كما يقول المثل العامي، والدولارات لاتزال ساخنة بدرج مكتبي واصطحبت مارشا في النهار لمقرّ إقامة كريم وشلّته. كنت أعرف أنّها ستتأذّى ممّا

Twitter: @ketab_n

سوف تراه، ولن تكرّر التجربة وهذا ما دفعني لاصطحابها. كان كريم ينتظرنا داخل البيت الذي عبرنا إليه وسط دهشة المارّين الذين توقّفوا وهم يتابعوننا بفضول. مصري يقود أجنبيّة شقراء تخطو بصعوبة فوق الحصى والأحجار، وهما يدخلان بيتًا قديمًا مهدّمًا في معظمه. كريم كان واقفًا بالمدخل يستقبلنا بترحاب ويعاملنا كصاحب البيت المضياف، وكانت عشرات العيون تتابعنا بدهشة وحيرة. تجوّلنا بين أطلال وأروقة الدور الأرضي وما تبقّى منها. لم تجرؤ مارشا على الدخول في الغرف الكابيّة المظلمة بالدور الأرضي واكتفت بمحاولة النظر إلى داخلها من أمام الباب. كانوا قد توقّفوا عن متابعتنا ووجود كريم بصحبتنا قد طمأنهم فبدأوا يكملون ما كانوا يفعلونه. ظلّ كريم يبتسم وهو يتطلّع إلى مارشا وهي ترنو إلى الدور الأعلى تحدّق في رؤوس الأطفال المطلّة علينا. طلبت منّي مارشا الصعود بها لأعلى. كان الصعود مستحيلاً فالدرج مهدّم بالكامل ولم يبق منه شيء. سألت كريم عن كيفيّة الصعود فضحك بشدّة ثم صرخ في أتباعه، وفجأة أطلّت رؤوس لمجموعة من الأولاد من الدور العلوي الذي يرتفع عنّا بمقدار ثلاثة أمتار. كان بأيدي الأطفال لوح خشب مستوٍ وضخم أدلوه من فوق حتى وصل إلى أرضيّة الطابق الذي نحن به وجعلوه مائلاً ليصبح الصعود عليه هيّنًا. ارتاعت مارشا وقالت لي: مستحيل أطلع كده. خمّن كريم أنّها تستصعب الصعود، فاضطر إلى عمل تجربة ميدانيّة أمامنا. جرى صاعدًا اللوح المائل فاردًا ذراعيه في الهواء مثل ليوناردو دي كابريو في فيلم «تيتانك»، وفي لحظة كان ينظر إلينا من أعلى مزهوًّا.. وكأنّ الأمر قد انقلب إلى لعبة بدأ الأولاد في الدورين يقلّدونه صعودًا ونزولاً حتى نهرهم بعد أن استاءت مارشا من أدائهم حركة كريم نفسها، وضحكة انتصارهم الشبيهة بضحكة طرازان في الغابة وسخريتهم من عجزنا المكشوف.. فجأة خرجت فتاة من بينهم

Twitter: @ketab_n

إلى حيث نقف وهي تحمل على ذراعها طفلة صغيرة. اهتمّت مارشا بالطفلة وظلّت تتأمّلها وتداعبها بإصبعها بينما أمّها التي تكاد تبلغ السادسة عشرة كانت مهتمّة بلمس شعر مارشا الأصفر والعقود الرخيصة التي اعتادت مارشا على ارتدائها. فجأة لمحها ولد من الدور الأعلى فقفز بسرعة على اللوح الخشب هابطًا إليها وأخذ يكيل لها الضربات. ألقت الفتاة بطفلتها إلى مارشا وظلّت بيدها تحمي وجهها، وعندما تدخّل كريم خطفت الطفلة من يد مارشا وحملتها كالقرود وصعدت بها إلى أعلى، ثم جذبت اللوح حتى تمنع الولد من اللحاق بها. كنت ومارشا مذهولين تمامًا من السرعة التي تدور بها الأمور كأنّنا نشاهد فيلمًا كاملاً بالإيقاع السريع. داخت مارشا ولم تجد ما تستند إليه، فالحوائط قذرة وخيوط العنكبوت التي تكسوها أحالها التراب إلى خيوط سوداء مقزّزة.. العِرَس والفئران التي تصطدم بأرجلنا. استندت إلى يدي فهمست إليها بأن ننسحب. كادت تطيعني لكنّها فجأة استردّت روحها العنيدة وطلبت منّي أن نصعد لأعلى كي ترى كيف يعيشون. قلت لها لا أنا ولا أنت من البهلوانات حتى نفعل مثلهم، بثقة أومأت إلى كريم وطلبت منّي أن أخبره بما تطلب. ظهر على كريم الاهتمام وقال لي إنّ لديه حلاً. أمرهم بإحضار الحبل الغليظ المصنوع من ألياف النخيل ثم نادى عليهم ليدلوا اللوح، وقال بابتسامة إنّه سيدرّبنا على الصعود كما يفعل مع الأولاد الذين يأتون إلى مقرّه لأوّل مرّة. صعد كريم أمامي وأمسكت بوسطه بيد وباليد الأخرى أمسكت بالحبل المجدول الذي كان يمسك بطرفه الآخر الأولاد في الأعلى، صعدت ببطء وبحذر حتى وصلت إليهم سعيدًا ومزهوًّا أيضًا.. وتمكّنت مارشا من الصعود بالكيفيّة نفسها.

قالت مارشا لكريم ما جعله يضحك بشدّة دون توقّف. كانت مارشا مندهشة جدًّا. سألتها عن سبب ضحك كريم فقالت بحيرة: لا أدري.

Twitter: @ketab_n

عندما توقّف كريم عن الضحك بسبب السعال العنيف الذي هاجمه أخبرني بأنّ مارشا قالت إنّها ستعطيه نقودًا لكي يبني دَرَجًا إسمنتيًّا يصعدون عليه، ابتسمت وتضاعفت حيرة مارشا إلى أن أخبرتها بحكمة هؤلاء الصبية الأميين الذين هشّموا درج البيت عمدًا، ومحوه تمامًا عندما استقرّ عزمهم على الإقامة بهذا القصر المهدوم. . فعقب المطاردات المكثّفة من الشرطة والمشرّدين الأكبر سنًّا، قرّروا هدم وسيلة الصعود حتى يصبحوا بمنأى عن الشرطة وعمّن يطاردهم. فلن تبذل الشرطة جهدًا في إحضار سلّم عالٍ، ثم الصعود عليه لمطاردتهم؛ وحتى لو فعلوا ذلك، فسيصبح أمام الأولاد وقت كافٍ لتسلّق مواسير الصرف الصحّي والهروب من الجهة الخلفيّة للقصر داخل أزقة وحواري حيّ السيّدة زينب. كانت الشمس تغمر الغرف العلويّة من خلال النوافذ الكثيرة المهشّمة والمنزوع زجاجها. كان الأمر يبدو وكأنّه منضبط جدًّا بفعل فاعل، فكل مجموعة عمريّة متقاربة قد اختارت غرفة من غرف الدور العلوي. . البنات دون العاشرة في حجرة تخصّهم. أمّا اللواتي فوق الرابعة عشرة فقد اخترن أرحب غرفة وصنع لهنّ أصحابهنّ من نزلاء القصر دولابًا كبيرًا من الخشب اليابس وبقايا صناديق خشبيّة لكي يحفظن فيها أشياءهنّ وملابسهنّ التي تعتبر من أدوات عملهنّ في أزقّة وشوارع مصر المحروسة، في أيّ وقت يصطادهنّ من يشاء من العربجيّة وعمّال محطّات البنزين وصبيان المقاهي، ثم يعدن ببضعة جنيهات وبأكياس الفول والطعميّة إذا ما تبقّى لهنّ شيء بعد شرائهنّ الكلّة والبرشام.

كانت هذه الغرفة هي الوحيدة التي بها باب مازال موجودًا ومواربًا. لعلّ قدرتهنّ على الحصول على نقود ساهمت في منحهنّ هذه الاستقلاليّة. أزاح كريم بقدمه الباب فأصبحن مكشوفات أمامنا. لم يبد عليهنّ الانزعاج، فقط شاب وجوههنّ بعض الفضول. كنت أرنو إليهنّ

Twitter: @ketab_n

وأنا أمام الباب ومارشا خلفي. دفعتني مارشا ودخلت معي. لكنّها أهملت بقيّتهن اللواتي كنّ يلعبن ويتشاكسن، واتجهت نحو فتاة ناحلة مستندة بظهرها إلى الجدار وبطنها بارز أمامها. ظلّت مارشا تربت على كتفها وتتحسّس بطنها والفتاة مندهشة. همس كريم بأنّها حامل في الشهر الثالث. كان اهتمام مارشا بهذه الفتاة مثار غيرة فتاة أخرى اسمها ربيعة، كان من الواضح أنّها صديقة حميمة لصفيّة الفتاة التي تربت عليها مارشا. اندفعت ربيعة تجاه مارشا ودفعتها بعيدًا واحتضنت صفيّة وظلت تتلمّس شعرها. همّ كريم بضربها، لكنّني أوقفته وقد أدركت أنّ ربيعة تسبغ حمايتها على صفيّة، ولن ندخل في مهاترات. عادت مارشا لتقف إلى جواري وهي تضع يدها تحت إبطي وتتأمّلهنّ. فجأة أصدرت ربيعة أمرًا لفتاة أخرى، استجابت بسرعة وجرت نحو الدولاب فأحضرت علبة حليب ناولتها إلى ربيعة التي فتحتها بأظافرها، ثم أعطتها بحبّ إلى صفيّة التي بدأت ترتشف بتلذّذ ثم تعيدها نحو ربيعة، وظلّتا فترة تتبادلان الارتشاف حتى فرغت العلبة.

اصطحبنا كريم إلى باقي الغرف، وكانت مارشا في قمّة انفعالاتها عاجزة عن إخفاء فرحتها وألمها واشمئزازها ممّا تراه. وكنت قد أدرجت أماكن أخرى للتصوير نالت رضاها من قبل أن نزور هذا المكان، لكنّها اليوم قالت إنّها اكتفت بهذا المكان الأسطوري الساحر الذي نادرًا ما يكون موجودًا في القارّات الخمس، وطلبت منّي أن أرصد كل طوبة بهذا القصر لأنّ الجزء الأكبر من الفيلم سيصوّر داخل هذا المكان. ساعدتني جدًّا هذه الزيارة في إعادة السيطرة على مارشا والبرهنة لها على قدرتي على إنجاز الأمر بتفاصيل مذهلة. لازمني فقط خوف مستتر: هل أنا بقادر على المعيشة معهم ومتابعة أحوالهم وتصويرها كما أدرجت في خطّة العمل؟ هل أنا قادر على تحمّلهم، على تحمّل نوبات غضبهم التي لا تقدّر بنوبات جنوني واكتئابي؟ هل

Twitter: @ketab_n

يمكنني المحافظة على نفسي والخروج معافى سليمًا بالرغم من غدرهم وأسلحتهم التي يشهرونها كل دقيقة بعضهم على بعض، بعد أن تستولي عليهم غيبوبة المخدّر؟ التجربة تبدو مخيفة لكن لابدّ من خوضها، فلم يعد باقيًا لديّ شيء أخافه عدا الزمن.. وكانت هذه فرصة جيّدة لأن أختبئ من الزمن عندهم. أختبئ عندهم من أحزان غير متوقّعة.

Twitter: @ketab_n

ـ ٢١ ـ

حدث يستحقّ أن يسجّل بموسوعة «جينس ريكورد» وقع الآن. مرّت ساعتان منذ مجيء زينب ومازالت بالملابس نفسها التي دخلت بها. طلبت منها أن تعدّ شيئًا للعشاء فطلبت منّي الاتصال بأيّ مطعم. في أيّامنا الماضية كانت بدون استئذان تهرع إلى المطبخ لتطهو ما تجده، وتصرّ على أن تطعمني من طهوها غير المتقن (الآن أفتقده وأستشعر لذّته). . هي جالسة كالصنم وشبح ابتسامة على شفتيها.

لم أصحُ على رنين جرسها المتصل ولا صوت قبضات يدها على خشب الباب، انتبهت على صوت جرس ضعيف واهٍ وفوجئت بها تحتضنني بفتور، وتجلس. . ثم تقول بصوت خلا من الحياة بأنّ طائرتها ستغادر القاهرة بعد منتصف الليل. وعندما سألتها عن حقائبها قالت بلامبالاة: في الدار، ثم أضافت أنّها اتفقت مع سائق سيّارة أجرة سيمرّ عليها في الدار ويأخذها إلى المطار. كأنّي شبح أو غير موجود بالمرّة في حياتها، وكأنّي لن أهتم بتوصيلها أو وداعها في المطار!

كنت في مزاج سيّئ زادته هي سوءًا، لم أعلّق على كلامها وفضّلت أن أراقبها وهي تأكل. كان الأكل الذي طلبته هو أرز وسمك. أعتقد أنّها لم تكن تأكل. كانت مثل المكلّفة بملء دلو حتى منتصفه. كانت تقذف بقطعة السمك وتلحقها بملعقة أرز غير مكتملة، ثم ملعقة السلطة مرّة أو الطحينة مرّة أخرى بانتظام رتيب. لم يكن يشغلها هذه المرّة أن

Twitter: @ketab_n

تستخرج الشوك من السمك الذي أمامي أو تفصّصه لي أو تطعمني بيدها. وأعتقد أنّني لو كنت متّ حقًّا أمامها ما كانت لتشعر بي. وعندما التقطت ملابسها من فوق الحبال تركت ملابسي دون أن تمدّ لها يدها، ولم تكو ملابسها ولا ملابسي كما وعدتني آخر مرّة. وتشاغلت عنّي بترتيب أغراضها داخل كيس بلاستيك رافضة أن تأخذ حقيبة من عندي. لم تترك لي حتى واحدًا من كيلوتاتها وعليه توقيعها بأحمر الشفاه، كما كانت النجمات يفعلن ليوسف حلمي وكما كنت أتمنّى.

هاجمني إحساس قويٌّ بأن أندفع وأحتضنها من الخلف وأقبّل شعرها ورقبتها. كنت أعتقد أنّها تنتظر ذلك وتتمنّاه وتستعجله، لكنّني فجأة خفت أن يكدّرني ردّ فعلها الذي يعكسه مزاجها التعس. عاتبتها لأنّها لن تبيت معي قبل السفر كما وعدتني. اختفى شبح ابتسامتها ونظرت إليّ بتعجب، فانكمشت.

بدأت الكآبة تغادرني من فرط كآبتها وغشيني إحساس شجي عميق بفقدانها الأبدي. لن أراها. ولن تلقي عليّ بذراعها أو يغطّي شعرها وجهي، أو تغزو أنفاسها أنفي أو تغمرني رائحة عرقها المهيّج ونحن ننام. لن توقظني بقبلة على جبيني أو بهزّ كتفي بعنف وهي راقدة على بطني، ستغادرني زينب كما غادرني الآخرون بلا عودة. وتنسلّ من حياتي التي شغلتها كثيرًا. ألم أكن راغبًا في ذلك في أحيان كثيرة؟ فأيّ شعور غامض بالفقد، هذا الذي يقلقني؟

رحلت زينب وغادرني دفء المكان، لم أعد أتحمّل شقّتي ولم أقرّر الإقامة الدائمة عند مارشا، فلن أطيقها ولن تتحمّلني، ونحن متباعدان تصبح قوّة الجذب متساوية. لو اقتربنا أكثر من اللازم لتضخّمت العيوب، كما أنّي بحاجة إلى أن أفرّ من الدنيا كلّها. وليس من نفسي فقط.

Twitter: @ketab_n

جهّز لي كريم مكانًا بالدور العلوي بعيدًا عن الحمّامات التي لم يكن يستخدمها الأولاد والبنات لما أُنشئت من أجله، فقد كانوا يتبوّلون في محيطها كنوع من التمرّد أو الاستسهال غير مبالين بالعابرين من أمثالي الذين قد يدفعهم الفضول للتحديق والاستنكار. كان كريم يبدو سعيدًا جدًّا بوجودي، غير مصدّق أنّي سأبيت ليلة معهم ثم ليالٍ. . كان واقفًا قبالتي يرقبني بدهشة وأنا أنصب الخيمة التي زوّدتني بها مارشا. كان يمنع الأولاد والبنات فاغري الأفواه عن مضايقتي بحركاتهم أو أسئلتهم. انعزلت عن العالم وبدوت مستمتعًا بدهشتهم وفرحتهم وهم يتحسّسونها من الخارج، ثم يمدّون أياديهم يتلمّسون مرتبتها الإسفنجيّة والياي الرأسي الذي يغلقها بإحكام وفتحات التهوية. أهداني كريم كومودينو خشبيًّا من بقايا أثاث القصر كان قد وجده الأولاد ضمن الكراكيب، لأضع بداخله خيمتي وأشيائي في الفترات التي لا أتواجد فيها. كما أنّه اشترى لي قفلاً جديدًا ببعض من النقود التي منحته إيّاها كي أغلق الكومودينو بإحكام، وهمس في أذني ضاحكًا: رغم أنّ كلّهم لصوص وحراميّة ومسجّلين خطرًا إلاّ أنّ أحدًا منهم لن يجرؤ على كسر القفل. وعندما سألته ما لزوم إغلاقها بالقفل إذن؟ قال وهو يضيّق عينيه كمن يشرح لك معادلة رياضيّة مهمّة. «عشان ما نسبهاش مفتوحة وعنيهم تروح على حاجة كده ولاّ كده».

قضيت أوّل ليلة هناك محرومًا من النوم بسبب فتاة لم يتجاوز عمرها الخامسة عشرة. نجحت في التسلّل من الحصار الذي فرضه حولي كريم، وظلّت تلفّ وتدور حول الخيمة بعد منتصف الليل كالقطّ البرّي. في بادئ الأمر ارتعبت فلم أستطع تمييزها في ظلّ ضوء القمر الباهت الذي كان يتسلّل من النوافذ المهشّمة، لكنّها عندما اقتربت أكثر وخربشت بيدها الصغيرة مشمّع الخيمة، تجاهلتها. كانت قد رأتني أنهض من رقدتي وأزيح الغطاء الرقيق وأرقبها. مضت تتحسّس باب

Twitter: @ketab_n

الخيمة المزدوج والذي يفتح من الداخل والخارج. وضعت يدي على الياي من الداخل لأمنعها من تحريكه. تجرّأت أكثر وتصوّرت أنّي ألاعبها. اقتربتْ بجسدها الصغير ولامست الخيمة وظلّت تدفعها حتى ألصقتها بجسدي.. اضطررت إلى فتح الخيمة حتى أكلّمها. اندفعت بكل جسدها بمجرّد أن فتحتها ووجدتها تكاد تكون في حضني. رجتني بهمس أن أدعها تبيت معي هربًا من غلاسة الأولاد الذين يرغبون في التحرّش بها كما ادّعت. عنّفتها وزجرتها وطردتها. لم أكن أعرف لها اسمًا ولا أستطيع تمييز شكلها عن باقي زميلاتها. لم تيأس وعاودت المحاولة. أنّبت نفسي لأنّي لم أسمع كلام كريم وأنام داخل خيمتي بالقرب منه. اخترت هذه الصالة النائية معتقدًا أنّي سأكون بمنأى عنهم عند النوم. عند تكرارها الممل لمحاولة المبيت معي فقدت أعصابي وانفعلت عليها بشدّة، فغباؤها قد يفسد إقامتي بينهم ويفشل مشروع الفيلم ويؤثّر على علاقتي بمارشا. تظاهرتْ بالبكاء بصوت أجوف مبحوح وتكوّمتْ أمام خيمتي وبين اللحظة والأخرى ترفع رأسها ترقب تأثير ذلك عليّ. كانت كطفلة عنيدة تتفنّن في إغاظة أمّها، ابتسمت وخرجت من الخيمة وأنا أدعوها إلى الدخول مدّعيًا أنّي سأنام في أرضيّة البهو، فاجأتها مناورتي. تتبّعتني وأنا أجذب الغطاء لأضعه على أرضيّة البهو. قامت من رقدتها وقد جفّت دموعها في لحظات وغادرتني خائفة وهي تسبّني سبًّا قذرًا وتتهمني في رجولتي. عدت إلى خيمتي ونمت قليلاً، وفي الصباح لم أحك لكريم ما بَدَر منها لكنّني طلبت منه أن أنتقل للنوم على السطح بعد ذلك. لم يجادلني وبدا متفهّمًا. مضيت بالكاميرا أتتبعهم وهم نائمون وعند استيقاظهم وأثناء طعامهم ومشاجراتهم ومشاكساتهم، ورضيت عن نتائج هذا اليوم فانسللت خارجًا. درت حول القصر مرّة فلم ينتبه لي أحد من داخله أو خارجه، وسررت لذلك فقد كنت حريصًا على عدم إفساد التجربة في

Twitter: @ketab_n

بداياتها، وكنت قد بدأت أنشغل بها وأريد أن أنجز أكبر كمّ موثّق صوتًا وصورة، فقد كنت متأكّدًا من أنّ تواجدي بينهم لن يبقى سرًّا لمدّة طويلة وسيعرف به كثير من الجيران (المواطنون العاديّون)، وسيصل خبره إلى الرسميين (الشرطة وخلافها) وكنت حريصًا على تأجيل هذا اللقاء بقدر الإمكان. فما أفعله بين هؤلاء الأولاد حتى وإن كنت أدّعي فهمه، أجدني غير مؤهّل للحديث عنه أو إقناع الآخرين بسلامة نيّتي. كانت زياراتي لهم تتمّ بشكل دوري مرّة كل أسبوع في أيّام مختلفة حتى لا يرصدني أحد أو أعتادهم ويدركني الملل فأترك الفيلم. سجّلت بالكاميرا لقاءات مذهلة معهم وهم تحت تأثير الكُلّة والعقاقير والمخدّرات.. وهم يتحرّشون بعضهم ببعض أولادًا وبناتًا. أولادًا مع أولاد، وبنات سحاقيّات. كانوا قد اعتادوني فبدأوا لا يبالون بي والكاميرا مصوّبة تجاههم، وعندما ينتهون يتمسّحون بي كالقطّ في انتظار مِنَحي وَهِباتي. كنت أدوّن أيضًا بخطّ اليد ملاحظات عنهم وتخوّفات منهم وانطباعات بخصوصهم. افتقدت الدهشة وأنا ألازمهم، فالأشكال والوجوه تتغيّر باستمرار وعندما يغيب عنّي وجه أحدهم وأسأل عنه أجد من يردّ ببساطة: مات ف حادثة، أو دخل السجن أو أهله لقيوه، أو انضمّ لعصابة.

اعتمادي الأساسي والرئيسي على كريم بدأ يخيفني أكثر ويدفعني لإنجاز أكبر كمّ ممكن، فوجوده غير مضمون. قد يُقتل في مشاجرة أو يدخل السجن أو يحنّ إلى زوجته وردة التي طردها من المنطقة فلجأت إلى منطقة المهندسين خوفًا منه. قد يدفعه الشوق إلى تتبّعها وقد يدخل في مشاجرات بسببها وقد يقتل وهو بسبيله إلى الحصول عليها.. وقد أكون واهمًا ولا تمرّ بذاكرته أبدًا.

بدأت بعمل دراسة عنهم أنوي أن أسجّلها في كتاب أطبعه بالتوازي مع الانتهاء من الفيلم. فالكتاب سيتضمّن رؤيتي ولن يتدخّل فيه أحد

Twitter: @ketab_n

سواء مارشا أو جهات دعم الفيلم. وأراحني هذا كثيرًا وخلّصني من الهواجس التي كدت بسببها ألاّ أكمل الفيلم. لم تؤثّر فيّ قصصهم التي يحكونها عن آباء أشرار وأمّهات داعرات وأعمام وأخوال ينتهكون المحارم. سجّلت فقط قصص هروبهم وأسبابه التي كانت بالغة التعقيد وتقترب من التلفيق. كنت أجعلهم يحكونها وعلى مدد زمنيّة متباعدة حتى أستخلص الحقائق أو أشباهها.

لم تشاركني مارشا برؤية كل ما صوّرته أو سجّلته، وكانت من الذكاء بأنّها لم تطلب منّي يومًا أن ترى نتائج ما أفعله أو تسألني عن تفاصيل. كانت تتقبّل غيابي عنها بصبر. لم تحتد إلاّ مرّة واحدة عندما علمت بالمصادفة أنّني اعتذرت لطالبتين من طلاّبي عن إكمال دروسي لهما وأوكلت المهمّة لزميل آخر. سألتني بحدّة: كيف اتخذت هذا القرار المصيري دون أن تخبرني؟ دهشتي من سؤالها كانت أكبر من قلقي من حدّة كلامها. فقلت: قرار مصيري؟ إنّه مجرّد درس اعتذرت عنه لأنّ لديّ الأهمّ. «وكنت أعتقد أنّي سأؤثر عليها لو قلت: بسبب مشروعنا». لأنّ مشروع الفيلم أهمّ.

لم تبتلع الطُعم واستمرّت في حدّتها، وهي تقول: دُوُل أجانب وأنا أدرى بيهم منك، العمل يعني عندهم التزام بين طرفين وما ينفعش الاعتذار عنه إلاّ لظروف قهريّة.. أنت أخلّيت بالاتفاق، وهايبلّغوا باقي طلابك، وهايكون من الصعب عليك إيجاد فرص بديلة بعد الآن..

كنت مشغولاً في داخلي بسبّ الأجانب وتعاقداتهم وأموالهم ومارشا التي عرّفتني بهم، وتعاملني الآن كأنّها تتجبّى عليّ.. لكنّني لم أنطق، ويبدو أنّها لاحظت ضيقي فتراجعت وربتت على فخذي، وهي تقول سأكلّمهم وأشرح لهم أسباب اعتذارك وسيقبلونها. ثم همست بشبه رجاء: أرجوك لا تخفي عنّي شيئًا بعد الآن. كان تهديدًا مغلّفًا

Twitter: @ketab_n

بالرجاء وكان هذا ما لا أطيقه، لكن للأسف وجدت نفسي مدفوعًا لمحاولة ترضيتها بأن أقول إنّ عملنا في الفيلم أهمّ وأبقى، وإنّي وجدت نفسي أخيرًا في الكتابة السينمائيّة، وعندما ننتهي من هذا الفيلم سندخل في مشروعات سينمائيّة أخرى متلاحقة. كنت أكذب بشدّة وكانت مضطرة لتصديقي، لذا فقد احتضنًّا بعضنا دون أيّ استطراد في القول قد يخلّ بعلاقتنا أو يدخلها في خلاف بعيد الغور. رأيت بحكمة بعد هذا الرضا المؤقت أن أعرض عليها بعض اللقطات التي صوّرتها، فكانت تطير فرحًا كلّما راق لها مشهد أو محادثة، ثم طلبت على استحياء وبتردّد أن تستعين ببعض هذه المشاهد في تدعيم مشروعها، ووافقت بلا تردّد فأغلب ما صوّرته لم أتح لها رؤيته، فقد كان محفوظًا في شقّتي، والمشاهد التي رأتها كنت قد أتيت بها متعمّدًا لأجعلها تشاهدها حتى تتيّقن أنّي مازلت أنجز. الغريب أنّ هذا القليل الغثّ من وجهة نظري والذي أهديتها إيّاه تمكّنت بفضله من الحصول على تمويلات أخرى وعروض للمشاركة ظلّت تفاضل بينها فيما بعد.

مرّت أشهر ولم يصلني أيّ خطاب من زينب كما وعدتني، وليست لديَّ أيّة تفاصيل عن مكان إقامتها بالمكسيك ولم أكن حريصًا على طلب ذلك منها، لكنّي الآن بدأت أفتقدها، أو ربما لأنّ الدنيا من حولي قد خلت من أشياء مهمّة مؤثّرة فلم يعد لي إلاّ تذكّرها. حجزت تذكرة سفر إلى المنيا وسأغادر القاهرة التي أصبحت كئيبة مساء اليوم. في خطّتي أن أمكث بالمنيا ليلة أو ليلتين لو وجدت فندقًا مناسبًا، ثم سأستأجر سيّارة تقلّني إلى بلدتها «بني حسن» حيث سأجد من يدلّني على بيتها. أنا في حاجة إلى غسل تلوّثي البصري برؤية النيل البكر. محتاج إلى سماع صوت الخلاء وصراصير الغيط وعواء الذئاب ونباح الكلاب.. محتاج أن تجلو الخضرة بصري وتغسل أنفي برائحتها الطيّبة.

Twitter: @ketab_n

طلبتني ياسمين على المحمول تريد رؤيتي. لأوّل مرّة منذ تعرّفي عليها أبدو غير متحمّس. أحسست بأنّها ألقت على جسدي بدلو بارد وأخمدت رغبتي في الانفراد بنفسي. كان عقلي قد بدأ يتشوّش وروحي أصبحت متعلّقة بأرجوحة تهدهدني. تعلو بي وبمشاعري لسماء هند وسموّها الروحي وتنخفض بي تارة أخرى لتلحقني بزينب ومارشا ولذّتهما الدنيويّة. لم أكن بحالة تسمح لي بترف المفاضلة ووجدت نفسي مدفوعًا لاستقبال ياسمين.

اخترت مطعمًا منزويًا بوسط المدينة يقدّم البيرة مع الطعام. عندما أنهيت الزجاجة الأولى وبدأت في الثانية حضرت. تأذّى وجهها وهي تراني أشرب، تجاهلت ردّة فعلها. لم تشأ أن تأكل في مطعم يقدّم الخمر ولم تشأ أن تشرب الكولا أو المشروبات الأخرى، لأنّها تقاطع البضائع الأميركيّة ورفضت شرب المشروبات الساخنة رغبة منها في التأثير عليّ لنخرج من هذا المطعم. تجاهلت رغبتها وأنهيت الزجاجة الثانية وطلبت أخرى. لم أبال بتململها وضيقها المكتوم الذي تجاهده حتى لا يخرج. «ولو أنت طفلة يا ياسمين كما تدّعين لن أكون والدك أو بديلاً عنه ولن أُبتز بتصرّفات الأطفال. إمّا أن تلعبي في المساحة التي تتحرّك فيها قدماي، أو فلترحلي بعيدًا ولا يهمّ».

أعتقد أنّها فهمتني بأيّ من الطرق العلميّة أو الحدسيّة أو الغيبيّة.. بقراءة الشفاه. بتوارد الخواطر. بالحاسّة السادسة. قامت فجأة وهي تقول: أنا ماشيه.

ابتسمت بعد أن أصبح الملعب مكشوفًا، وقلت بهزل وكأنّي أغنّي: جايه في إيه.. وماشيه في إيه؟

نظرت إليّ بدهشة وكأنّها تنظر إلى سكّير مدمن، وقالت باستنكار: عاجبك منظرك ده..؟

لم أشأ التمادي في الهزل، وقلت لها: أنتِ اللي بطّلي هبل

Twitter: @ketab_n

واقعدي وقولي كنت عايزاني في إيه؟ بوغتت وانتابها حرج شديد كمن فوجئت بي وهي تزيل شعر عانتها، ثم أولتني ظهرها وهي في طريقها للخروج. نهضت بسرعة ولمست كتفها من الخلف، فانتفضت مذعورة وتراجعت خوفًا من أن أعيد لمسها. كان كل من بالمطعم ينظرون إلينا وربما يضحكون علينا ويهزأون من الرجل المتصابي يتوسّل إلى طفلة كي تجلس معه. كنت متوتّرًا جدًّا لدرجة أنّها خافت ولم تقوَ على معارضتي وجلست وهي تنتفض. كدت أسبّها ولكنّني تمالكت نفسي بسرعة ورسمت على وجهي ابتسامة وأنا أحاول استرضاءها. كانت مشغولة بخوفها ودموعها، وكنت مهمومًا بحوار داخلي أتمنّى أن أصرخ به «متى تفهمين أيّتها الطفلة أنّني غير عابئ بجسدك الطفل ولا بمفاتنك التي توشك على النضوج ولا مهتمًّا بلمسك، وأنّك كأنثى لا تمثّلين لي شيئًا على الإطلاق بخلاف أنّك مثل التاء المربوطة كأداة للتمييز. سئمت تمثيلك دور العذراء البتول وكرهته. هند كنت ألمسها وتلمسني. لكنّها كانت تدخلني كطيف نوراني تغسلني من كل الغرائز الحيوانيّة والآدميّة. هذا هو الفرق الشاسع بين روحيكما».

بدأت أدرك أنّهما غير متطابقتين وما عدت مهتمًّا بأن أكمل مسيرتي مع ياسمين. ويبدو أنّها قالت كلامًا لم أسمعه ولم أردّ عليه، لأنّها بدت ضجرة وهي تكلّمني بحدّة: قعدتني ومش مهتم بإنك تسمعني!

بدأ ضيقها يؤثّر فيّ، فاعتذرت بأنّ أمورًا كثيرة تشغلني هذه الأيّام. لم تهتم بأن تسألني عمّا يشغلني، لكنّها طلبت منّي عندما نتقابل مرّة أخرى ألاّ يكون اللقاء في هذا المكان أو أيّ مكان آخر يقدّم الخمور. لم أعلّق وقلت لها إنّي سأذهب إلى الصعيد لزيارة بعض الأقارب وللاختلاء بنفسي كي أكتب من جديد. فاجأتني بأنّها اتفقت مع بعض زملائها وزميلاتها على القيام برحلة للغردقة وشرم الشيخ وشمال سيناء في منتصف العام، سألتها باندفاع لماذا هذه المناطق بالتحديد؟ أجابت

Twitter: @ketab_n

ونظرات عينيها تنفذ إلى داخلي: عشان دي بلدنا ولازم نتعرّف على كل حتّة فيها.

ثم أخبرتني أنّها أخذت موافقة جدّتها، وأبلغت والدها المشغول بزوجة أخرى وأطفال آخرين فلم يمانع.

تأهّبتْ للانصراف، فانتبهتُ ودفعتُ حسابي ونهضت معها. سرنا حتى مدخل مترو الأنفاق بغير حديث مشترك ولم تطلب منّي مرافقتهم في الرحلة ولم أفرض نفسي. والتمست لها العذر، فقد يكون فارق السن بيننا محرجًا لها وسط زملائها. كما أنّي لا أملك وقتًا لهذا الترف. حتى وإن بدت وكأنّها تنتظر منّي إعلان نيّتي الذهاب معهم. لن أذهب. وحالتي النفسيّة قد بدأت تنذر بالشرّ ولو هبطت معها إلى داخل النفق فبالتأكيد سأقذف بأيّ أحد أمام القطار. أوقفتها أمام المدخل ومددت يدي، اندهشتْ ثم همست: مع السلامة، وكالمعتاد دون أن تصافحني.

تغيظني جدًّا هذه الحركة المعتادة منها، وبينما كان رأسها يهبط ويختفي كنت أنا أسبّها بصوت عالٍ والمارّة يفسحون لي الطريق حتى أمرّ بغضبي.

Twitter: @ketab_n

- ٢٢ -

قرأت خبرًا طريفًا وأنا في طريقي للمنيا بالقطار عن لائحة المطبوعات الحكوميّة التي صدرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني من تسعة بنود. أهمّها أنّه لا يجوز الكلام على المظاهرات والثورات التي تحدث في الخارج، لأنّه ليس من حسن السياسة أن يعلم رعايانا المخلصون بوقوع هذه الحوادث.

ولعلّ من أغرب تطبيقات هذه اللائحة كان الخبر المطوّل الذي قدّمته صحيفة عثمانيّة للرقيب، ويتضمّن آنذاك تغطية لأحداث الثورة الروسيّة التي انتهت باستيلاء الشيوعيين على الحكم بقيادة «لينين» عام ١٩١٧.. فحذف الرقيب من مجمل ما حذف كلمات مثل «ثورة» «دستور» و«حقوق الأمّة» و«ظلم» وكل ما يتعلّق بالهجوم على القيصر أو ثورة الشعب.. ولم يتبقّ من الخبر المطوّل إلاّ سطر واحد نشرته الصحيفة في اليوم التالي للثورة كالآتي: «حدثت أمس خناقة في روسيا»..

نزلت في المنيا لكنّي لم أبق بها كما خطّطت، وقرّرت الذهاب مباشرة إلى قرية «بني حسن» لأنهي مهمّتي أوّلاً.. ركبت ميكروباس عتيقًا أوصلني البلدة. سألت أوّل شخص قابلته عن عمّ حسين الضبع والد زينب. أشار إليّ الرجل بالركوب خلفه على الحمار، وأوصلني إلى معديّة النيل وأشار للمراكبي أن ينقلني إلى البرّ الشرقي، وعندما هممت بإعطائه نقودًا رفض قائلاً: عيب..

Twitter: @ketab_n

قابلني الأب بترحاب مصحوب بدهشة وريبة الصعيدي الذي فاجأه رجل غريب بالسؤال عن ابنته. وبالغت الأمّ في الترحيب بي تغطية للحرج. صفيّة أخت زينب الصغرى كانت في مدرستها الإعداديّة والطفل المعوق أحمد كان في البيت.

بدأ اللقاء جافًّا ومربكًا ولم أجد مدخلاً لكلامي غير الحكايات المدهشة عن القاهرة، ثم اكتسبت ودّهم بعد أن أكلت معهم على الطبليّة نفسها، ولم أكن متأفّفًا أو ضائقًا بالمكان وروائحه الغالب عليها رائحة روث الحظيرة الصغيرة الملاصقة للبيت، كما بدوت متمتّعًا بما آكله وكنت أطلب المزيد. لم يكن ما أفعله تمثيلاً بقدر ما كنت أفتقد التجمّع الأسري الحميم.

أخبرتهم بأنّي زميل زينب في الجريدة وأنّني مكلّف بكتابة موضوع عن أُسر الوجه القبلي ومعاناتهم تمهيدًا لتدخُّل الحكومة لحلّ مشاكلهم. لم يكن الأب مقتنعًا بجدوى النشر بالصحف. وكانت الأمّ لمّاحة وذكيّة وتبدو في منتهى الحرص بألاّ ينفرد بي زوجها ويستدرجني فيما يكدّر صفوهما. كانت تتدخّل وتقاطع ولا تأبه لزجراته بعيونه وإيماءاته. لم أكن أعلم شيئًا عمّا قالته لهم زينب قبل السفر وما قد تكون كذبت بشأنه حتى سمحوا لها بالسفر. هل هي في بعثة دراسيّة أم مهمّة عمل؟ - منها لله - جعلتني كالبهلوان وأنا أحاول تفادي فخاخ الأسئلة، اضطرتني إلى الادعاء بأنّي كنت بمهمّة في الجزائر، وعندما رجعت علمت أنّها بالخارج. عقّبت الأم برجاحة عقل: ربنا يوفقك يا بني. هو جورنالكم ليه مكاتب في كل حتة حتى الحتة البعيدة دي؟ فهمت قصدها فأجبت بسرعة: المكسيك. . دا من المكاتب الكبيرة بتاعتنا. . وعلى العموم ما تقلقيش يا حاجّة. مدّة بسيطة وزينب ترجع. اندهشت الأم وقالت: بسّ هي قالتلنا إنّها هاتمسك المكتب هناك سنتين، شعرت بالامتنان بعد أن وضعتني الأم في المسار الصحيح،

Twitter: @ketab_n

فانطلقت بفصاحة أعدّد محاسن العمل بالخارج من جهة العائد والترقيات، وأنّ زينب كالرَجل الجدع لا يُخشى عليها، وأنّها إذا لم تسترح للمعيشة هناك ستعود على الفور. . كما أنّ التكليف بالعمل في أوروبا وأميركا أفضل من البلاد العربيّة، من حيث العائد والمستوى الاجتماعي وتعلّم اللغات الأجنبيّة، وأنّ المؤسّسة التي تعمل بها تختار أفضلنا كي يمثّلها في هذه الأماكن المتميّزة. بان الرضا على الأم واستكان الأب وهدأ، أو هكذا خيّل إليّ.

أصرّت الأم على بقائي معهم يومين على الأقلّ، وافقها الزوج على مضض، وكنت بحاجة معنويّة إلى هذين اليومين فبقيت. . وعندما اختليت بنفسي بعد ذلك كنت أتشمّم رائحة زينب في كل مكان. أسحبِ نَفَسًا عميقًا من أنفي وأكتمه لأتذوّقه وأخرجه مرغمًا.

أعدّ لي الأب غرفة الضيافة «كانت زينب كثيرًا ما تدعوني للسفر معها إلى بني حسن وللإقامة في حجرة الضيافة، أكتب وتخدّم هي عليّ». . أخرج الأب التليفزيون من حجرته لوضعه بحجرتي، لكنّني رفضت هذا بشدّة متعلّلاً بأنّه يفقدني تركيزي عندما أكون منهمكًا في العمل. جالسني الأب قليلاً وتسامر معي، وعندما وجدني مشغولاً عنه بالكتابة خرج وظلّت الأم كأنّ زينب قد أوصتها تدخل عليّ بالشاي والقهوة وكل ما أطلبه، حاولت النوم مبكرًا كي أصطاد سمكًا في الصباح الباكر كما وعدني الأب.

كنت قد تمشّيت معه بالبلدة وجلسنا في أحد مقاهيها، بدا متحرّجًا في بداية الأمر وهو يقدّمني لمعارفه. لم يذكر أنّني زميل ابنته قائلاً إنّني صحفي. وقد ورّطني هذا بشدّة واختنقت بأسئلتهم وطلباتهم واقتراحاتهم، ولم أتحمّل الجلوس بينهم أكثر من ساعة واستأذنت بحجّة الإرهاق. اخترقنا الحقول بمحاذاة الطريق الذي بدا طويلاً ومملاً، قلت له وأنا ألحق به وأكاد أتعثّر من الظلام الذي يحيطنا: يا

Twitter: @ketab_n

عمّي أنا زميل بنتك التي لها قدر كبير عندنا وأنا لي شرف كبير لو عرّفتني للناس بأنّي زميلها، لم يعلّق كأنّه يستمع إلى لغة لا يفهمها، خطواته اتسعت إلى حدّ يقترب من الهرولة وكنت ألاحقه بصعوبة حتى تخيّلت أنّه يتمنّى أن أتوه منه في هذا الظلام الدامس ولا أعود إلى منزله. لكنّي على العشاء تعمّدت أن أثير هذا الموضوع مرّة أخرى أمام الأم التي سمعتني للنهاية، ثم قالت بابتسامة طيّبة: إحنا في الصعيد يا بني خلّي عمّك الحاج هو دايمًا اللّي يتكلّم هو عارف سلوكهم. كان أحمد يحدّق فيّ بحميميّة، ثم ينظر إلى اللعبة التي أحضرتها له وكانت ملقاة بحجره، ثم ينطق بكلمات غير مفهومة لا يملّ من تكرارها. أنهيت طعامي ومسحت فمي بالفوطة، ثم نهضت وانحنيت على أحمد أقبّله في جبينه وعلى وجنتيه غير عابئ بلعابه المتدلّي من فمه. كانوا كلّهم خلفي ينظرون إليّ. الأب الصارم والأم المحبّة والابنة المبتسمة، وكانت تغمرني ظلال دفء وحنان.

كان غرضي الرئيسي من هذه الرحلة أن أهب بعض المال لأهل زينب عِوضًا لها عن بعض ما قدّمته لي، خاصّة وأنّني تخوّفت ألاّ تستطيع هي توفير بعض المال من رحلتها إلى المكسيك ويتورّط أهلها في مشاكلهم الحياتيّة. رقدت فترة أفكّر في طريقة لإدارة الحوار مع الأب دون أن يحسّ بأنّ هناك شيئًا مريبًا خلف هذا المال. وكان غرضي أيضًا أن أنسى من في القاهرة. لكنّني لم أنسهم بل اصطحبتهم معي جميعًا. عصام وسامنثا وياسمين التي من الأفضل تغليفها بسلوفان مكتوب عليه ممنوع اللمس، ومارشا وكريم، ثم تذكّرت رحلة ياسمين ولو كنت في حالة نفسيّة أكثر هدوءًا ربما كنت قد اعتبرت هذه الرحلة بشارة من هند. فهند كانت لديها الفكرة نفسها، وجالت مع فريقها أغلب محافظات مصر وانضمّت إلى الجوّالة بالذات حتى ترى كل بقاع المحروسة، وكانت دائمًا تطالبني بأن أحذو حذوها، ورغم

Twitter: @ketab_n

الحبّ الذي كان بيننا لم أر من مصر بخلاف المصايف والقاهرة بلدًا آخر غير المنيا أخيرًا. عملت في بلدان عربيّة وزرت أميركا ولم أر بلدي..

ياسمين وهند تطابقتا في حبّ مصر. لكنّني لم أعتبر الرحلة بشارة. إنّها مجرّد مصادفة. لن أجعل رغبتي في لقاء هند جسرًا تمرّ عليه ياسمين. أنا ما عدت أحتملها وما عدت راغبًا في مخاطبة نفس بشريّة، يكفي ما علق بي من شوائب هذه النفوس. وكفاني ما جسّدته لي من تصوّرات وأوهام لا تصمد طويلاً أمام الزمن. لن أسبغ على ياسمين بعد الآن أيّة صفة من صفات هند. مهما كانتا تتشابهان في الأهداب والحواجب الكثيفة التي لم تشذّب، أو في الأنامل الرقيقة الملوّثة بالحبر الجافّ، أو في كثير من التفاصيل غير المهمّة. هند كائن نوراني وجد بمفرده وإمكانيّة إيجاد مثيله مرّة كل خمسة قرون نسبة لا تتعدّى واحدًا إلى المليون، وقطعًا لن تتكرّر هذا الزمان.

كريم حالة مستثناة من أولاد الشوارع. أطاحت به الدنيا فأطاح بكل ما قد يمتلكه أو يحصل عليه. ومهما تشابكت حوله الحياة وأظلمت الدنيا في عينيه، أغرق نفسه في بحور الكُلّة منفصلاً عن هذا الواقع. تراه قزمًا تافهًا أجرب يستجدي الناس في الشوارع، لكنّه في عرينه ينفرد جسده بشكل عجيب وتستقيم يده ويتضخّم صوته، ويصبح قادرًا بمفرده على أن يسيطر على مجموعة من أرباب السوابق ومحترفي الإجرام. نَمَتْ بيننا حالة إنسانيّة عندما تكرّرت زياراتي لهم والإقامة بينهم. كان كريم بمثابة رسولي إليهم في كل ما أطلبه حتى عندما يتمادى أحدهم في اختلاق حكاية بزغرة واحدة منه كان يعتدل ويصحّح حكايته. كانت وردة هي جرحه القاسي، فرغم أنّها حبسته وأنّه ثأر لنفسه وطردها من وسط البلد. كنت حين أنكأ جرحه وأحدّثه عنها يكاد أن يبكي. كان غير مهتمّ بمن تضاجع فردًا كان أم مئة، بقدر ما كان

Twitter: @ketab_n

يتابع أخبارها دون أن تدري مخافة أن يؤذيها أحد فيهرع لنجدتها. لأولاد الشوارع قلوب أيضًا وعندما يحبّون لا يحتمون خلف رمزيّة الشعر ويدعون أنّهم سيتخلّون عن الأهل من أجل الحبيب، أولاد الشوارع ليس لديهم ما يتخلّون عنه، لذا عندما يحبّون ويفشلون في حبّهم يأكلهم جرحهم الدامي حتى النهاية.

لم أنم نومًا منتظمًا وزاد الطين بلّة أنّ الأب أيقظني في وقت مبكر بعد أن فرغ من عمله بالحقل، لم أكن معتادًا على شرب الشاي بالحليب لكنّني شربته من أجل خاطر زينب واستمتعت به كما كانت تستمتع به في لقاءاتنا. كنت أتجوّل في دارهم فاقدًا الدهشة، كأنّني جئت هنا من قبل. كنت أعرف تقريبًا كل طوبة بالبيت.. هل ما كانت تخطر به زينب أثناء نومنا له دخل بهذا الإحساس؟ لست متأكّدًا..

ذهبت إلى الصيد على بعد خطوات من البيت وعدت بلا سمكة واحدة، وأرضى هذا أباها جدًّا ولا أدري لماذا! لكنّني استمتعت بأكل صيده.. ذاكرت لأختها صفيّة منذ الظهر ولاعبت أحمد كثيرًا. أحمد طفل في سنّ العاشرة معاق بذراعيه إثر إصابته بالحمّى الشوكيّة وهو رضيع، ويسمع بضعف وينطق بتهتهة وينخضّ من أيّ صوت مفاجئ؛ وكنت أتجنّب الخوض في الكلام عن زينب حتى لا أخطئ، أو يسهو عليّ فأخبرهم بمعلومة قد تضرّها، لكن أمّها كانت متحفّزة دائمًا للاستفسار عن ابنتها. تستدرجني بأحاديث عامّة ثم تباغتني بسؤال: زينب بتتصل بيك؟ أجبت بعد تردّد: لا. فهزّت الأمّ رأسها وهي تقول: كلِّمتنا أوّل ما وصلت، وبعد كده مافيش تليفون جه منها.

انشغلت نفسي الأمّارة بالسوء مُقسمةً لي بأنّ زينب قد هربت، ومن المستحيل أن تعود مرّة ثانية إلى هذا الفقر المدقع الذي رأيته بنفسي، والآمال الكبيرة المعقودة حول رقبتها من والديها وأختها والطفل الصغير. شعورها بالعجز عن تلبية هذه الاحتياجات حتى لو أصبحت

Twitter: @ketab_n

مومسًا محترفة سيدفعها إلى الحلّ المنطقي: الفرار.

وجدت نفسي في مغامرة فاشلة ـ كالعادة ـ بإقحام نفسي على حياتهم. وهم ـ بدورهم ـ سيقتحمون حياتي كلّما مرّت الأيّام دون أن يسمعوا عن زينب شيئًا. وقد يعرفون أن لا مؤسّسة صحافيّة أرسلت ابنتهم إلى الخارج، ولا يحزنون، ولا يوجد مكتب صحفي ولا تذاكر سفر، وقد يتهمونني بإخفائها أو يقتلونني، لا يهمّ. فأنا أغوص منذ سنوات في بركة خراء متحرّكة، لست ناجيًا منها، ومصيبتي أنّ أمد الغرق يبدو طويلاً جدًّا.

أفقت على الأمّ تحدّق بي، افتعلتُ ابتسامة وقلت: عندي شغل كتير متأخّر وبفكّر فيه.. همّت الأم بالانسحاب، أخرجت المظروف من جيبي ومددت يدي به إليها، تحوّلت تعابير وجهها إلى الحدّة والقسوة بسرعة كبيرة وسألتني باستنكار: الظرف ده في إيه يا أستاذ؟ أجبت بسرعة بأنّه يحتوي على مبلغ كنت قد اقترضته من زينب قبل سفري إلى الجزائر، وأنّني عندما رجعت وعلمت بسفرها لم أدر لمن أردّه حتى سألت في المؤسّسة عن عنوانها، وانتهزت المهمّة التي كُلّفت بها للحضور إليكم، لم يبدُ على وجهها الاقتناع وقالت بحدّة: بنتي حتجيب الفلوس دي كلّها منين. كانت تنظر بداخل المظروف وكنت مندهشًا، فمبلغ الألفي جنيه من الصعب أن يطلق عليه كبير، قلت لها كل ما خطّطته سابقًا بأنّها كانت مشتركة بجمعيّة في المؤسّسة وقبضت المبلغ وساعدتني به كي أسافر، وأنّني كان من المفروض أن أردّه بمجرّد سفري، لكن ظروفي ارتبكت هناك فاتصلت بها واستأذنتها أن تصبر عليّ قليلاً، وأنّ زينب حلفت بكل الأيمانات أنّها لن تأخذهم إلاّ عند عودتي لأنّ المسألة مستورة معاها.. قلبت الأم الظرف بيدها ثم ألقته بجواري على الكنبة وغادرتني وهي تقول: هاروح أنادي أبو أحمد.

Twitter: @ketab_n

كان هذا ما يقلقني. . والد زينب وجهه حادّ وقسماته عنيفة، ويعايره أخوه بأنّه لم ينجب إلاّ ذكرًا معاقًا، وقد خشيت أن أعطيه المبلغ وأنا أصطاد معه وراجعت خطّتي، ورأيت أنّ من الأفضل إعطاءه للأمّ، لكنّها أفسدت كل شيء وها هي تنادي من أخشاه. . غمرني شعاع ليزر قوي بمجرّد أن دخل الأب وكان مصدر الشعاع عينيه. جلس إلى جواري دون أن ينطق في بادئ الأمر، وترك مساحة الصمت تزيد من توتّري، ظلّ يتبادل مع الأم نظرات ذات معنى متّفَقًا عليها بينهما وأنا أجهل ما هي. فجأة سألني: خلّصت الموضوع اللي بتكتبه؟ أجبت بصوت متوتّر: خلصت أغلبه هنا، وبكرة أخلّص الباقي في المنيا. أردف باستفسار قلق: يعني أنت جاي عشان الجورنال بتاعك فعلاً؟ هززت رأسي، قال بلوم: أمال إيه موضوع الفلوس ده؟ جاهدت حتى لا تخذلني نبرات صوتي: أنا قلت للست أم أحمد الموضوع، وده دين لازم أرده، ولقيتها فرصة وأنا جاي المنيا أمرّ عليكم. همست الأم بصوت مبحوح: مش عيب يا بني تزكّي علينا لو ما كنتش عامل خاطر لينا كنت اعمل خاطر لزميلتك.

أدركت الآن عقدة المسألة فحللتها على الفور وقلت بحماسة: العيب هو إنّك تفكّري فيا بالشكل ده. . هازكّي عليكم ليه وإزاي وأنا عيلتي أفقر منكم. صحيح إحنا عايشين في القاهرة. . بس عيشتنا ما تفرقش عن عيشتكم كتير. . لو كانت فلوس الدين هاتزعلكم، أنا ممكن أسيبها في الجورنال لحدّ ما ترجع زينب أو ممكن تخلّوها عندكم وتبقوا تسألوها لما تتصل بيكم. أنا لمّا قبلت دعوتكم إنّي أبات هنا. كنت فاكر إنّ زينب كلّمتكم عنّي. . عن زمالتنا. . بس من الواضح إنّها ما قالتش حاجه خالص. على العموم أنا باعتذر عن سوء الفهم. واللي انتو شايفينه اعملوه.

بكلماتي هذه رددت لهم الصاع صاعين، وبدوا ميّالين لتصديقي،

Twitter: @ketab_n

واندفعت الأم والفرحة تتخلّل كلامها، تؤكّد لي أنّ زينب أخبرتها عنّي وعن أخلاقي، شدّ الأب على يدي، ثم تناول الظرف بسماحة وهو يقول: لو كنت محتاج منهم أيّ فلوس خدها وبعدين ابقى ردّهم.. فشكرته.

بعد هذا الحدث بدأت الأم تعاملني بحميميّة أكثر، تقرّبت إليّ وقد وصلتها رسالتي، وباتت تعتقد أنّني الزوج المقبل لزينب فأطالت وأسهبت في وصف عادات زينب الجميلة وطبيعتها الطيّبة وخوفها عليهم وحنانها تجاههم. لم أشأ أن أقطع القشّة التي تعلّقت بها الأم، الأدهى أنّني ساهمت في تضخيمها وأنا أوحي لها بأنّني سأنتظر عودة زينب وسآتي معها إليهم مرّة أخرى. كادت الأم تطير فرحًا ـ من لديها ابنة مثل زينب بالقطع ستكون في قلق دائم. أزحت عنها همّها ولم أقل وعدًا صريحًا واعتمدت على نبوءتي بأنّ زينب لن تعود، ولو عادت فاحتمال وجودي في الحياة ضئيل. وحتى لو كنت موجودًا فلا مانع عندي من الاقتران بها وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟ كنت قد قرّرت السفر في الصباح الباكر رغمًا عن إصرار الأمّ على بقائي. جلسوا معي طويلاً عقب العشاء ولم تخرج معاملة الأب عن حدّ الضيافة وإن شابها بعض الودّ القليل. تحلّقنا حول شاشة التليفزيون المصري نتابع اقتحام القوات الإسرائيليّة لغزة وكان المذيع يقول الخبر باقتضاب.

عندما وصلت القاهرة وجلست بالساعات أتابع الفضائيّات بقلق وخوف وضيق وغيظ، أدركت أنّ الرقابة العثمانيّة القديمة لاتزال جاثمة على صدورنا حتى الآن، وأنّ رقباءها مازالوا يعيشون بيننا، وأنّهم تعاملوا مع خبر العدوان الإسرائيلي على غزّة بتعاملهم نفسه مع الثورة البلشفيّة عام ١٩١٧ بمنطق «وقعت في روسيا خناقة بالأمس».

Twitter: @ketab_n

- ٢٣ -

كان عصام أمامي يفتح حقيبته الدبلوماسيّة ويدوّن أرقامها السرّيّة ويلصق أوراقًا صغيرة مكتوبة بخطّ يده على مفاتيح الشقّة والدواليب وغرفة مكتبه ومرسمه، ثم يعطيني بعض التعليمات الخاصّة بتفقّد مواسير الغاز، وإحكام غلق النوافذ وصنابير المياه، ثم بعد ذلك يدوّنها لي خوفًا من ذاكرتي الضعيفة، كما أوصاني بدفع الإيجار إذا ما قرّر الاستقرار بصفة دائمة في سنغافورة.

كنت قد مررت عليه كي أصطحبه إلى بيت الطالبيّة ليأخذ لوحاته التي سيدرجها ضمن معرضه القادم بالقاهرة، لكنّه فاجأني باصطحابي إلى منطقة مجهولة من الكون: بقرار الاستقرار بسنغافورة. لم يأبه لي ولم يسمعني حتى وأنا أذكّره بما قاله في الماضي عن استحالة هذه الفكرة. كان يردّد بعض أذكار الصوفيّة القديمة وأشعارهم، ثم جملة «الله أراد» التي يتخفّى وراءها حتى لا يقول إنّها إرادة سامنثا. لم أفلح في إثنائه عن الفكرة أو زحزحتها قيد أنملة أو تأجيلها مؤقتًا إلى ما بعد إقامة معرضه. . كان كل الحزن والأسى والحنين الراقد في عينيه قد بدأ في التحرّك والتداخل بنسب غير متساوية، وكنت حائرًا أمام نظرات عينيه التي تبدو لمّاعة مضيئة لحظات وكئيبة وكابيّة لحظات أخرى. كان قد قرّر الرحيل والمستحيل نفسه غير قادر على إيقافه.

كان عوض سعيدًا ببطن زوجته عائشة المدلاة أمامها. تشغله عنّي وعن حديثي، ويظلّ يربت عليها طيلة جلستنا، ثم يأخذه الانفعال

Twitter: @ketab_n

فينهض بشوق ليستمع إلى ما بداخل بطنها ويدعوني إلى الاستماع وأنا بحرج بالغ وعائشة كذلك. ظلّ التوتّر يتصاعد بداخلي وقد تكون عائشة أحسّت أو أدركت حاجتي للانفراد بعوض، لأنّها قامت واستأذنتني في الخروج من البهو.. وكان عوض في قمّة انجذابه قام على الفور وظلّ يداعبها في ظهرها ويلفّ بسرعة ليواجهها ثم يتحسّس بطنها، ويحتضنها حريصًا على ألاّ يلمس جسده بطنها، ثم يرتدّ إلى الخلف ويسندها بظهرها وكانت عائشة تضحك بصفاء، وكنت أغلي من الغيظ وبيني وبين قرار الفرار من بيت هذا المعتوه شعرة واحدة. مدّت عائشة قدمها بقدر استطاعتها وخرجت ومنعته من أن يخرج خلفها وهي تشير إليّ. هنا تنبّه إليّ ثم تذكّرني والحمد لله وجاء ليجلس بجواري. كان طبيبي يذكر أنّ عندي هوسًا اكتئابيًّا وهوسًا مرحيًّا، وكنت أعرف الهوس الاكتئابي لكنّني لم أدرك أبدًا هوس المرح. أدركته الآن عندما رأيت عوض. كان يصفّر بفمه ويضرب بيده على فخذه إيقاعات أوروبيّة وعربيّة. أوقفت يده فأحسّ بتوتّري ولزم الصمت، بمجرّد أن هممت بالحديث عن عصام، أومأ برأسه وأشار بيده أن أتوقّف وانطلق هو في الكلام، وفوجئت بأنّه يعرف كل شيء عن نيّة عصام بالاستقرار في سنغافورة، بل يعرف الأدهى والأَمَرّ. كان عصام يهاتفها فلا تردّ، وتترك لصاحباتها الردّ بدلاً منها، وكانت تهمل رسائله وإيميلاته، وإذا ما وجدها على الشات كانت بمجرّد محاولته الاتصال بها يختفي ضوء موقعها. كل هذا كان يحدث في غضون الأشهر الثلاثة الأخيرة، ولم أعلم عنه شيئًا من عوض المنشغل بزواجه وعصام الذي كان يحاول أن يبدو أمامي قويًّا وينتظر أن يخرج من معركته منتصرًا ويملي قراراته على سامنثا. لكنّها جابته لمس أكتاف ببعض التكتيكات الأنثويّة الصغيرة التي كنت لا أتوقّع من عصام أن تنطلي عليه. قال عوض إنّها بدأت معه بتضخيم وحدتها القاسية بسنغافورة بدونه، ثم بالتراجع عن اتفاقها

Twitter: @ketab_n

معه بأن يبقى بمصر ويزورها كل فترة، ثم طلبت منه ببجاحة أن يترك الفنّ ويعمل معها في البيزنس ثم أهملت الردّ عليه كليّة. قال عوض أيضًا إنّه نصحه كثيرًا وطلب منه ألاّ يرضخ لها، وقد استجاب عصام فعليًا في بعض الأوقات لعوض، لكنّه في النهاية خلع سرواله.

مارشا سَرَّها كل ما قلته عن عصام وأبهجها سبّي ولعني لسامنثا، وكانت تخفي بالكاد بسمتها واستخفافها حرصًا على مشاعري. وكنت في قمّة غيظي من شماتتها هي وعوض لإصراري على التأكيد بأنّ عصام لن يرضخ لسامنثا أبدًا وأنّه لن يستقرّ هناك. ها هو قد قدّم فروض ولائه وخذلني مرّة أخرى. انصرفت بسرعة من أمام مارشا حتى لا يستفحل ضيقي وكدري.

جلست أشرب محاولاً استرداد صفو ذهني، لكن هيهات!! بعد أن اقتنعت بسامنثا وبدأت أحبّ درجة عشقها لعصام وأتمنّى أن أجد مثيلتها. ها هي تعود لصورتها السابقة عندي في بداية علاقتها به. أسفرت عن وجهها القبيح. لم تسفر عنه، فقد كان كامنًا ومازال قبيحًا. الأمر لا يتعدّى إلقاءها حفنة تراب في وجوهنا أخفت بها دمامتها. ثم انجلت السماء وانكشفت أبصارنا لنراها على حقيقتها. وها هي تتخلّى عن صديقي النبيل لمجرّد أنّه لا يحتمل البقاء في بلادها كثيرًا. هل تظنّ الحمقاء أنّها ستجد بديلاً يماثل عصام في موهبته ودماثته وذوقه ونبله؟ وهل سيكون البديل أحد مواطنيها من آكلي أمخاخ القرود، أم أحد الأجانب المستثمرين في بلدها من فاقدي البصر؟ إذا كان فرجها هو سبب آفتها؛ فلتسدّه بالإسمنت وتنتظر عودته. جدّاتنا بالصعيد كنّ يفعلن ذلك. يغادرهنّ الأزواج للعمل بالسخرة في شقّ القناة أو بناء السدّ أو في التشييد والبناء ببلاد النفط لسنوات وسنوات. وكنّ لا يشتكين من الانتظار. مجرّد تسلّم رسالة واحدة من الزوج أو شريط كاسيت بصوته أو قطعة قماش رخيصة أو حتى وعد بالحضور

Twitter: @ketab_n

على لسان زميل، كان يكفيهن جدًّا وكُنّ يتلمّسن أشياءه في كبد الليل طوال سنين الغياب. لم تطلب واحدة منهن الطلاق أو خطر على بالها، ولم تكتشف حالة خيانة واحدة، ولم تنم إحداهنّ مع إنسان أو جماد أو حيوان لإطفاء الشهوة. وهذه العفنة القذرة إمّا أن يدور عصام في رحى ساقيها ويطحن دقيقها أو تحصد رأسه بالمنجل. لقد أحبّها التعس بحقّ وحقيق وهي وحدها التي بيدها إفلاته.

Twitter: @ketab_n

- ٢٤ -

جلست مارشا بين صديقاتها وديانا عن يمينها تسند على صدرها رأسها وهنّ يتابعن إحدى القنوات الإخباريّة العالميّة. قبّلتني واحتضنتني وأجلستني إلى جوارها. كان الريموت في يد ديانا ومارشا تخفي قلقها من أن يخرج تعليق يستفزّني منهنّ. تركتني أتابع لحظات ثم ضغطت على يدي للانتقال إلى الداخل. سألتني عن تطوّرات العمل فأجبتها باقتضاب. سألتني إن كنت أمانع في أن تبقى صديقاتها بعض الوقت ريثما تصرفهنّ، بينما أنا أدخل على شبكة الإنترنت، رفضت بعد أن كنت عاقدًا العزم على المبيت عندها. شيء ما كدّرني فألغيت الفكرة. عندما هممت بالانصراف سألتني بدهشة لماذا؟ أجبتها بأنّ كريم طلبني في المحمول قبل أن أصعد إليها بدقائق، وقال إنّه يريدني في شيء مهمّ لم يفصح عنه. وكان هذا صحيحًا. وقادتها دهشتها بعيدًا عن كل التخمينات المتعلّقة بانصرافي المبكر، وبان عليها القلق وهي تتساءل: هل حدث لهم حادث يتعلّق بنا هناك؟ طمأنتها بقولي: كريم ليس عنده شيء طبيعي أو غير طبيعي، كل الأشياء متماثلة بالنسبة له. الاحتمال الأكبر أنّه يريد نقودًا. تنفّست مارشا بعمق وقالت بحماسة: تاخد فلوس تديهاله. قلت بحسم: معايا. وبعدين متعوديهمش على كده. أنا أدرى بيهم منك، أومأت برأسها متّفقة معي، ثم أمسكت بيدي ترجوني أن أعود وتهمس لي بأنّها ستصرفهنّ بسرعة. قبّلتها وانصرفت.

Twitter: @ketab_n

كان موعدي مع كريم في منطقة وسط البلد. بمجرّد أن جلست رأيته قادمًا من على بعد يسير منحنيًا بأقدامه العارية ويده اليسرى معقوفة، يشمّ كلّة ثم يفتعل التركيز حتى يجد ضالّته من الأجانب كي يتّجه إلى مناضدهم يتسوّلهم إلى أن يطارده الجرسون أو أحد الخرتيّة الذين يصحبونهم. كنت أنفث دخاني بغيظ وأنا أراه كأرجوحة الموالد تارة قريبًا جدًّا منّي وتارة أخرى في نهاية الشارع.. ملل.. ملل.. ملل.. وسأم وأنا في انتظار طفل الكُلّة المدهش. أخيرًا رآني واقترب وأشحت بيدي للجرسون كي يبتعد، وأجلسته أمامي غير مبال بالروّاد الفضوليين. لم يتكلّم حتى أمسك بكوب عصير المانجو بين يديه، وألقى بالشفاط على الأرض ومضى يحتسيه بتلذّذ وسعادة. ثم أخرج لي سيجارة من جيبه فنهيته بنظرة يفهمها، فاقترب منّي وهمس: ها تيجي عندنا النهارده؟ وبّخت هذا الأحمق وأنا أجزّ على أسناني حتى لا يرتفع صوتي بسبّه. كنت قد أكّدت له مرارًا وتكرارًا أنّ مبيتي عندهم سيكون باتفاق مسبق بيني وبينه شريطة ألاّ يخبر أحدًا بذلك حتى البنت التي يشتهيها أو الولد الذي يمتطيه. إنّك إن أسمعت حمارًا لفهم ويبدو أنّ كريم أسوأ من الحمار، وكل فكرتي عن ذكائه وألمعيّته محض خزعبلات. كان يتأمّلني ويبدو سعيدًا بحنقي، ثم لمعت عيناه وخفض تون صوته جدًّا واقترب إلى حدّ أزعجني بخار فمه، فابتعدت وهو يقول: أصل الباشا طلبني النهارده الصبح، سألته بفضول: الباشا مين؟ قال مبتسمًا: الباشا بتاع منطقتنا هنا.. بتاع عابدين مش السيّدة زينب، ضغطت على حروفي ليفهم: عابدين إيه والسيّدة إيه؟ فهّمني بالراحة، غمز بعينه وهو يقول: الباشا المأمور. انتبهت ولم أرغب في ابتلاع الطُعم، قلت بتحدٍّ: وعايز منك إيه مأمور عابدين؟ ثم أكملت باستعباط: هي البنت.وردة قدّمت فيك بلاغ تاني؟ شرد لحظة ثم هزّ

Twitter: @ketab_n

رأسه نافيًا ذلك، وقال بحروفه المبتورة: مش عشان وردة.. عشانكو، قلت في نفسي ها قد بدأ العبث، وكريم يلاعبني ولو اهتززت أو ضعفت لن تنتهي سلسلة الابتزازات. تجلّدت وسألته بخبث وسخرية: وطبعًا سألك أنا باعمل عندكم إيه بالليل، اندهش كريم بشدّة وقال: هو مايعرفش إنّك بتبات معانا، وبعدين ده مأمور عابدين مش السيّدة.. «يخرب بيت أمك يا كلب ستبدأ اللعب معي بالألفاظ؟» كدت أبطش به جرّاء القلق الذي انتابني منذ لحظة مكالمته لكنّني تماسكت وكابدت حتى أبدو هادئًا، فترة صمت طالت ويبدو أنّه قد تهيّأ له أنّني تفوّهت بشيء، لأنّه قال: مش أنت ولا الست الخوجاية. صرخت فيه بحدّة: إيه دخل الخواجاية مش قلتلك يابن ستّين ماحدش منكم يجيب سيرتها خالص. اندفع مدافعًا عن نفسه: أنا ماجبتيش سيرتها.. اسمعني بس يا أستاذ.. أصل الحكاية، ثم تاهت من ذهنه الحروف فأعطيته سيجارة ليهدأ ويتكلّم كلامًا مفهومًا. أشعل السيجارة ثم قال أصل لا مؤاخذه فيه بكرة مظاهرة في طلعت حرب. مش عارف عشان إيه. والباشا زي ما أنت راسي عارف إنّ دي منطقتنا وعارف إن أنا الكبير فيهم. قابلني وقال لي استنضف لي خمس ست عيال كويّسين من عندك وبعدين بعتنا بيت كبير قوي ونظيف وادونا هناك فلوس وحاجه ساقعه.. «أيها الممل فين هي الحكاية؟» يبدو أنّه أحسّ بعدم فهمي لأنّه أعاد غمز عينه الكالحة، ثم قال لي وهو يتلفّت يسارًا ويمينًا: بصراحة الباشا طلب منّا أوّل ما نشوف حدّ بيصوّر ولاّ شايل شنطة وبيوزّع ورق وبنات مايصه بتصرخ وتهلّل.. نخطف الكاميرا والشنط ونمدّ إيدنا على البنات. استمعت إليه مليًّا واندهشت لما يقوله، لكن لم أفهم علاقتي بكل هذا، لذا قلت بغيظ: وأنا ما لي بكل الحوار ده؟ ردّ بثقة: هو أنت والستّ مش بتروحوا معاهم تصوّروا.. أنا شفتكم. نبّه عليها تصدّر العبيطة

Twitter: @ketab_n

بكره وماتروحش المظاهرة، انتبهت ورغم شعوري بالامتنان لقلقه علينا إلاّ أنّني قلت له بصراحة: يعني إيه؟ همس بودّ: دول نابهم أزرق يا أستاذ. اسألني أنا والخواجاية مش وش بهدلة، أخرجت له بعض النقود كي أصرفه، لكنّه رفض أخذها بإصرار، وتحرّك بعيدًا.

قادني شوقي لعصام إلى الذهاب إلى المركز الثقافي الهندي، والانتظار بقاعة مولانا «أبو الكلام آزاد» أتصفّح بعض الكتب الخاصّة باليوجا والسيطرة الروحيّة على النفس وأتسلّى برؤية المنتهين من تدريباتهم، وأزور معرض الفنّ التشكيلي المقام بالقاعة. كانت مسؤولة الاستقبال تعرفني لكثرة صحبتي لعصام وانتظاره بهذه القاعة. لم تسألني إن كنت أرغب بالاشتراك أم لا. لم تقدّم لي استمارة. لم تقل لي إنّ عصام غير موجود. لم تشرح لي مميّزات العضويّة الشرفيّة. فقط جاملتني بابتسامة رقيقة وقدّمت إليّ كوبًا من الشاي الأخضر بأدب جمّ. لم تكن هنديّة ولا أجنبيّة، كانت مصريّة أكسبها وجودها بهذا المكان ملمحًا هنديًّا مميّزًا.

زهق.. زهق.. زهق.. وملل فظيع، وجرّتني قدماي مرّة أخرى إلى مارشا حاملاً معي ما قاله لي كريم كقصّة طريفة. كان كل ما قاله لي أعرفه ولا يغيب عنّي، ولا عن مارشا ولا عن المتظاهرين. لكنّني رأيت أن أقوله حتى تشعر بالامتنان تجاه كريم مثلي، لكنّ المدهش أنّي بمجرّد أن قلته لمارشا أصابها وجوم لحظيّ، ثم أرجعت رأسها للوراء ومضت تداعب بأصابعها نهايات شعرها وهي شاردة، وأخيرًا قالت بعد تردّد: لو تحبّ ما تجيش معايا مش مشكلة. ثم بإصرار: أنا هاروح وأصوّر. وأثار حنقي جدًّا أن تظنّ أنّ ما يشغلني هو أن أذهب للتظاهر أم لا.. أنا لا أملك الآن غير التظاهر. ما عادت لي انتماءات تنظيميّة ولا خلايا سرّيّة، ولم يعد باقيًا غير أن أصرخ بأعلى صوتي وأنفعل

Twitter: @ketab_n

وأملّي عيني برؤية بعض الزملاء القدامى الذين أصبحوا رأسماليين أو مخبرين أو إخوان مسلمين أو متفرّجين. .

كانت التظاهرة بخصوص المعاملة القذرة التي يعاملها الأميركان لأسرى الحرب العراقيين في سجن أبو غريب، وكانت مارشا حريصة على حضورها وتوثيق مشاهدها، وأعتقد أنّها كانت تظنّ أنّ حماستي للاحتجاج ضدّ الممارسات الصهيونيّة في فلسطين أقوى عندي من انتهاك عرض الأسرى، وإلاّ فما معنى كلامها بأن تذهب بدوني. . أو قد يكون كلامها نوعًا من التحدّي. شردت طويلاً وظلّت تراقبني بصمت وقلق منتظرة كلماتي، وكأنّي ألقي بماء غسيلي الوسخ كلّه في وجهها وليكن ما يكون. ولأنّي صرت أسير حالتي النفسيّة المتردّية من سفر عصام وما أراه عبر الفضائيّات ومن وجودها كأميركيّة في حياتي، صرخت في وجهها: هاحضر وأتظاهر ضدّ ولاد الوسخة دول واللي بيعملوه فينا. رجفت قليلاً من حدّة كلماتي ثم اقتربت منّي واحتضنتني وهي تربت على ظهري وتهمس كأنّها تهدهد طفلاً عصبيًّا: الحرب دي وحشة قوي. . كل يوم ناس بتموت وتتعذّب. . إمتى تتخلّص الإنسانيّة من حيوانيّتها وتتسامح!!

ذكّرتني بدروس الإنشاء والتعبير التي كنت أدرسها في طفولتي وأصبحت أُدرّسها بعد تخرّجي. . زادني كلامها الأجوف قرفًا. فلم أشأ أن آكل أو أشرب، ونهرت الخادمة جوليا بشدّة عندما تأخّرت في إحضار علبة سجائري إلى غرفة النوم. تبعتني مارشا إلى الغرفة بعد أن صرفت جوليا التي كانت لاتزال واقفة بالباب تراقب توتّري بخوف. كانت مارشا راقدة إلى جواري تتابع التليفزيون، فقلت لها: تصبحي على خير، وأعطيتها ظهري. سألتني إن كان صوت التليفزيون يزعجني، فأجبت بنعم فأغلقته على الفور، لم تجرؤ على ملامستي،

Twitter: @ketab_n

وحافظت على الحد الهوائي الفاصل بيننا، كنّا راقديْن على السرير نفسه وأنفاسها اللاهبة تعبر جسدي حتى تصل إلى أنفي، وكنت قد بدأت أشعر بصوت دقّات قلبها وأتخيّل صدرها يعلو ويهبط وبالتباعد الزمني بين دخول شهيقها وخروج زفيرها حتى سكنتْ تمامًا وبدأت تغطّ في نومها. اندهشت لكل هذا القدر من الأمان الذي تمنحه لي، ما يدريكِ يا مارشا بما يدور في ذهني الآن.. وبما قد أفعله! وبما قد يقودني جنوني إليه؟

Twitter: @ketab_n

ـ ٢٥ ـ

حضرنا التظاهرة التي حذّرنا منها كريم، ومارشا صوّرت ما باستطاعتها تصويره قبل أن تفضّ الشرطة هذا التجمّع. ورأيت كريم وأصحابه يحومون حول المتظاهرين، لكن بمجرّد أن اكتشفني غضّ عينيه خَجلاً وغاب عن ناظري. عندما بدأت الشرطة في استخدام العنف مع المتظاهرين، جذبتُ مارشا بشدّة نحوي حتى لا تستمرّ في توجيه عدسات الكاميرا إليهم وتستفزّهم. أطاعتني على مضض وتابعتني، وهي تقدّم رِجلاً وتؤخّر الأخرى وأنا أندسّ في أحد الأزقّة. جلسنا في مقهى قريب لنستريح. بدأت بعتابي ولومي لأنّني تحرّكت بسرعة، من الممكن لجواز سفرها أن يحميها! لكن من يحميني؟ لو قُبض عليّ ستتحرّك الملفّات القديمة ووقائع اعتقالي أيّام الجامعة، وعلاقاتي بالأجانب وما رصدوه من صور وتسجيلات بالفيديو لاشتراكي بالمظاهرة وتوقيعي على البيانات، وليس مستبعدًا أن يوجّهوا لي تهمة تجسّس، أحيانًا أشعر أنّ هذا خير مصير وأحيانًا أعتقد أنّ ما يريده القدر لي أرفع شأنًا وأعظم. تتجمّع بداخلي كل الخصال المتناقضة: الشجاعة والجبن. الخوف والجرأة. الرومانسيّة والواقعيّة. حبّ الحياة ولذّاتها والعدميّة. لكن أنا سيّد قراري ولا ألف مارشا تستطيع أن تسيِّرني خلفها. بدت مغتاظة من صمتي، وبعد أن شربت الينسون بعجالة قالت بتحدٍّ: أنا هارجع. ابتسمت وطلبت منها أن تجلس، ظلّت واقفة. أشرت إلى مدخل الشارع الذي يقع بالقرب من ميدان طلعت حرب وفلول الهاربين والمطاردين يندفعون منه باتجاهنا،

Twitter: @ketab_n

ففهمتْ وجلست حانقة، أمسكت بالكاميرا التي كانت فوق المنضدة كأنّها تعلن لهم عن مشاركتنا في المظاهرة، لم تعترض ومدّت يدها بالحقيبة المفتوحة فوضعت فيها الكاميرا بهدوء، قالت باستفزاز: أنا طلبت منك امبارح ما تجيش، رشفت رشفة بُن بعمق واستمتاع، وقلت لها بسخرية مدغمة : تفتكري إيه الأهم فيلمنا ولاّ الجري بالكاميرات وراء المظاهرات؟ انتبهت وارتبكت جدًّا وقد فاجأتها فجاجتي، وظلّت تبرّر تواجدها بكل مظاهر الحياة السياسيّة بمصر بأنهّا مسرورة ومنفعلة بالحراك الاجتماعي المصري وبهامش الحريّة والديموقراطيّة الذي يتسع ويزيد، وبتفاعل الطلبة الذي يذكّرها بالودستوك وحركة الطلاب في الستينات بباريس وفي التسعينات ببكّين، وأنّ وجودها كشاهدة على هذه الأحداث يفتنها جدًّا. . ثم أكملت بكم أكبر من الهراء ظللت أستمع إليه وأنا غير قادر على محو بسمة الاستخفاف من على وجهي، سكتت مارشا يائسة ووجدتني أعيد عليها السؤال نفسه: فيلمنا أهمّ ولاّ هذا العبث؟ نكست رأسها ورضخت كما الزوجة العاقر العجوز حين يخبرها زوجها بأنّه تزوّج عليها بصبيّة ولود، لكنّني لم أسكت حتى خرجت من فمها علامات الاختيار: فيلمنا. . ظلّ الموقف باردًا للحظات ثم عاودها تسلّطها، فقالت هامسة كأنّها تؤنّبني: ومش هاجي معاك أي مظاهرات تاني. كانت تتكلّم بمنطق الطفلة التي حرمها والدها من لعبتها. ضحكت جدًّا وقلت لها بتصميم: هاتيجي بس تسمعي الكلام، ابتسمت وعيناها تبرق من التألّق.

بدأ أسبوع الآلام ليلاً عندما ذهبت إلى مقرّ كريم فأخبرني رفاقه بأنّه في السجن على ذمّة بعض القضايا، لم أجرؤ على المبيت بـ «القصر» دونما حماية، فغادرته على الفور بلا تردّد، بالرغم من أنّ الفتاة التي أخبرتني في البداية أنّ كريم في مشوار صغير وأنّه سيعود ظلّت تلحّ عليّ بأن أصعد، فكريم أوصاهم بي خيرًا. لا أعرف المدّة التي

Twitter: @ketab_n

سيشرّف فيها كريم السجن وسيتشرّف به، وما عليّ إلاّ الانتظار ومحاولة إيهام مارشا بأنّي مستمرّ في العمل.

في اليوم التالي من أسبوع الآلام فاجأني عوض في مكالمة طويلة بأنّ عصام قد عاد بعد أن طلّق سامنثا وأنّه قابله مصادفة في جاليري المشربيّة يتفاوض معهم كي يحجز مرّة أخرى بعد أن أخلّ معهم باتفاقه القديم عندما سافر فجأة إلى سنغافورة. وأضاف أنّ عصام يبدو في حالة جيّدة وقد امتصّ الصدمة تمامًا وعاد كما كان. أنهيت المكالمة ولم أصدّق دقّة ما وصفه عوض لحالة عصام. أنا أدرى منه بعصام، فهو يجيد في أحيان كثيرة الظهور كجبل الجليد العائم، كبركان خامد، لكنّه كما يعرفني أعرفه، إنّه لم يفكر حتى في الاتصال بي أو طلب مفاتيحه الإضافيّة أو الاتصال بعوض الذي لولا أن وجده مصادفة كان من الممكن أن نظنّ بأنّه لايزال في سنغافورة. إنّه لا يقدر على الظهور بجرحه أمام المقرّبين. وأنا من المقرّبين وسأذهب إليه وأواجهه وأعرف هل أبقت سامنثا منه شيئًا، أم تركته فُتاتًا.

احتضنت عصام بودّ وترك نفسه داخل حضني فترة، وأجلسني وسألني وهو يتماسك عن أخبار شغلي وأخباري مع مارشا، وتضاحك معي على عوض وفرحته الغامرة بطفله الجنين. لم يبدِ تعليقًا سخيفًا أو أسفًا على عدم مروري على شقّته أثناء غيابه. لم أشأ إفساد درقة السلحفاة التي يختبئ تحتها. تفرّغت له تمامًا. جهّزت العشاء بمطبخه وأحضرت زجاجة الويسكي وبدأنا الشرب، ظللت أرقبه وهو يرشف كؤوسه، ويغيّب سائلها في فمه لحظات كأنّه يتغرغر، ثم يبدأ في استحلابها ببطء «وكانت تلك طريقة الخبراء، لبلوغ السكر سريعًا». تلوّنت عيناه بلون التراب الكابي، وقال: طلّقتها. لم أعلّق، فأضاف وهو تقريبًا لا يراني: وصلت هناك ومالقتهاش في أيّ مكان من الأماكن اللي عرّفتني عليها. كانت مصرّة ما تقابلنيش. عدت العشرة

Twitter: @ketab_n

أيّام نتكلّم في التليفونات بس. . ما كانش فيه حاجة على لسانها غير مش طايقه أشوفك أرجوك طلّقني. قعدت أبعت لها مع أصحابها وصاحباتها عشان أشوفها مرّة واحدة ما أمكنش.

«مرّت فترة صمت طويلة لم أشأ أن أخدشها». . فجأة نظر إليّ عصام وكأنّه يراني لأوّل مرّة، ثم ابتسم ابتسامة فاترة وأكمل: عرضت عليها أن أقيم بسنغافورة وأعمل معها. . أو في مقالب الزبالة. عرضت عليها أن ننجب أطفالاً وأجالسهم كالمربيّة وأكون أيضًا مربيّة لأطفال صديقاتها. أن أعمل ببوفيه شركتها. أن أمسح مرحاضها. .

انهار عصام وبكى، وخشيت أن أتدخّل بحمق أو أن يدفعني غيظي البالغ منها إلى التفوّه بما قد يزيده ألمًا أو يغضبه منّي إذا ما سَبَبْتُ العاهرة سامنثا. عاد عصام ليواصل خناجره التي يرشقها في جسدي: أخبرتها في محادثة تليفونيّة بأنّي لن أغادر سنغافورة قبل أن أراها، ولن أطلّقها إلاّ بعد أن تشرح لي سبب طلبها الطلاق منّي. . بعد هذه المحادثة بيومين أتتني صديقتها الحميمة أماندا، وواجهتني بقسوة بأنّ سامنثا أحبّت شخصًا آخر من بلادها، وأنّها ترغب في أن تكمل حياتها معه. . لم أصدّق ما قالت ولم أقتنع. سامنثا كانت تهاتفني يوميًّا بالقاهرة غير مهتمّة بحساب الوقت أو القيمة. . ساعة. . ساعتين. . أو المدد المتصلة التي نتبادل فيها كلمات الحبّ التي لا تنتهي أبدًا. لم ينقطع هذا الاتصال اليومي إلاّ من مدّة شهرين قبل سفري إليها عندما قالت لي سامنثا إنّها منشغلة ببيزنس ضخم وتريد التفرّغ له، وطلبت منّي ألاّ أقلق عليها. . فاجأتني أماندا بأنّ سامنثا تعرّفت إلى ذلك الشخص في هذا التاريخ نفسه. تاريخ انقطاعها عنّي. وأنّه دخل حياتها بسرعة البرق ولن يخرج أبدًا كما أخبرتها سامنثا.

بدموع ساخنة واجهني عصام وهو يسألني: هل أعطاها هذا

Twitter: @ketab_n

الشخص في تلك المدّة القصيرة ما منحتها من حبّ طيلة السنتين الماضيتين؟

لم أعلّق، وتركته يخرج قيحه كلّه وهو يستطرد: صمّمت أن أراها وأواجهها وهدّدتها بالانتحار، وأوحيت لصديقتها أماندا بأنّ في استطاعتي أن أرتكب عملاً جنونيًا. طالت المفاوضات بيننا عبر أصدقاء على رأسهم أماندا التي كلّمتها أخيرًا وهي تجالسني، وأخبرتْها أنّي وافقت على طلاقها بشرط وحيد أن تطلبه منّي وفي مواجهتي، حدّدت سامنثا موعدًا في نهاية الأسبوع وقد أغاظني جدًّا أن تختار يوم إجازة لمفاوضتي في الطلاق كأنّ العمل والبيزنس أهمّ منّي، لكنّني رضخت وجئت في الموعد تمامًا. لا أدري كيف جئت ولا كيف قضيت الأيّام التي قبل موعدها، أتت بعد موعدها بدقائق وكانت تبدو متعجّلة، أجلستها مساعدتها بعد أن خلعت لها البالطو وسوّت لها أماندا ظلال جفونها وكأنّهنّ يتعمّدن قتلي، تصوّرت شحوبها ندمًا على ما فعلته بي، لكنّني تنبّهت لصديقتها أماندا خبيرة التجميل التي من المؤكّد أنّ وجودنا بهذا المكان وإضاءته الخابية من اختيارها، وأنّ لمسة مكياج سامنثا من أناملها، لتضعني في هذا الجوّ الكابي الحزين، ويصبح من السهل عليّ الموافقة على رغبتها.. وتنبّهت أيضًا إلى أنّ سامنثا لم تمدّ لي يدًا بالسلام ولم تنظر إليّ طويلاً، وأنّ الإضاءة الغبيّة جعلتني أراها شبحًا لدرجة أنّني شككت فيها وظننتها واحدة أخرى لولا أن رأيت إصبع سبابتها الصغير وهو مشرع نحوي وشفتيها الراجفتين تقولان كلمات قويّة أبسط ما فيها كلمة «أريد الطلاق فورًا»، نهضت مسرعًا وأماندا تلاحقني ولم تهدأ حتى وعدتها باللقاء صبيحة الغد في السفارة المصريّة لإتمام الطلاق، وجاء الغد أسرع من طرفة العين واستسلمت تمامًا لمحاميها وأنهيت ما بيننا بدون شروط أو تسويف.

كان عصام يبكي وأنا أحتضنه وبالكاد أسمع صوته المكتوم الخارج

Twitter: @ketab_n

من فمه الملتصق بصدري، تركته حتى هدأ وكنت للأسف أكاد أكون شامتًا فيه ومبتهجًا من فشل علاقته بسامنثا، وفي الوقت نفسه أكاد أجنّ خوفًا عليه ورثاءً لحالته، ثم قال ما أغاظني تمامًا: لقد أبرأتني من كل حقّ لها كما تنصّ شريعتنا، وعرضت عليّ من خلال المحامي أن أتقاسم مالها كما تنص شريعتها.. لكنّني لم ألق بالاً للمستشار القانوني لسفارتنا ولا حتى لأصدقائها المقرّبين الذين طلبوا منّي أن آخذ مالها تحت مسمّى أنّه حقّي. صرخت فيه: أنت عبيط.. فلوسها أحسن منها.

لكنّني فوجئت به يبتلع باقي الزجاجة ثم يشهق بعنف ويزفر برقّة، وهو يقول بعين غائمة تمامًا: أنا بخير وهافضل بخير، مش هاتقدر سامنثا ولا غيرها على كسري.. بلادي أولى بي سأعوّضها عن خيانتي لها.

اختلط عليّ الأمر أمام خرف عصام، ناشدته أن يفهمني مغزى كلماته، من خان من؟ سامنثا هي الخائنة يا عصام.. ردّ بصوت قادم من قرار عميق: بلدي.. لقد خنتها وهجرتها إلى بلد آخر وأستحقّ كل ما جرى لي.

لم أكن بحاجة لإيضاح أكثر أو أن يدخلني في دهاليز فكريّة عميقة يدلقها عليّ كمريض مازال تحت تأثير التخدير، استأذنت للانصراف وهمست له: سأراك قريبًا. وسمعت همهمات من خلفي وأنا أغلق الباب.

ثالثة الأثافي أو ما بقي من أسبوع الآلام كان شيئًا قاسيًا ومريعًا. كنّا سَهارى بالنادي اليوناني وتلقّى أحدنا مكالمة هاتفيّة من سويسرا تخبره بأنّ أحداثًا مؤسفة وقعت داخل أحد مسارح بني سويف. طلبنا من الساقي فتح التليفزيون، وظللنا نبحث داخل قنواته المحلّيّة والعربيّة فلم نجد أخبارًا تتعلّق بهذه الأحداث، كنّا نعرف أنّ مهرجان المسرح

Twitter: @ketab_n

يقام هناك وأنّ كثيرًا من زملائنا نقّاد المسرح والممثّلين والمخرجين مشاركون فيه. تفرّغنا للاتصال بهم. كانت الخطوط إمّا مشغولة أو لا تردّ. طمأننا هذا فانطلقنا في سهرتنا كالمعتاد.

عادة، أنا أتأخّر في الاستيقاظ في اليوم التالي لأيّة سهرة من هذا النوع، ولا أردّ على أيّ اتصالات، لكن مارشا أيقظتني بعنف وهي تخبرني بأنّ هناك كارثة حدثت بمسرح بني سويف، كانت هواتف أصدقائي الذين هناك مفتوحة ولكنّهم لا يردّون، وتوالت مكالمات أصدقائي بالقاهرة تخبرني بالكارثة وبمكان التجمّع لاستقبال ضحاياها، ذهبت إلى الأكاديميّة وبصحبتي مارشا. وقفنا بساحة معهد المسرح، أتت التوابيت على عربات نقل وكان غطاؤها مكشوفًا وقد تمّت تغطيتها بسجاجيد قديمة ممزّقة ومفارش بالية، كانت الجثث قد تخشّبت في وضعها الذي داهمها فيه الحريق. . أغلبها في وضع القرفصاء تكاد تبين حروقها البشعة أسفل الغلالات القذرة التي تغطّيهم. كانت هناك مناحة ضخمة ونحن في قلبها، مارشا بكت وانهمرت دموعها بينما عجزت عن البكاء. أكثر من خمسين ضحيّة كنت أعرف معظمهم وعملت معهم في كتابة الأوبرتات والأشعار أحيانًا، أو التقيت بهم في أوساط المثقّفين. انطلقت النعوش بسرعة خوفًا من انفعالاتنا وهياجنا الجماعي إلى مسجد العمرانيّة، صلّينا عليهم هناك، ثم خرجنا ولدى كل منّا ذكريات معهم. سمعنا عن موتهم حكايات كلّها قاسية، أنّهم ألقي بهم بالشارع لمدّة ساعات ورفضت المستشفى الخاصّة المواجهة للمسرح استقبالهم. وسمعت أنّ سيادة وزير الصحّة عندما زارهم في السابعة صباحًا بعد ليلة احتراقهم، طرحتهم الممرّضات أرضًا حتى يغيّروا الملاءات ويأتوا بملاءات نظيفة لاستقبال الوزير، خرجت النعوش لمستقرّها الأخير بالأغطية المتهرّئة. وفي الوقت الذي كان فيه وزير الثقافة يرتدي بدلته المفصّلة خصّيصًا في «أرماني» ويتعطّر حتى يكون

Twitter: @ketab_n

بيننا عند استقبال التوابيت، لم يفكّر مساعدوه في إعداد أكفان لائقة، وغطاءات مناسبة للتوابيت تكريمًا لهؤلاء الشهداء.

كانت أيّامًا عصيبة اندفعتُ بعدها بكل كياني داخل اعتصامات بدار القضاء العالي وتظاهرات كثيرة والتوقيع على بيانات، عدت فاعلاً لأوّل مرّة منذ سنوات، دفاعًا عن مثقّفينا الذين أحبّوا المسرح وذهبوا إلى هناك ليقيموا المسرح الجديد، ويختاروا فنّانين جددًا ويسهموا في التنوير لقاء ملاليم، ذهبوا فقط ـ كما كانوا دائمًا ـ لأنّ فنّ المسرح هواهم وعشقهم الأوّل والأخير، واختصر وزير الثقافة المسألة بقوله إنّ مخرج العرض هو سبب الكارثة.. دمت لنا أيّها الوزير!!

Twitter: @ketab_n

- ٢٦ -

لم يخرج كريم بعد من السجن، وبدأت مارشا تتوتّر من هذا الانقطاع الكبير عن استكمال الفيلم.. وقد اضطررت لإخبارها حتى تدرك أنّ الأمر خارج عن يدي، حاولت بشتّى الطرق إقناعي بالعودة إلى زيارة هؤلاء الأولاد والمبيت معهم بدون كريم، وإغرائهم بمال وملابس بحيث يتركونني أعمل في هدوء. صرخت فيها وأنّبتها بشدّة شارحًا لها ما بالمكان من تفاصيل غابت عن ذهنها.. دوارق مليئة بمياه النار. الزجاجات المعبّأة بالكحول والجاز والمعدّة كي يستخدموها كقنابل المولوتوف، إذا ما هدّد أمنهم شخص أو جماعة أو نظام.. وجميع أنواع الأسلحة البيضاء كما تحبّ الحكومة أن تسمّيها بالإضافة إلى عدم الخوف وانعدام الضمير بصورة قد تدفعهم للقتل، وصفت لها منازعاتهم على أحقر الأشياء وكيف يسوون خلافاتهم بالدم.. المال لن يوقفهم يا مارشا بل سيجعلهم يقتلون الوزّة التي تبيض لهم الذهب.. وسأصحو إن صحوت على فقدان مالي وحياتي. أنا لم أجرؤ في غياب كريم على الصعود لتفقّد أشيائي المخبوءة هناك، والحمد لله أنّني لم أترك الكاميرا والمدوّنات هناك، وأنّ ما تركته يمكن تعويضه..

رضخت مارشا أخيرًا، وبان على وجهها القلق وراحت تحتضنني وتقبّلني لائمة، لأنّي لم أذكر كل هذا من قبل، بل وتمادت في إظهار عواطفها نحوي ورجتني ألاّ أكمل الفيلم مادام هناك خطر على حياتي،

Twitter: @ketab_n

وطظ في الفيلم وفي الأرباح التي سنجنيها منه. ضحكت بشدّة لدرجة كدّرت مارشا، ثم أخبرتها بأنّنا سنكمل الفيلم كما نريد.. لكن اصبري قليلاً. أبدت تفهّمًا وعاد إلى وجهها التألّق.

كنت قد رأيت عصام مرّة أو مرّتين في سرادق عزاء ضحايا بني سويف، لكنّنا لم نتكلّم، كانت تشغلنا هذه البلوى عمّا عداها.. كنت قد قرّرت بيع بيت الطالبيّة فلم أعد بحاجة إليه ولا إلى غيره من حاجات هذه الدنيا القذرة. سأبيع أثاثه وعمدانه التي لم تكتمل وسقفه الذي لم يستقرّ. وكنت بحاجة لعصام كي يأخذ جميع متعلّقاته، وبحاجة أيضًا للحاج حامد الحلو كي يدلّني على المشتري الذي يدفع ما يريد أن يدفعه دون مساومات ومماطلات..

قابلني الحاج حامد الحلو بترحاب وأسئلة لا طائل منها، مثل هل تزوّجت؟ أم مازلت عَزَبًا؟ يا بني حرام عليك! الزواج نصف الدين. وكنت أختنق من سلسلة الوعظ والنصح التي ينهال بها على رأسي كالمطرقة، وكان الأولى بها منّي ابنه أحمد الذي لم تكن هناك أخبار جديدة عنه غير رفضه النهائي من شركة البترول وتفرّغه لبيع البسبوسة والكنافة وأشرطة الأدعية والقرآن. لا جديد سوى أنّ زوجته شاهيناز أصبحت تلقي دروسًا للأطفال في حضانة إسلاميّة مجاورة لمنزلهما. بعد أن توقّف حوارنا وجدت نفسي أحدّثه عن رغبتي في بيع بيت الطالبيّة وبأسرع ما يكون، فجأة اكتشفت فيه طيبة أبويّة وهو يقول بورع وهدوء إنّه على استعداد لأن يقرضني أيّ مبلغ من المال أنا في حاجة إليه عوضًا عن بيع بيت العائلة، ابتسمت له وأنا أقول إنّ البيت لم يعد ملكًا للعائلة لأنّني اشتريته منذ زمن من إخوتي وأصبح ملكي وحدي كما أنّي لست محتاجًا لأحد، فالحمد لله مستورة لكن لا حاجة بي للبيت الآن. هزّ رأسه ثم طلب منّي أن أمهله أسبوعين ليجد مشتريًا يشتريه بثمن مناسب، ثم سألني مستطلعًا عن الثمن الذي أطلبه في

Twitter: @ketab_n

البيت، أجبته بسرعة : كأسعار البيع في المنطقة بلا زيادة أو نقصان. تركته ورحلت وعندي يقين بأنّ بيتي سيصبح ضمن ملكيّات الحاج حامد قريبًا وسيؤول من بعده لابنه أحمد الحلو وزوجته شاهيناز، وستحقّق فيه حلمها القديم بأن يضاجعها أحمد الحلو على سريري، ويبدو أنّني ارتحت لهذه الفكرة لأنّي مشيت أصفّر سعيدًا، وغدوت مجنونًا تمامًا كأنّ أحمد الحلو هو الذي سيضاجعني على هذا السرير..

قالت لي موظّفة الاستقبال إنّ عصام أوشك على الانتهاء من درس اليوجا، وأعطتني إحدى المجلاّت التي يصدرها المركز وطلبت بترحاب أن أكتب لهم مقالاً أو قصيدة، وأنّ هذا سيكون شرفًا للمجلّة وكلامًا كثيرًا من هذا القبيل، شكرتها وتسلّيت بتصفّح المجلّة ومبتسمًا من حيل وألاعيب عصام الذي ورّطني مع هذه الموظفة التي ستظلّ تسألني كلّما زرت عصام: أين المقال؟ أين القصيدة؟ وبذلك أقرّر عدم زيارة هذا المكان فيرتاح عصام منّي، فهو يعرف أنّني كسول لا أكتب إلاّ وفقًا لطقوس معيّنة، كما أنّي أضيق بالإلحاح، ويقتلني أن يطالبني أحد بأشياء لن أفعلها، خرج عصام ولم يبدُ عليه أنّه سُرَّ أو تكدّر لرؤيتي، عانقني بحياد كمن يعانق زميلاً دراسيًّا قديمًا تعرّف على ملامحه لكنّه لم يتذكّر اسمه. استأت جدًّا من طريقة اللقاء، فقال مستدركًا إنّه مشغول بتجهيز معرضه وملاحقة الكوارث التي تحدث لنا (يقصد أحداث بني سويف) مثلما أنّني مشغول بفيلمي مع مارشا، ارتبكت. فقد كان عصام صديقي الأوحد لا يعرف شيئًا عن موضوع هذا الفيلم، لم أُخبره بشيء ليس خوفًا منه أو من أن أفضح سرّيّة ما أفعله مع مارشا كما طلبت منها عند بداية التفكير في الفيلم، ربما لم أخبره لأنّني كنت أحسّ في أعماقي بأنّني لن أكمله، لذا تجنّبت ذكره لعصام حتى لا يسألني عن تطوّراته كلّما التقينا. . الآن عصام يعرف

Twitter: @ketab_n

ولعلّ هذا يضايقه، بدأت بتقديم تفسيرات وتبريرات، وكان يغيظني جدًّا بابتسامته التي تتسع كلّما تكلّمت، ثم سكت، فسألته بحدّة من أين علم بالخبر، ابتسم وهو يقول إنّ عوض هو الذي أخبره، هنا أدركت أنّها طامّة كبرى. . فبخلاف أنّ عوض سيضيق أيضًا من عدم إخباره بما أخطّط وسيحسّ بأنّي لا أعامله معاملة الصديق، فهذا معناه أنّ مارشا أخبرته وأخبرتْ إيفلين وديانا وكل أصدقائها الأجانب. وهذا يجعلني أبدو أحمقَ في كل اللقاءات التي جمعتني بهم حين كنت أتكتّم في هذا الأمر تمامًا، كما أنّ مارشا خدشت سرّنا غير مبالية بالعواقب ومحتمية خلف جواز سفرها الأميركي. ويبدو أنّ تضارب هذه الأفكار في رأسي جعلني أبدو في قمّة ضيقي وغضبي، لأنّ عصام ظلّ يهدئني ويقسم بأنّه لم يغضب وأنّ ما حدث أمر طبيعي، فهذا شيء بيني وبين مارشا ولا يجوز لأحد أن يطّلع عليه إلاّ بعد اكتماله. صرخت فيه أن يكفّ، فكل كلمات التهدئة التي يطلقها في وجهي تحمل من السخرية واللغو أكثر ممّا تحمل من الصدق. سكت عصام وهو يرقبني وأنا أنظر إلى شاربه ولحيته اللذين بدآ في الإنبات بغير تهذيب ولا تشذيب. لكنّي لم أعلّق على ما أراه. طلبت منه أن يحدّد موعدًا كي يأخذ متعلّقاته من بيت الطالبيّة قبل أن أخليه، لم يهتمّ بسؤالي عن سبب إخلائي البيت، وطلب منّي أن أحتفظ بلوحاته واسكتشاته عندي بشقّة وسط البلد أو أن أتخلّص منها ببيعها لبائع الروبابيكيا، لأنّها تسجّل مراحل فنّيّة قد تجاوزها على حدّ قوله، وليست ذات قيمة كبيرة الآن، وحتى براويزها رخيصة لا يمكن الاستفادة منها مرّة أخرى.

كما توقّعتُ. . اشترى الحاج حامد الحلو بيت الطالبيّة ومنحني جزءًا من قيمته وأجّل الباقي عند استلامه بعد إخلائه، عرضت عليه شراء أثاثه فأبدى عدم الاكتراث، لم أكن في وضع الأخذ والردّ والتسويف، تركت الأثاث له هديّة، تغيّرت ملامحه وتشكّلت بسمات

Twitter: @ketab_n

الشيخ الورع وأبى أن يأخذه بلا مقابل فأضاف مبلغًا على ما تبقى نظير الأثاث. بعد أسبوع كنت قد نقلت ما تبقّى من متعلّقاتي ومتعلّقات عصام إلى شقّتي بوسط البلد.

كان لقائي بمارشا عاصفًا، ولم تجد منطقًا تدّعيه أو مبرّرًا تختلقه بعد أن كان اتفاقي معها صريحًا.. «أنّ معظم من قالت لهم هم من الأصدقاء غير المستقرّين بمصر، وأنّ عوض صديقي وكانت تظنّ أنّي قد أخبرته». كل هذه الحجج لم تنطل عليّ، وكنت أصيح وأسبّ بطريقة غير طبيعيّة حتى أنّ الخادمة جوليا جاءت على صوتي أكثر من مرّة ونهرتها مارشا بشدّة، كنت كأنّما أمسكت بغلطة لمارشا ولن أفلتها، وكانت تنظر إليّ وهي في غاية الدهشة، ولم تحايلني أو تقنعني بالبقاء، استمرّت دهشتها تكبر حتى انصرفت، وفي طريقي إلى البيت كنت متأكّدًا أنّي قد بالغت كثيرًا في ردّة فعلي، لأوّل مرّة في تاريخ علاقتي بمارشا أشعر بأنّي غير مهتمّ بعواقب تصرّفاتي معها، عدت إلى البيت وأطفأت أنوار شقّتي بالكامل كي تساعدني على الاسترخاء، مازلت أشم رائحة زينب وأفتقدها، لم تتصل بي الفاجرة منذ سفرها ولم ترسل لي أيّة رسالة على الموبايل أو الإنترنت، كأنّني لم أحرث أرضها يومًا، كأنّها لم ترني ولم تلمسني ولم تقتحم حياتي على الإطلاق، ثم بدأت أقلق عليها.. ماذا جرى لها؟ ماذا فعل بها خوليو؟ هل تركها تتسّول الطعام؟ هل كان غريب الأطوار وذبحها وفصّل من جلدها عباءة؟ هل أحبّته بحقّ ونسيت أهلها ونسيتني؟ هل اكتشف مميّزات جسدها، فجُنّ بها وحبسها في داره إلى الأبد؟.. هل اكتشفت رجال المكسيك وقرّرت إرضاءهم جميعًا ولم تفرغ بعد من مهمّتها؟!

لم يزدني تفكيري في زينب إلاّ اكتئابًا، ولم يزدني هربي من التفكير في مارشا إلاّ قلقًا، ولم يزدني تذكّري لكريم وعصابته إلاّ اضطرابًا. وحين فكّرت في نفسي ازددت غمًّا.

Twitter: @ketab_n

- ٢٧ -

توافَق إجلائي لمتعلّقاتي من بيت الطالبيّة مع وقائع الاعتداء الإسرائيلي الأخير على لبنان. كنت قد فتحت التليفزيون على قناة الأخبار، وتركت الصوت يهدر وأنا أحزم حقائبي وأفرز أوراقي وأغرق مع تفاصيل كل ورقة أجدها والأخبار تتوالى تعكّر دمي أكثر.. حزمت متعلّقات عصام، ولملمت أشعاري القديمة التي تحمل أوراقها تعليقات هند بخطّ يدها الجميل، وبعض متعلّقاتها الأخرى كفردة حلق مكسورة عجزت عن إصلاحها آنذاك، وبقايا الدبابيس التي كانت تعلّق بها قصائدي في معرضي الأوّل بالكلّيّة وبعض نسخ من ديواني الأوّل وأشياء أخرى كثيرة.. كلّما شتّتني ذكرى ما وغُصْتُ في تيّارها أعادتني إلى مرارة الواقع القذر قذائفهم الوحشيّة!

جاء الحاج حامد الحلو متعجّلاً ومعه سائق سيّارة نصف نقل وبعض الحمّالين، دبّت فيه الحياة وهو ينهر العمال ويصرخ فيهم لكي يشهّلوا وكأنّه يرغب في عدم رؤيتي مرّة أخرى. انتحى بي جانبًا وأعطاني باقي المبلغ وهو يعُدُّه لي بحذر متحاشيًا عيون العمّال، ثم همس لي يطمئنني بأنّ هؤلاء العمّال ليسوا من الطالبيّة لكنّهم أمناء وعلى مسؤوليّته، لكنّ الحذر واجب، ومن الأفضل ألاّ أركب معهم السيّارة نفسها، وأترك لهم عنواني كي يوصلوا متعلّقاتي إليه، ابتسمت وقلت لأغيظه بأنّي من المستحيل أن أركب معهم سيّارة النقل وسأطلب سيّارة أجرة بالتليفون. برطم في داخله فازددت سرورًا لذلك، وتصوّرته

Twitter: @ketab_n

وهو يخاطب نفسه ويسبّني ويلعن عجرفتي، كانت نقوده لا تلزمني وحنقي ممّا آلت إليه مقتنيات أبي التي سعى إليها بكدّه وعرقه تنغّصني، وكأنّ ثأري من هذا الرجل كامن في أن أسخر منه ومن عربة اليد التي سرح بها قديمًا.

اتصلت بي مارشا تدعوني إلى حفل موسيقي في Jazz club لمساندة صديق ديانا الذي يغنّي هناك، قلت لها بجفاء إنّني أتابع تفاصيل الاعتداء الصهيوني على لبنان في الفضائيّات، صمتت فترة، ثم قالت: شيء مؤسف ما يحدث هناك. لم أعلّق، فقالت إنّها ستتغيّب عن الحفل وتلازم البيت وطلبت منّي أن أحضر لنتابع الأحداث من عندها. رفضت متعلّلاً بإرهاقي من جرّاء إخلاء بيت الطالبيّة، وبسبب سوء مزاجي وحاجتي للانفراد بنفسي. قالت إنّها ستتصل مرّة أخرى للاطمئنان عليّ، قلت لها ليس هناك داعٍ، فقد يغالبني النوم وأنا أتابع الأحداث.

لم يغالبني النوم لكنّني أغلقت التليفزيون كمدًا، ومضيت أتصفّح ديواني الأوّل الذي جمعته بعد موت هند، ولم أجد ناشرًا يهتمّ بنشره في مصر، ونصحني عصام بإرساله إلى أيّ ناشر بيروتي، فأرسلت نسخًا لثلاث دور نشر ببيروت اثنتان منهما اهتمّتا بالردّ، والثالثة طبعته ونشرته وأرسلت لي مكافأة رمزيّة وخمسين نسخة. هذا الديوان أعطاني بطاقة تعريف وساهم في منحي شهرة معقولة في بداية حياتي، ولفت نظر النقّاد إليّ، تصدّر الديوان إهداء لهند.. طبع الديوان ببيروت التي يضربها السفلة الآن. بيروت التي قدّمت زهرة جميلة لهند. تُقصف هذه الساعة، ويقتحمها الهمج على ظهور مدرّعاتهم ومركباتهم الحربيّة.. بيروت التي لم تسألني إن كنت كتبت قصائد من قبل أو نشرتُ دواوين قبل الديوان الذي أرسلته إليها، أهلها يبيتون في العراء الآن.. ومارشا تريدني بجوارها لتملأ أذنيّ بسخافتها كما كانت تملأهما من قبل. راح

Twitter: @ketab_n

كل ما كنت تبشّرين به يا مارشا. . وها هو اليساري المعارض أولمرت كما كنت تتشدّقين أنت وصحبتك به وبتنويره وبمقدرته على حلّ القضيّة وإرضاء الطرفين. . ها هو أوّل مدني يرأس وزارة بإسرائيل وأوّل مدني يرأس وزارة الدفاع، لا يفترقان عن عتاة الإجرام. عندما ترأس حكومته قادها إلى حرب إبادة ضدّ الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين وحزب الله وهلمّ جرّا. . كل جدال مع مارشا بخصوص هذه الجماعة المغتصبة يعيدنا إلى نقطة الصفر والحلّ الوحيد أن نلقي بهم في أقرب بالوعة مجاري. . لا تغضبي من آرائي فأنت تعتزين بأنّ أميركا حصلت على استقلالها بعد بحيرة من الدم وحرب أهليّة بين الشمال والجنوب استمرّت لأكثر من أربعة أعوام أبادت ما يقارب المليون ضحيّة. وهذا هو ثمن الحرِّيّة في رأيك. . نحن أيضًا في حاجة إلى بحور دم نبذلها في مقابل حرِّيّتنا الأبديّة، لا نريد حلمًا يكبّلنا ولا ساسة يتفنّنون في فلسفة سياسة الأمر الواقع ونظريّة «عصفور باليد». يوجد أيضًا حلّ مثالي للقضيّة يريحنا ويريح الجميع، أن نترك لهما هذه المنطقة الموبوءة. . و«لهما» هذه تخصّ أميركا وإسرائيل. نتركها لهما كلّها بلا استثناء. وأن نرحل طواعية أو قسرًا أو جرًّا أو بحدّ السيف إلى أبعد مناطق الأرض أو أقساها مناخًا. . سيبيريا مثلاً، حيث تبلغ درجة حرارتها في الشتاء خمسين تحت الصفر. . وأن يتركونا نصارع الطبيعة وجهًا لوجه حيث يصبح الحدّ الأدنى من الوجود صراعًا من أجل البقاء. . صراعًا من أجل التدفئة. . صراعًا من أجل الطعام. . صراعًا من أجل الانزواء خلف أربعة جدران وسقف. بعد سنوات قليلة قد لا يبقى منّا كثيرون، لكنّ الطبيعة بالقطع ستكون أرأف بنا منهم. لن تشوّه جثثنا. . لن تتركنا جيفًا تأكلها الوحوش الضارية.

فليستمتعوا بأرضنا ومناخنا وبترولنا ومعتقداتنا. . ليسلبوا منّا التاريخ والجغرافيا ويقطعوا عنّا مفاصل الإمدادات ويتركونا نواجه

Twitter: @ketab_n

الطبيعة. فليتخلّصوا من كل جين من جيناتنا ويمنعوها من الوصول داخل مدنهم المزعومة. ولا مانع من أن يحتفظوا ببعض منّا ممّن أدّوا لهم خدمات جليلة في متاحف التاريخ الطبيعي أو في الملاهي التي تقدّم كائنات غرائبيّة أو في حدائق الحيوان، كالصورة التي تحت يدي الآن من متعلّقاتي ببيت الطالبيّة، وهي صورة نادرة نشرتها مجلة «اللطائف المصوّرة» عام ١٩٤٣ لحديقة حيوان برلين عند افتتاحها عام ١٨٤٠ والصورة ـ لكل من يهمّه الأمر ـ بها قفص حديدي بالحديقة يتجمّع حوله بعض زوّارها وهم يلقون بالموز والفول السوداني لأسرة أفريقيّة عارية تمامًا إلاّ من بضعة أوراق شجر تغطّي العورات.. الأسرة تضمّ شيخًا في السبعين من عمره وأبًا في نهايات عقده الثالث وزوجة وطفلاً رضيعًا، والقفص مكتوب عليه من الخارج «أسرة همجيّة تمّ صيدها من غابات أفريقيا السوداء»!

تلقيت sms تحمل دعوة للتجمّع بالجامع الأزهر عقب صلاة الجمعة احتجاجًا على العدوان.. قرّرت بلا تردّد مشاركتهم الصلاة والمسيرة بعدها. تحمّست مارشا للمجيء معي. لم أوافق، وقلت لها إنّ مشاركتي بالصلاة قد تشغلني عنها وإنّها إن شاءت أن تأتي فلتلحق بي.

كانت كابينة المصعد تكاد تنطبق على صدري ويهبط قلبي مع كل عدّة أدوار نتجاوزها. حتى يقيني بأنّ هذا البرج السكني مؤمّن إنشائيًّا بلا شكّ، لم يخفّف من حدّة توتّري ولم يفلح في إنهائه. كان البهو خاليًا تقريبًا إلاّ من فردي الأمن اللذين وقفا يتبادلان النكات. توقّفا عن الضحك وألقيا إليّ بالتحيّة وهما يحدّقان تجاهي بابتسامة. انشغلت قليلاً بما سيقولانه عنّي بعد مغادرتي: صاحب الخواجايه.. رفيقها.. مدرّسها.. جاسوس.. خرتي.. موظّف بالسفارة.. لا يهمّ!

عقب صلاة الجمعة كانت حشود من قوّات الأمن تحاصرنا من كافّة الاتجاهات بلا تدخّل.. بدأنا المسيرة خلف كل الهتافات والصور التي

Twitter: @ketab_n

يرفعها البعض، والتي تعبّر عن كل الأنظمة السياسيّة المعلنة والسرّيّة.. ردّدنا شعارات الناصريين والإسلاميين والشيوعيين.. ثم بدأ كل منّا يغنّي على ليلاه، وتجمّع أنصار كل اتجاه في ركن من المسيرة، ضمن الناصريين وجدت بعض الوجوه اليساريّة ممّن نظّمونا قديمًا يسيرون بجانب من باعونا ويستثمرون نضالنا الآن. لم أجد لنفسي مكانًا بين كل هذه التجمّعات. فجأة وجدتني أسير خلف الإسلاميين لمسافة غير قليلة متفرّسًا في وجوههم لعلّي أجد أحمد الحلو أو شاهيناز، وكنت سأعرفها حتى لو تخفّت وراء ألف حجاب أو نقاب.

كنت في قمّة غضبي لما يحدث من اعتداءات على الفلسطينيين واللبنانيين وعلينا من كل هؤلاء الأفّاقين.. كل الادعاءات التي كانوا يسوقونها ويسمّمون بها أفكارنا عن الحكومة وباقي الأنظمة المخالفة أصبحت مزيّفة ومصطنعة بعد أن أصبحوا قادة ومسؤولين بالإخوان والناصريين، ومن كبار رجال الأعمال.. كل من تعرّض للاعتقال حتى ولو يومًا واحدًا حرص على استثماره في الفضائيّات وصار بطلاً.

بدأت الهتافات تعلو وتتزايد، وازدادت معها تحرّشات الأمن والبلطجيّة المأجورين الذين اخترقوا المسيرة. في البداية كانت المناوشات خالية من العنف، وما أن دُفِعَتْ متظاهرةٌ، وطارت كاميرا من يد صحفي، حتى تسلّلت فورًا إلى شارع جانبي غير مهتمّ بالبحث عن مارشا. ولاحقًا عندما تفحّصت محمولي ووجدت ثلاثة اتصالات لم أردّ عليها منها، أعدت الاتصال بها فلم تجب.

كنت قد قرّرت مفاجأة عصام في مرسمه لأحصل منه على جواب صريح عن مصير لوحاته التي عندي، فأنا لن أحتفظ بشيء بعد أن قرّرت تصفية كل ما لديّ، وقريبًا ستكون لي قائمة أهداف أنوي تصفيتها ولو كانت الملعونة سامنثا مازالت موجودة بمصر لكانت على رأس قائمتي. لن أترك متعلّقات عصام بحوزة مارشا أو ببيتي، فتقع في

Twitter: @ketab_n

أيدي من لا يقدّرون هذا الفنّ. . هو أوْلى بها، أو فليدلّني عمّن أتركها لديه. لم أشأ أن آخذ المتعلّقات معي، فهي ثقيلة وغالبًا لن أجده أو قد يردّني بها بغباء.

ذهبت إليه وما توقّعته كان أقلّ بكثير ممّا وجدته. فلم أجد لوحات واسكتشات وصلصالاً وفرشًا وألوانًا ملقاة ومبعثرة في كل مكان كالعادة. لم تكن الجدران مزدانة بإطارات ثمينة تضمّ لوحاته ولوحات فنّانين آخرين. لم تتدلّ من الأسقف المشربيّات ولا السلال النوبيّة. كانت الحوائط ملساء تبدو مطليّة حديثًا بدهان أبيض يكاد يضيء، ذكّرتني على الفور بالمستشفيات. . والأرض خالية من السجادة الشيراز العتيقة الملوّنة والملوثة ببقع الألوان، وموضوع بدلاً منها حصيرة يدويّة جديدة، بلا رسوم ولا زخارف. وأسرع عصام بعد أن فتح لي الباب بالجلوس عليها في وضعيّة المقرئين، وأسند ظهره لوسادة مشغولة بالخطّ العربي الجميل، مهملاً إيّاي، يقرأ أوراده باستمتاع. كان قد حلق شعره كلّه واتخذ سمات البوذيين لولا لحيته التي بدأت تطول وشاربه الذي ظهر كثيفًا كأحراش السافانا. أهملني وظلّ يردّد أوراده. غرقت في تأمّل المكان. لم ينتبه. . خفت منه فقد زادته الشعيرات البيضاء التي بدأت تظهر في لحيته مهابة ووقارًا. نهضت وراء فضولي لرؤية بقيّة الشقّة. دخلت غرفة النوم ووجدته قد استبدل أثاثها الفاخر بسرير حديدي عتيق ودولاب بائس من خشب الشجر البكر بلا طلاء ولا إضافات. ومكتبته أيضًا استبدلها بمكتبة من الخشب نفسه وغيّر محتوياتها بكل ما يخصّ كتب الصوفيّة وأشعارها. وجدت الحمّام كما توقعت، نسف الكابينيه الإفرنجي وأحاله إلى حمّام بلدي بفتحة تسع بطيخة كبيرة، ووضع طشتًا نحاسيًّا للاستحمام وإبريقًا نحاسيًّا بهيًّا وجميلاً تفخر به محال الأنتيكات. اكتفيت بما رأيته ولم أدخل غرفة مرسمه حتى لا أفاجأ بأنّه استخدم لوحاته في كيّ الملابس أو غلق

Twitter: @ketab_n

النوافذ منعًا لدخول الأتربة والغبار. نجح عصام تمامًا في تحويل شقّة العمر والمرسم الفاتن اللذين حصل عليهما بعرق العمر كلّه إلى شقّة في المجاورة التاسعة من حيّ الدويقة. أحد أكثر أحياء القاهرة بشاعة كما هو مذكور في الإحصاءات العالميّة.

أخيرًا أنهى عصام وِرْده ونظر إليّ مبتسمًا وقال بسماحة يُحسد عليها: أوّل مرّة تزورني بعد التغييرات اللي عملتها. لم أنطق. سألني بدهشة الأطفال: لم تعجبك؟ أجبته بزهق: تريد رأيي فعلاً، ازدادت ابتسامته، وقال وهو يشوح بيده: لا، بس أحبّ أقولك إنّها كده عجباني أكتر.. متعرفش أنا بقيت مستريح لها إزاي.. الموبيليا كانت خانقاني. كده براح. وبافكر أكمّل فتح كل الأوض على بعض.

قاطعته بحدّة: اللوحات فين؟

أجاب ببرود: ماتقلقش، ودتهم الكاتاكومب، وعند استفانيا في المشربيّة وجاليريهات تانية.. أصل أنا دلوقتي مابقتش فاضي عشان باعمل جولات كثيرة.. إبقى عدّي عليهم كل فترة وحاسبهم واتصرف في الفلوس كأنّك أنا بالظبط.

سألته بدهشة: والمعرض اللي كنت بتجهز له؟

ردّ بسرعة: اعتذرت عنه. ثم شردت عيناه لحظة واستطرد: أنا الظاهر مش هارسم تاني.

لاحظ ضيقي، فسألني: إنتَ زعلت عشان اللوحات، ولا عشان مش هارسم تاني، قلت بغيظ: اللوحات الحمد لله إنّك مارمتهمش.. لكن تقدر تقولي هاتبطل الرسم ليه؟ وجولات إيه اللي هاتعملها؟

ابتسم مرّة أخرى ابتسامته التي تشلّني، وقال كأنّه يعلمني: جولات مع الأقطاب عند أولياء الله، وماتفتكرش إنّي بطلت الرسم عشان حرام زي ما بعضهم بيقول. أنا بطلته عشان استنزفت وقتي كلّه فيه وما عدش

Twitter: @ketab_n

فيه وقت باقي كتير. قلت أتخلّى عنه قبل ما يتخلّى عنّي. هابقى عنه مشغول ومش عايز انشغل بيه!

كان ينظر إليّ بإمعان كأنّه يقول أحاجي وفوازير ويريد منّي حلّها. قلت له بسخرية: حدّثني عن جولاتك ولاً انت غير مأذون بذلك؟ استفزّته كلماتي اللاذعة، فمدّ يده وقال بحدّة: هذا علم الخاصّة والجاهل المتعالم مثلك لن يدركه ببصيرته المحدودة وبعلمه القشري. نهضت بسرعة، ثم انحنيت بحركة مسرحيّة أنتشل يده التي قد أعادها ملقاة على ركبته، وقبّلتها وأنا أقول بورع مفتعل: أشوفك بخير يا شيخنا، ردّ عليّ بحدّة: أنا لا أتأدّب بأدب المشايخ، أنا أتأدّب بآداب التلاميذ.

خرجت وكلّي يقين أنّ هذا ليس عصام الذي عرفته، وأنّ هذه اللحظة بداية فراق بيني وبينه. وزاد سخطي وحنقي على سامنثا التي دسّت له سمًّا ناقعًا مميتًا يسري مفعوله ببطء شديد، يقتل خليّة واحدة كل لحظة من ملايين الخلايا التي تكوّن الجسد البشري، وأنّ ما رأيته اليوم لا يقارن بما سأراه مستقبلاً من عصام لو شاءت إرادة الله أن نلتقي.

قالت لي مارشا إنّها استاءت من عدم ردّي عليها وأبدت ضيقًا ظهر أثره جليًّا في صوتها، ثم أخبرتني بأنّها ستحضر تظاهرة المنظّمات النسائيّة بحديقة ميدان التحرير في المساء، ثم أردفتْ بتحدٍّ أنّها ستصوّرها بالكامل، ولم تسألني إن كنت أنوي الحضور أم لا. ما كدّرني به عصام كان أقوى من استياء مارشا، تناولت دوائي تحسّبًا لمآزق محتملة، ودخلت السينما وأكلت بمطعم فاخر، لكن رغم ذلك قادني شوقي لاستطلاع التظاهرة..

كانت التظاهرة أسطوريّة، وقفت نحو ثلاثمائة سيّدة من قيادات المنظّمات النسائيّة والمجتمع المدني حاملات الشموع بالحديقة. كان

Twitter: @ketab_n

الأمن قد أطفأ أضواء الميدان بالكامل رغبة في إفساد التظاهرة، لكن هذا الإطفاء جاء في مصلحة التظاهرة وجعلها أكثر جمالاً. كانت أضواء الشموع تنير الحديقة كأنّها أضواء كوكب درّي. وبدأ الجنود وضبّاطهم يتأمّلون بخشوع ولا يتدخّلون.. رأيت مارشا مع آخرين منهمكين في التصوير، ثم بدأت السيّدات في الجلوس على الأرض وهنّ يشكّلن دوائر متداخلة، ويردّدن أغاني «فيروز»، ثم امتلأ المكان بالباعة الجوّالين حاملين المياه المعدنيّة والبسكويت والاستيكرز المصمّم لتضامن الشعب المصري مع شعب لبنان.. اشتريت بعضها، ثم فجأة لمحت بينهنّ ياسمين وأدهشني هذا جدًّا، فلم أعرف أنّ لديها ميولاً سياسيّة. ثم وجدت نفسي أتراجع حتى لا تلمحني ياسمين ولا تلحق بي مارشا، وابتعدت دون أن أفسّر حتى لنفسي أسباب هذا الهروب.

Twitter: @ketab_n

ـ ٢٨ ـ

أبواب كثيرة توصد بالتوالي أمامي. . عصام أغلق بابه وانجذب، وزينب خلعت بابها وطارت. ومارشا توارب بابها، وياسمين في المسافة الصغيرة ما بين الباب والفراغ، بعد أن تجرّدت من هالتها وعادت آدميّة مرّة أخرى. لست في حاجة إلى معاودة طبيبي النفسي بقدر ما أنا بحاجة إلى الاختلاء بنفسي. . لكن هيهات أن تمكنّني الظروف من تحقيق هذه الأمنية. أرقام مجهولة كثيرة على محمولي لم أكلّف نفسي عناء الردّ عليها. قد تكون من أيّ شخص أو من كريم لكن غالبًا لن تكون من زينب، فهي في المكسيك تضيف أوضاعًا جديدة إلى قاموسها الجنسي وتجاربها الشبقيّة.

تنبّهت إلى رنين النغمة التي خصّصتها لياسمين، ووجدت نفسي مدفوعًا لإمساك هاتفي المحمول. نسيت أو تناسيت أنّني قد اتخذت موقفًا تجاهها، وردَدْتُ بلهفة. طلبت منّي موعدًا في الأتيليه ولم أعترض لا على الموعد ولا المكان. انصعت تمامًا وظللت أنصت بإمعان، وبدا صوتها مألوفًا لديّ كأنّه صوت هند، أو قد أكون تصوّرته هكذا من فرط جنوني. كابدت حتى تماسكت وارتديت أحلى ما يرتديه عاشق بعد أن تحمّمت وتعطّرت على أنغام فيروز. . طلبة الفنون الجميلة الذين كانوا واقفين أمام باب معرضهم الجماعي في ليلة الافتتاح أفسحوا لي طريقًا للدخول متوهّمين أنّني موظّف رسمي أوفدته الوزارة لتفقّد معرضهم. الشعراء والقصّاصون الشبّان ممّن لا يعرفونني

Twitter: @ketab_n

وكانوا ممدّدين على الأرائك اعتدلوا وراحوا يتفرّسون في ملامحي وزيِّي. حتى ساعي المكان الذي كان يعرفني جيّدًا تبعني حتى الطاولة التي اعتدت الجلوس عليها لكي يهمس في أذني: مبروك..

كنت في المكان غير المناسب بالزيّ الشاذّ المختلف في انتظار فتاة تجسّدت فيها فتاة أخرى راحلة.. يا لكل هذا الجنون الذي بدأ يتشكّل أمامي متجسّدًا!

في موعدها تمامًا جاءت، أتت تجرجر رداءها الطويل يحفّ على الأرض ويخفي حذاءها الكاوتشوك الرجّالي الذي كانت تفضّل انتعاله. تابعتْها عيون روّاد المكان وهي تدخل إلى حيث أجلس. كان يلفّ جبينها قماط حريري أخضر مكتوب عليه بلون دم الغزال «القدس لنا». وأسفل هذا القماط إيشاربان أحدهما أسود والآخر أحمر متداخلان بصورة لافتة ولائقة، ويبدوان مشدودين حول الوجه بإحكام.. لم تمدّ يدها كالعادة، لكنّها سألتني بقلق وخجل وهي تشير إلى قماطها هل يبدو هذا لافتًا؟.. هززت رأسي أي نعم. نكّست رأسها ثم راحت تدور برقبتها بطيئًا يمينًا ويسارًا، وعندما اطمأنّت لانصراف روّاد الأتيليه إلى ما يشغلهم، تسلّلت أصابعها لتنزع هذا القماط، ثم ألقت به داخل حقيبتها القماش الكبيرة التي تشبه حقيبة السوق. اعتذرت بأنّها اشترته من الجامعة ثم ارتدته في حفل نقابة الصحافيين الذي انتهى لتوّه. كنت مشغولاً بفكرة نضال النساء، وهل يأتيهنّ هذا مع آلام الحيض، أم يستيقظن فجأة فيجدن هذا «الخُرَّاج»؟ كنّا قديمًا نضحك في جلساتنا الخاصّة على المناضلة شاهيناز التي كانت تحلم بالكلاشينكوف ومدافع الآر بي جي، وهي تواجه بها أعداء الوطن والمستغلّين. وكنّا دائمًا نعابثها ونحن نسألها لو كان في يدها ابنها الرضيع وسمعت هدير مظاهرة تحت المنزل، فماذا ستفعل؟ وكانت تردّ بتحدٍّ غريب: أنا لو ٰها يمنعني ابني عن الواجب الوطني أدوسه

Twitter: @ketab_n

برجلي، أو أقعد عليه أبططه. وها هي مارشا تصرّ على حشر أنفها في أيّ نشاط اعتراضي أو مقاوم لرغبة الحكومة. ثم أخيرًا تمرّدت الطفلة ياسمين على واقعها وبدأت تحضر التظاهرات..

سألتني عمّا يشغلني، فابتسمت وقلت: انتِ.

احتارت وسألتني: ليه؟

أخبرتها أنّي رأيتها في تظاهرة المنظّمات النسائيّة أمس، وأنّ هذا أدهشني لأنّها لم تخبرني عن ميلها لمثل هذا النشاط من قبل.. قالت بدلال: اشمعنى أنت بس اللي تناضل وتُعتَقل.

لم أكن قد أخبرتها سابقًا بأنّي اعتقلت، فسألتها.. من أين استقت هذه المعلومات؟ بابتسامة زهو قالت: من الانترنت.. يا دوب حطيت اسمك طلعت بلاوي متلتلة.. حبس واعتقال وتوقيع على بيانات.

قلت لها ساخرًا: بقى ده هو اللي خلاكي تناضلي؟

استنكرت بحدّة، وهي تقول: أنا من زمان باخرج ف مظاهرات، أنا بس اللي ماكنتش باقول.

لم أشأ إطالة مثل هذا الحديث الفارغ، وسألتها عن أخبار رحلتها، فأجابتني باقتضاب: مارحناش حتت كتيرة، رحنا يادوب الغردقة وشرم الشيخ. بس ناوية أكمّل بإذن الله ولو هاروح لوحدي.

.. انتبهت إلى أنّ صوتها منذ بداية الجلسة هو صوت ياسمين، ولم يكن صوت هند الذي توهّمته.. ثم بدأ الشكّ يراودني في وجود ياسمين أساسًا وعقلي الباطن المراوغ يحرّضني على ملامستها لأتأكّد إن كانت طيفًا أم جسدًا.. وكل ضلالاتي الفكريّة وهلاوسي البصريّة بدأت تعاودني من جديد، وتتدافع على عقلي حتى أنّني لمحت ذعرًا على وجهها وهي تحدّق بي، وتهمس بقلق وهي تخبرني بأنّ وجهي شاحب جدًّا. كانت أنفاسي تتلاحق وتخرج بزفرات ذات صوت

Twitter: @ketab_n

كمريض الربو. جرت ياسمين بسرعة وأحضرت لي كوبًا من الليمون ومدّت لي يدها به على مقربة من فمي. تناولت الكوب بوهن وشربت ببطء. وفوجئت أنّ عددًا من روّاد الأتيليه واقفون على طاولتنا نفسها يهمّون بالمساعدة. كان وجهها ممتقعًا وبدت خائفة جدًّا، ورغم ما أحسّ به إلاّ أنّني تعاطفت معها. طمأنت الواقفين على حالتي، وقلت لهم إنّها حالة إجهاد بسبب قلّة النوم، فانصرفوا. لم تقتنع بردّي ولا حتى عندما قلت لها إنّي مرهق جدًّا، وما ظهر عليّ هو من تأثير الإجهاد.. كانت خائفة بصدق، دمعاتها التي تكسو حدقتيها كانت دمعات حقيقيّة، وخوفها عليّ شفاني لمدّة قصيرة فاستعدت عافيتي. بدأت أسألها عن قصائدها الجديدة، وتمدّ يدها إلى جرابها لتخرج أوراقها المبعثرة والمكتوبة بخطّ رديء وتناولها إيّاي. كنت أصحّح بعض الألفاظ وأكتب بعض التعليقات النقديّة محاولاً إيهامها بأنّني بخير، وكانت تعاود السؤال عن حالي وصحّتي كالأم التي تجبر طفلها على التهام ما لا يطيق. وصِحْت فيها أن تكفّ، ففزعت وظلّ وجهها الصغير يرتعش فترة، ثم ابتسمتُ وابتسمتْ. ليتني اتخذت قرارًا بالانصراف المبكر! ليت أنّها لم تولِني الرعاية والاهتمام! ليتها لم تقل ما قالته للتسرية عنّي!

ناولتها الأوراق مكتفيًا ببعض ما قرأته. قالت إنّها تعدّ ديوانًا قريبًا، وستكتب في أولى صفحاته إهداء لي. كتمت توتّري وريبتي. تساءلت عمّا إذا كنت قد تضايقت من هذا الخبر؟ هززت رأسي بالنفي. قالت إنّها كتبت قصيدة عمّا أُوليه لها من اهتمام وأقدّمه من خدمات، لكنّها لن تسمح لي بقراءتها إلاّ بعد صدور الديوان. قلت لها لأغيّر الحديث بعيدًا عن هذا الموضوع المربك أن تخبرني بتجربتها الجديدة في المشاركة السياسيّة. ضحكت وقالت إنّ زميلاتها الحميمات كنّ يحذّرنها من هذه الأمور، لكن بمتابعتي ومتابعة أصدقائي الذين سمعت

Twitter: @ketab_n

عنهم، شدّها الموضوع ثم بدأت بالدخول في محاورات سياسيّة في المدوّنات الموجودة بشبكة الإنترنت. ودافعت وهوجمت وحفّزها هذا على المضي في هذا الطريق. كنت قد بدأت أدرك أنّ مجالي الحيوي ملوّث، وأنّ كمِّيّة الهواء التي تحيط بي بها أبخرة سامّة. ومن يعرفني أو يتعرّف عليّ سيعيش حياته منكودًا. (ما لهذه الطفلة والسياسة والوقوف في صفوف المعارضة! الأوْلى بها أن تنضمّ إلى حزب الحكومة لعلّها تجد وظيفة أو عريسًا). حتى لو غادرت هذه الحياة برغبتي أو رغمًا عنّي ستظلّ جرائري في أعقابي وستصلني لعناتهم حتى قبري.

قلت لها بحنق أبويّ أن تهدأ وتستكين لأنّها لاتزال طالبة بالجامعة وأمامها الوقت حتى تتخرّج وتفعل ما ترغب فيه، نظرت إليّ بانكسار ثم همست: هو مش انت اتحبست وانت طالب ولاّ أنا بيتهيأ لي؟

سكتُّ ولم أجادل.. استطردت بفخر: دنا حتى انضربت بالعصاية في مظاهرة يوم الجمعة، وكانت عيني هاتتخلع. نظرت إلى وجهها لم أجد أثرًا، فابتسمت باستخفاف، استفزّتها ابتسامتي جدًّا ومضت بأصابعها النحيلة تزيح طرف الإيشاربات بحذر لتكشف عن ندبة زرقاء باهتة فوق شامة كحبّة عنب مماثلة تمامًا لوحمة هند وفي مكانها نفسه. خرجت عيناي من محجريهما.. وتلجلج الكلام بفمي. نهضت مسرعًا لأقترب منها أكثر وأتحسّس شامتها، ويبدو أنّ تغيّرًا هائلاً علا وجهي، لأنّها ذعرت جدًّا وارتدّت إلى الخلف بخوف شديد.. وجذبت حقيبتها بسرعة وأنا لاأزال أناديها باسم هند، وأُصرّ على ملامستها والدنيا تتداعى من حولي.

Twitter: @ketab_n

- ٢٩ -

أفقت لأجد نفسي داخل غرفة فاخرة بمستشفى استثماري منذ يومين. هالني الأمر لأوّل وهلة. المحاليل المعلّقة بيدي وفوق رأسي والمونيتور الذي يرصد بمؤشّراته البيانيّة حركة الأجزاء الحيويّة بجسدي. رغم ذلك كنت أحسّ أنّ ما يربطني بحياتي الدنيويّة ليس إلاّ خيوطًا واهية تمنّيت أن تنقطع، فأندفع محلّقًا في الفضاء.. لم أتذكّر ما حدث على وجه اليقين ولم تسعفني ذاكرتي بأطياف أو ظلال تعينني على تذكّر ما جرى. أبلغتني الممرّضة أنّ زوجتي الأجنبيّة هي التي أتت بي إلى هنا. لم أصحّح لها معلوماتها، وهي تستطرد بتزلّف بأنّ زوجتي كانت تبكي بكاءً مرًّا بغير انقطاع.. لم تنطَلِ عليّ هذه الحيلة فأنا أدرى بمارشا منها. وكبير مارشا أن تذرف بعض الدمعات. أضافت الممرّضة اللعينة أيضًا أنّ مارشا سهرت بجواري الليلتين الماضيتين، وأنّها انصرفت عند الفجر بعد أن أخبرها الطبيب باستقرار حالتي. خرجت الممرّضة اللّجوج، وعادت بعد دقائق بالطبيب المناوب الذي طمأنني على حالتي، وقال بأنّ سبب ما حدث حالة إجهاد شديدة وصدمة مفاجئة أثّرت على جهاز مناعتي المجهد بأنيميا شديدة من قلّة الغذاء الصحّي، بالإضافة إلى توتّري وارتفاع ضغط دمي. الحمد لله لم ينتبه لحالتي النفسيّة والبلابيع التي أتناولها كي تحقّق لي الانسجام الفوري. سألتني الممرّضة وهي تطعمني: هل عندك أولاد؟ نفيت بإيماءة، قالت بتنهيدة: يا خسارة، كأنّها تعيب عليّ مصريّتي وامتلاكي لهذه الأجنبيّة الفاتنة ولا أنجب منها ولا أحسّن السلالة.

Twitter: @ketab_n

أيّتها الحمقاء الدونيّة. . أنت بأيّ ميزان عدل تتفوّقين على أمثال مارشا بكافّة المقاييس. بالجمال الفطري. بالطيبة والوداعة. بالمداعبة. بالاهتمام الفطري بالجسد. لكنّي لم أقل هذا الكلام لها اكتفيت به في داخلي، طلبت منها أن تتركني فجأة، فانسحبت وهي مندهشة.

بعد قليل، عادت وبصحبتها عوض وهي تنظر إليّ بحيرة، أعتقد أنّه لم يدخل أحد غرفتي في صحوي وإغماءتي إلاّ وكان أشقر وعيناه ملوّنتين. . وهذا يحيّرها. . كان عوض يبدو متأثّرًا وهو يعتذر بأنّه لم يعلم بوجودي بالمستشفى إلاّ صبيحة اليوم. ثم اعتذر نيابة عن عائشة زوجته لأنّ الحمل يتعبها. همست له بودّ أنّه لا معنى لحضوره أمس أو أوّل أمس، فقد كنت في غيبوبة لم أفق منها إلاّ منذ سويعات، حتى مارشا لا تعلم أنّي أفقت حتى هذه اللحظة. أومأ برأسه مصدّقًا على كلامي، لكنّه ابتسم وهو يصحّح لي المعلومة قائلاً إنّ مارشا تعرف، فقد أخبرته بأنّي أفقت، وأنّها تتصل بالمستشفى كل ساعة للاطمئنان عليّ والطبيب لديه رقمها ويطمئنها كثيرًا. وقبل أن أنطق بسؤال عن سبب عدم اتصالها بي أو حضورها حتى الآن، أجابني بغمزة من عينه وهو يقول بأنّها ستخبر عصام وإيفلين وديانا وباقي الأصدقاء ليحتفلوا بشفائك بالمستشفى مساءً. فزعت وغضبت فعلاً. هل تريد المعتوهة أن تقلب المستشفى ناديًا ليليًّا. تبًّا لها ولأفكارها النيّرة وهي تقلّد حكومات العالم الثالث، وتفعل نفس ما تفعله هذه الحكومات التعسة من احتفالات بكل شيء حتى بهزائمها. كنت منهكًا ومتعبًا ولو اتصلت بها لعدت إلى غيبوبتي. رجوته أن يتصل بها ليمنعها من هذا التصرّف الأحمق، وأن يخبرها بأنّي غير موافق على ذلك ومستاء. ربت على يدي. أصررت أن يخبرها في التوّ وأن يذكر لها أنّي نمت حتى لا تصرّ على أن تكلّمني وتضغط عليّ لإقناعي. فعل ما طلبته منه بالتفصيل،

Twitter: @ketab_n

بعد أن قال: حاضر بصوت عذب وبلكنته.. يعجبني هذا العوض الذي خرجت به صديقًا من بين كل أهل الغرب الذين تعرّفت إليهم. سألته عن أخباره الجديدة فقال بابتسامة جميلة: في انتظار وليّ العهد وبس.. ضحكت، عقد جبينه وقال بعد تفكير: تفتكر عصام هاييجي يزورك؟ لم أعلّق. فاستطرد: أنا عدّيت عليه قبل ما أجيلك وكان رايح جامع الحسين.. هو مأمور (قالها عوض بسخرية وعجب)، قاطعته: مأمور بالبحث عن شيخه ومعلّمه.. قال مندهشًا: إنت عارف؟ ابتسمت رغمًا عنّي: عارف.. وعارف إنّه لازم يلاقيه. دي رتبة كبيرة من رتب الصوفيّة، فعلى الصوفي أن يبحث حتى يجد أستاذه ومولاه.. وممكن يكون أستاذه ده شيخ جامع أو ماسح أحذية أو بيّاع بليلة أو طبيب بمستشفى حكومي أو خادم بمراحيض عموميّة.. ولمّا يلاقوا بعض ها يتعرّفوا على بعض بدون كلام. كان عوض يستمع إليّ مشدوهًا، ثم تساءل بدهشة: هو إنتَ دارس الصوفيّة زيّه؟ نفيت وأنا أقول: عصام زمان علّمني شويّة وإحنا في الغربة، بس أنا ما تحمستش. أدهشني عوض وهو يقول: ده موضوع شيّق وجميل أنا بدأت أحبّه، وفي أقرب فرصة أقابل عصام هاستعير منه شويّة كتب. خرج عوض بعد أن أكّدت عليه مرارًا ألاّ ينصاع لمارشا، وأوضحت له عدم رغبتي في استقبال أحد ليحتفل بشفائي كالطفل يوم الختان. انصرف عوض وابتسمت لفكرة أنّه بعد أن يقرأ الكتب التي يستعيرها من عصام سيصبح جنديًا مطيعًا ومريدًا طيّعًا لشيخنا عصام الشريف.

مرّت ساعات القيلولة وبدأ ذهني يصفو قليلاً. كنت أغفو وأستيقظ دون أن أجهد نفسي في تذكّر ما مضى. على الأغلب كنت في حاجة لهذه الراحة الإجباريّة. لم تمضِ لحظات إلاّ ودخلت مارشا بصخب يتبعها الطبيب والممرّضة، قبّلت وجنتي وجبيني بلهفة، وتفحّصت المينتور والمحاليل كأنّها طبيبة محترفة، ثم بدا على وجهها الارتياح.

Twitter: @ketab_n

خاطبها الطبيب بالإنجليزيّة مستعرضًا ثقافته يطمئنها على كل أجهزتي، فردّت عليه بالعربيّة: شكرًا.. شكرًا يا دكتور.. ثم سألته عن موعد خروجي، أذن لي الطبيب بالخروج صباح الغد وأمر الممرّضة بوقف المحاليل، وراح يكتب قائمة طويلة مليئة بالإرشادات التي تجنّبني التوتّر والإجهاد والقلق. انصرف الطبيب والممرّضة، وقبل أن تضع لي مارشا خططًا بما سأفعله بعد خروجي، خاطبتها بكلمات حاسمة بأنّي لن أبقى بالقاهرة طيلة فترة النقاهة التي حدّدها لي الطبيب بأسبوعين، قاطعتني بدلال: نروح سويسرا شهر وهاترجع كويس، علا صوتي قليلاً وأنا أقول كمن يفهمها: هاروح اسكندريّة أو مرسى مطروح أو الغردقة، ولوحدي.. أعمل أيّ حاجة.. ديوان. مسرحيّة. أكتب مذكّراتي.. إن شاء الله ألعب في الطين. استكانت وأطرقت برأسها ثم همست بودّ: ماشي.. كويّس. لسه عندنا وقت نخلّص فيه الفيلم، لم أعلّق، قالت بعتاب رقيق: هو أنت طلبت إنّنا ما نحتفلش بيك ليه؟ أجبتها بسخرية: دي مستشفى مش شقّة مفروشة وكلّها مرضى وتعبانين، سكتت وهلة ثم قالت بمسكنة: يعني ممكن نحتفل بكره في شقّتنا قبل ما تسافر. متحسّسًا كلماتي كمن يعبر أرضًا موحلة قذرة؛ بابتسامة حرصت أن تصلها: بكره أحتفل أنا وأنت بس وبعدين أسافر. هبطت على وجهها وداعة وسكينة وصاحبت فمها بسمة صافية لم أعهدها فيها من قبل، أخرجتْ محمولي من حقيبتها وناولتني إيّاه وهي تباغتني بسؤال أربكني لحظات: مين ياسمين؟ انتبهت ثم تماسكت وقلت بفتور: شاعرة شابّة بتاخد رأيي في أشعارها. أكملت غير مصدّقة: سألتني عليك يومين ورا بعض والنهارده طمّنتها إنّك بقيت كويّس. ظلّت مارشا تتأمّلني وأنا صامت وخائف من أن أغيّر موضوع الحديث نحو مجرى آخر فأزيد شكوكها، اكتفيت بالصمت حتى قالت أخيرًا بصوت محايد وهي تداري نظراتها عنّي: على فكرة موظّف الأتيليه وأنا

Twitter: @ketab_n

بانقلك للمستشفى قاللي إنّ ياسمين كانت قاعدة معاك، وإنّك انفعلت عليها وأغمي عليك وهي جِرْيت. بدأ عقلي يلملم بعض خيوطه المبعثرة. لم أكن أحلم إذن. كانت ياسمين معي بالأتيليه، لكن ما الذي دفعني للانفعال عليها؟ ومن أين عرف موظّف الأتيليه باسمها وهي ليست من روّاد المكان؟ كانت الأفكار والأسئلة تتطاحن برأسي واضطررت لأن أجد أيّ مبرّر بسرعة لإسكات مارشا وإيقافها عن التمادي في تخميناتها، قلت بعجالة: بيتهيّأ لي كنّا بنتكلّم عن اللي بيحصل في فلسطين ولبنان، وقالت رأي ما عجبنيش. قالت مارشا تنصحني وهي تبدي الاقتناع: مصطفى.. أفكارك الحقيقيّة ما تقولهاش قدّام أيّ حد إنت مش واثق فيه. اغتظت، وقلت لأكيدها: بس ياسمين مش أيّ حد، وبعدين أنا واثق من تلميذتي. قالت بحدّة وسخرية: وآدي النتيجة.. وبعدين تلميذتك دي بنت صغيّرة. عقلها لسّه ما اكتملش، أكيد مش ها تفهمك كويّس. قلت في نفسي إنّ مارشا لم تترك موظّف الأتيليه حتى استجوبته كمحقّق مخضرم، وعرفت كل أوصاف ياسمين، وهذا في صالح حكايتي عن سبب الخلاف.

قلت أخيرًا لأتأكّد: هو موظّف الأتيليه قالّك إنّها أكيد ياسمين، ولاّ حدّ تاني؟ أجابت بثقة: هو ما كانش عارف اسمها لكن رجع لدفتر الزيارات وقاللي ع الاسم. جاء اليقين وتأكّدت من أنّ ياسمين فعلاً كانت بصحبتي، مارشا عرفت أنّ ياسمين كانت معي وياسمين تكلّمت معها مرّتين، لكن ما الحوار الذي دار بينهما. يبدو أنّ مارشا خمّنت الأفكار التي تدور برأسي لأنّها قالت باللامبالاة الغربيّة: على فكرة.. أنا متكلمتش مع البنت في أيّ حاجة.. ما حبتش أدّيها أهمّيّة. قلت لها إنّك كويّس وخلاص. لمّا تكلّمك طمّنها إنت بنفسك.

غيرة هذه أم ملكيّة أم فضول، وما الذي كنت أتحاور فيه مع ياسمين.. وما الذي وتّرني بشدّة؟ الله أعلم!

Twitter: @ketab_n

تظاهرت بالإعياء والرغبة في النوم، فنهضت مارشا واحتضنتني برفق، وجدت نفسي مدفوعًا لتقبيل يدها امتنانًا لما تفعله، وهي بمقربة من الباب قالت بابتسامة: إيفلين وديانا هايبقوا موجودين معايا بكرة في استقبالك.. ولاّ تحبّ أخلّيهم يزوروك النهارده؟ قلت لها متقبّلاً الأمر الواقع: مافيش مانع، بس ما يقعدوش كتير.. عايزين نبقى لوحدنا، ابتسمت بشدّة ولمعت عيناها، ورمت لي قبلة طائرة في الهواء وانطلقت مسرعة.

توقيت مثل لعبة القطّ والفأر بدأ يحدث معي، بمجرّد خروج مارشا كلّمتني ياسمين على المحمول، كانت تسأل عن صحّتي بقلق.. وما هو التشخيص؟ وما سبب مرضي؟ صوتها كان متهدّجًا وكلماتها متلاحقة وحروفها تتساقط وتتخبّط، ورغم ذلك ظلّت تتفادى الحديث حول لقائنا وما دار فيه؟ وهل تهوّرت عليها أم لا وما السبب؟ بدت مندهشة كأنّ شيئًا لم يحدث مطلقًا، لكن نفيها المشوب بالقلق أخافني، صمّمت أن تخبرني بما دار بيننا بالتفصيل، ارتجف صوتها وطالت فترة همهمتها، ثم همست بصوت مبحوح: هو أنت صحيح مش عارف؟ صرخت بقوّة: لأ، سكتت لحظات، ثم قالت: مش مهمّ ما حصلش حاجة وحشة.. حاجات عادي بتحصل بين أيّ اتنين، صرخت فيها أكثر: اتكلمي يا بنت، إيه المناقشة اللي وتّرتني كده؟ بدأت بنهنهة ثم تصاعد بكاؤها من الجانب الآخر. اضطررت للتوسّل: عشان خاطري يا ياسمين أنا لسّه تعبان ما تزوّديش مرضي. إيه اللي حصل؟ بعد أن توقّف بكاؤها همست بصوت مخنوق: والله ما حصل حاجة.. أنت كنت باين عليك تعبان من أوّل ما دخلت عليك وقلتلي إنّك مجهد، قلت لأستدرجها: أكيد اتكلمنا عن مظاهرات الأزهر والجامعة، لم أتلقّ ردًّا، فأكملت: وأنت طبعًا كنت في المكتبة ولاّ قصر السينما ومش دارية بحاجة، فانفعلت عليكِ صحّ؟ جاءني صوتها

Twitter: @ketab_n

المندهش: صحّ، قلت معاتبًا: يعني أنتِ لمّا لقيتي حالتي مش مظبوطة ليه قاومتيني وخرّجتيني عن شعوري؟ قالت: آسفة جدًّا.. وغالبها البكاء فارتفعت نهنهتها مرّة أخرى، نهرتها عن البكاء بحدّة، قالت معتذرةً إنّها لم تستطع زيارتي لأنّها لا تتحمّل أن تراني مريضًا أمام عينيها مرّة ثانية، أخبرتها بأنّي سأسافر إلى مرسى مطروح لمدّة أسبوعين أو أكثر، لأنّني أعدّ نفسي لمشروع كتابة أتمنّى أن أستطيع إنهاءه هناك. فرحت جدًّا وجاءني صوتها مهلّلاً: بس ما تنساش تبعتلي كل اللي بتكتبه يوم بيوم في الإيميل. سرّتْني فرحتها، لكنّني قلت لها بحزم: يا ياسمين أنا هاعتزل الناس كلّها.. لا هايبقي معايا محمول ولا هاقول لحدّ على عنواني. دي أحسن حاجة أستردّ بيها صحّتي، وأوّل ما أرجع هاكلّمك، سكتت برهة ثم قالت بحذر: هي مين اللي كان معاها المحمول بتاعك وأنت في المستشفى؟ أختك؟ ضحكت وقلت: أيوه. قالت بغيظ مكبوت: براحتك.. مش عايز تقول براحتك. ثم تمنّت لي السلامة، فأنهيت الاتصال. بدا لي كل ما تفعله من تصرّفات ظاهرها القلق والخوف عليّ والاهتمام بصحّتي، ليست مشاعر حقيقيّة بقدر ما هي حالة من حالات افتقاد الأب، وأغاظني هذا وأغاظتني أكثر صورتها التي تغالبني وهي تجري كالجرو المسكين بمجرّد أن وقعتُ أمام عينيها ولم تفكّر في الاطمئنان عليّ إلاّ هاتفيًّا، كما ذكرت لي مارشا، ولم تزرني أو تكلّف نفسها بالسؤال عن المستشفى كي ترسل لي بعض الورود لتجد لها مكانًا وسط هذه الباقات المذيّلة بتوقيعات لاتينيّة..

هذا اليوم الأبدي لن يمرّ، فاجأتني الممرّضة بأخبار لا تسرّ، فشقيقتاي وزوجاهما وأولادهما في الانتظار بالبهو، كانت الممرّضة تسألني هل تدخلهم على مرّتين أم من الأفضل أن أقابلهم في البهو، كنت مصدومًا ومندهشًا وحانقًا على مارشا التي اتخذت محمولي سبيلاً

Twitter: @ketab_n

تردّ على أيّ اتصال وتخبر كل من يتصل بحالتي. أختاي بالذات لا تسألان عنّي إلاّ فيما ندر، إمّا لأنّهما تشتكيان من زوجيهما أو من أولادهما، أو تخبراني بالأخبار المزعجة. ترى لماذا اتصلت إحداهنّ بي في هذا الظرف الحرج؟ ولماذا لم تخبرني مارشا بهذا الاتصال؟ كانت الممرّضة اللحوح تتكلّم وأنا مشغول عنها بغضبي، صرخت فيها: في الطرقة. فخرجت غاضبة بعد أن نظرت إليّ بغيظ، رغم أنّي كنت حرًّا بعدما نزعوا من جسدي الإبر وأنابيب المحاليل، إلاّ أنّني كنت متعبًا.. تحرّكت بضع خطوات وكأنّي أتعلم السير من جديد، توقّفت وجلست على الكرسي. أتت الممرّضة مرّة أخرى فوجدتني جالسًا. قبل أن تنطق نهضت فأسندتني بقوّة حتى وصلت إليهم، احتضنتني الأختان وبكتا بصوت متزامن وبانفعالات الوجه نفسها، وكأنّهما توأمان. وسلّم الأولاد عليّ وهم يتفحصّونني بدهشة ربما لرؤيتي بالجلباب، وقد كانوا يشاهدونني في المرّات النادرة التي زرتهم فيها متأنّقًا تمامًا. زوج محاسن أختي الكُبرى مارس أبوّته عليّ وظلّ يستفزّني بخبطاته على ساقي ونصائحه البلهاء، أمّا زوج رضا أختي الصغرى فقد بدا ضَجرًا ملولاً يتحرّك بعصبيّة على الكرسي البلاستيك الذي يحدث أصواتًا عند احتكاكه برخام أرضيّة المستشفى، تصوّرته يودّ لو يخرج بسرعة لمتابعة محلّ السمك الذي امتلكه بنقود والدي. كنت قد وتّرتني حركته الدائبة، فأمرته أن يكفّ عن تحريك الكرسيّ، كما قلت له باستفزاز: إنت مالك باين عليك مش مرتاح مع إنّي سامع أنّ محلّك ماشي عال بعد أنفلونزا الطيور. نظر بغيظ إلى زوجته وكأنّه يلومها على مجيئها به إليّ أو ربما اعتقد أنّها من أخبرتني. خفضت أختي وجهها رعبًا بينما تعلّل هو بأنّ رائحة الديتول والكحول تخنقه وتجعله لا يتردّد على المستشفيات. نهض زوج أختي الكبرى قبل أن أتندّر بتعاملاته في البورصة، وأجبر طفليه على تقبيلي وهو يستأذن بأنّه

Twitter: @ketab_n

لابدّ أن يؤدّي واجب عزاء، ونهضت زوجته وراءه صاغرة وهي تسألني بصوت معدني: تحبّ أجيب لك معايا أكل بكره لو مش عاجبك أكل المستشفى؟

قلت لها بحدّة: أنا خارج بكرة.

نهض زوج الصغرى خائفًا من العدوى حاملاً طفليه بين يديه حتى لا يجد نفسه مضطرًا لاحتضاني أو السلام عليّ بكلتا يديه، ومدّ إليّ كفّه فلمسته بفتور، أمّا شقيقتاي فقد تلقّيت قبلاتهما كما تتلقّى مذيعة التليفزيون قبلات الأطفال المشرّدين أمام الكاميرات. غادروني أخيرًا وأنا أعاود سبّ مارشا ولعنها. وركبني العصبي عندما تصوّرت أنّه من الممكن ألاّ تكون إحدى شقيقتيَّ قد اتصلت بي، وإنّما مارشا عبثت في محمولي ووجدت أرقامهم واتصلت بهم متصوّرة أنّ هذا سيسرّني، وهذا أقرب للحقيقة. فعلاقتي بشقيقتَّي فيها من التوتّر والغضب أكثر ممّا فيها من دم وقرابة.

لقد طردت أختي الكبرى وزوجها وطفليهما من منزلي منذ عدّة شهور، تراذل الزوج بأسئلته التافهة عمّا أفعله وكيف أكسب رزقي واحتملت ورأيت خنوع شقيقتي وتزلّفها المقيت له وما علّقت! حتى قال ابنها الأكبر فجأة وهو في العاشرة من عمره بعد أن ناولته قصّة مصوّرة ليطالعها: خالو هي المكتبة دي حنورثها كمان مع الشقّة؟ لا لم تكن هلاوس ولا ظنون، أختي وزوجها وأولادها يرتّبون من الآن لكي يرثوني، بعد أن استولى كل زوج من هذين النطعين على ميراث شقيقتيْ ولهَفَا مبالغ كبيرة نظير تنازلهما عن حصّتيهما بشقّة وسط البلد وبيت الطالبيّة. تنابلة السلطان ينتظرون منّي ما هو أكثر، أن يرثوني وأنا على قيد الحياة، ويرتّبوا لذلك في وجود أطفالهم الصغار، لم أدْرِ بنفسي إلاّ وأنا أجري وراء زوج أختي الكبرى بالحذاء، وكان الأولاد يفرّون فزعًا. واختفى الجبان من أمامي بينما أختي على درج السلّم تلملم

Twitter: @ketab_n

أشياءها التي تناثرت من حقيبتها بعد أن ألقيت بها إليها مع حجابها. ادّعوا أنّني جننت تمامًا وأخبروا أختي الصغرى التي اتصلت لتعاتبني، فنالت نصيبها أيضًا في الهاتف. استرحت منهم وأراحوني، لم يجرؤ أحد منهم على زيارتي، وعلى فترات متباعدة كانوا يكلّمونني في الهاتف وقد أردّ وفي الأغلب أهملهم. أعادتهم مارشا بحسن نيّة وكنت قد نسيتهم تمامًا كأنّي ولدت وحيدًا.. الآن أصبحوا حاضرين بشدّة ولابدّ من أن أحسب حسابهم!

أكّدت مارشا على الأصدقاء المجتمعين احتفالاً بشفائي ضرورة الانصراف مبكرًا، ووجدتهم في غمرة الاحتفال يتأهّبون للانصراف. حاولت استبقاء عوض، لكن مارشا لمّحت لي بعينها، ثم انتحت بي جانبًا وهمست بأنّ هذا لا يصحّ.. إمّا أن يمكث الجميع أو ينصرف الكل. قال لي عوض وهو يغادر إنّ عصام رفض الحضور وإنّ هذا أغضبه، ابتسمت وقلت له: ما تزعلش.. أنا مقدّر الظروف التي يمرّ بها عصام. قال عوض ضجرًا: ظروف.. ظروف.. ده قال لي ربّنا يتوب عليك وعليكم.. يقصد إيه؟ ضحكت وقلت: ربّنا يتوب علينا منه. وربتّ على ظهره طالبًا منه ألاّ يكترث للأمر، فعصام سيعود إلينا قريبًا كما كان، تفرّس عوض في وجهي، ثم قال متمنّيًا: تفتكر؟

Twitter: @ketab_n

- ٣٠ -

رغم كل تبريراتي لقرار الانقطاع عن العالم لمدّة شهر، ورغم ما أبدته مارشا من اقتناع بأسبابي، إلاّ أنّها حرصت على وضعي على مضمار السباق كما كنت، بإصرارها أن أصطحب معي ما دوّنته من سيناريو الفيلم حتى إذا ما مللت خلال المدّة الطويلة كما تتوقّع، أنشغل مرّة أخرى بموضوع الفيلم وأعود من مرسى مطروح مستعدًّا لإشارة البدء. أطعتها خاصّة بعد أن رضخت لطلبي بعدم زيارتي بمرسى مطروح ولم أذكر لها أين سأقيم، بل وحذّرتها من أن تبحث عن أيّة وسيلة للاتصال بي، نزعت شريحة المحمول أمامها وقلت لها إنّني منقطع عن العالم، ورجوتها أن تحترم هذه الرغبة..

غسلني البحر بصخوره البكر، بمدّه وجذره، بطحالبه الفاتنة، بزبده الفضّي، فانشغلت به عن الكون كلّه، لم أقرأ جريدة واحدة ولا استمعت أو شاهدت نشرة أخبار، ولم أنزل بفندق أو بنسيون كما قد تتوقّع مارشا ولم أمكث في المدينة إنّما في ضواحيها. قلت لمارشا إنّي سأكون بمرسى مطروح لأنّي أعرف كيف يعمل دماغها، فلو شاءت البحث عنّي ستبحث في كل مكان عدا مرسى مطروح ليقينها بأنّي ذكرت ذلك على سبيل التمويه. عشرون يومًا قضيتها في الفراغ اللذيذ مستلقيًا خارج الزمن بدون أن أفكّر في شيء يكدّرني، محاذرًا أن أستعيد ذكرى جميلة فتجرجر في أذيالها بلايا ونكبات، بدأت ببذل مجهود كبير في إزاحة هذه الأفكار عن رأسي، ثم اعتاد مخّي على

Twitter: @ketab_n

ذلك وعاد تلقائيًا يطرد مثل هذه الأفكار خارجًا. انغمست في ألعاب التسلية مع مواطنين عاديين، وقيادة الدرّاجات لمسافة طويلة على الطريق الرئيسي، وانتقاء الفواكه والخضر كربّات البيوت والتي أكاد أعرف طهوها، وصيد السمك والنساء اللاتي أتعرّف عليهنّ في الديسكوتك وفي الأسواق، وأصحو لأجد نفسي مكبّلاً بجسدهنّ المتعرّق من مختلف المقاييس والأوزان والألوان.. قدم بالقرب من فمي. ذراع على صدري. ساق أسفل جسدي. جورب نسائي يعصب رأسي. بدينات ونحيفات. جميلات وشاحبات، أفاجأ بهنّ عند استيقاظي فأطردهنّ بقسوة، وكنت أنساهنّ فورًا ولا أتذكّرهنّ مرّة أخرى إلاّ عندما تفرّ من أمامي فتاة وأنا على طريق الكورنيش ليلاً.. كنت أتوقّف عن مطاردتها بيقين أنّها باتت عندي ليلة ما.

ها أنا في طريق العودة إلى القاهرة، عدت شابًا صلبًا راضيًا لاستقبال كل مفاجآت الحياة ومستعدًا لمواجهتها مهما تكون، عدت قبل موعدي بعشرة أيّام بغرض ترتيب حياتي بالقاهرة. لبدتُ بشقّتي أعدّل الاسكربت وأقارنه بما صوّرته وبما سأصوّره مستقبلاً، ووضعت عدّة كرؤكيات لأماكن تصوير أخرى حتى أقنع مارشا بأنّي عملت على مشروعنا خلال إجازتنا. كنت كالتلميذ الذي يضع خطوطًا أسفل سطور الكتابة ليوهم مدرّسه بأنّه يذاكر..

وكان أوّل بيت زرته بعد عزلتي بمرسى مطروح وشقّتي، منزل مارشا التي تألّق وجهها بمجرّد أن رأتني، وقالت لي بعد ذلك إنّ مزاجها اعتدل، والذي كان قد تكدّر كثيرًا من خادمتها جوليا التي دأبت في الفترة الأخيرة على تجاهل أوامرها وعدم تنفيذها بحجّة السهو والنسيان، قلت لها بالإنجليزيّة وبصوت عالٍ حتى تسمعه جوليا وهي في المطبخ بأن تعيدها إلى الكنيسة وترتاح منها أو تعيرها لإحدى صديقاتها أو تتركني أتصرّف معها.. داعبت مارشا ركبتي بأصابعها

Twitter: @ketab_n

وهي تبتسم، ثم همست لي بأسى بأنّ أعدادهم تكاثرت جدًّا في الآونة الأخيرة والأمم المتحدة لم تعد في خططها مسألة إعادة توطينهم بكندا أو أميركا والبلاد الأوروبيّة كالسابق، وتغيّرت أجندتها بعد اتفاق السلام وتنوي إعادتهم جنوب السودان، وهذا ما يوتّر جوليا وابن عمّها. . قلت بخبث: إذن تحمّليها وساعديها بعلاقاتك بأن تستوطن هي وخطيبها في أميركا. نظرت مارشا إليّ طويلاً بصمت، وأحسست أنّي اقتربت جدًّا من خطّ أحمر بعده ألغام مدمّرة، لم أشأ أن أتراجع أو أدّعي المزاح، فقط صمتُّ أنا أيضًا حتى أضطرها أن تتكلّم، وهي تحرص أن تنفذ إشعاعات عينيها إلى أغواري. قالت: مصطفى، لا تتصوّر أنّي سأتركك أبدًا وأعود إلى بلدي، إما أن أصطحبك أو أن أعيش معك هنا للأبد، اقتربت مارشا من منطقة تجنّبتها طويلاً، بعد أن حدّدنا علاقتنا في البداية، لم أسألها أبدًا عن مصير هذه العلاقة، ولم أهتمّ وهي أيضًا كانت تبدو حريصة على منحي في أحيان كثيرة انطباعًا بأنّ علاقتنا كالجرح السطحي الدالّ على وجود شيء لا أكثر.

كانت أوّل مرّة تمدّ الخطوط على استقامتها، ورغم أنّ ذلك أقلقني إلاّ أنّه أيضًا أشعرني بالفخر، فالأمر معناه أنّ علاقتنا لم تكن لعبة كما تصوّرتها في أحيان كثيرة، بل كانت حبًّا وأنّ الاعتياد الطويل الذي سارت فيه علاقتنا قد يكون له أثره في إضعاف بعض المشاعر أو إخماد جذوتها.

قضينا الأمسية نتسامر، وأصرّت مارشا على مبيتي، ووعدتها أن أتواصل بدءًا من الغد مع كريم وشلّته، حتى ننتهي سريعًا من الفيلم، بعد أن بدأت الهيئات الراعية في التساؤل عن دواعي التأخير، كما كانت تدلّل على كلامها بمجموعة من الإيميلات تركتها في يدي.

عند الظهر، كنت بالقرب من المقام الحسيني، وقادني فضولي وامتلكتني حالة وجدانيّة وروحيّة، جعلتني أندمج مع الزائرين والمتبتّلين

Twitter: @ketab_n

وذوي الحاجات، وأصحاب الطلبات والمريدين، والإفرنج الباحثين عن لذّة المشاهدة، خلال اندماجي كنت أبحث عن عصام في كل الوجوه التي بجواري وحولي وخلفي، ونحن ندور في دوائر لا تنتهي، لعلّه كان في التوقيت نفسه يلتمس شيخه ومولاه هنا، لعلّه وجد ضالّته، وجد من يأمره بكلمات بسيطة تتجاوز إدراك الذهن العادي الغافل، كما كان يعلّمني عصام ماهيّة مراتب الصوفيّة. . لعلّني بكيت مع الباكين، أو دلفت معهم إلى البرزخ، لعلّني غبت عن الوعي أو استكنت، لعلّني متّ وأفقت، لعلّني لم أدخل أصلاً لباحة المسجد، ولم أبرح مكاني الذي أجلس به الآن في انتظار عوض، الذي طلب من مارشا أثناء سفري أن تخبره بأيّة وسيلة للاتصال بي لأنّ الأمر مهم جدًّا. عندما أوصلتني مارشا به كان صوته خلال الهاتف يتهدّج وهو يطلب منّي برجاء أن أقابله غدًا بحيّ الحسين، وعندما سألته لماذا حيّ الحسين بالذات؟ أجابني بكلام يبدو مرتّبًا بأنّه سيتسوّق ظهرًا بحيّ الحسين، لأنّ حماته قد طلبت منه أنواعًا كثيرة من العطارة الشرقيّة الممتازة، وأخبرته بتوافرها في محلّ عطّار شهير بالحسين. حدّدنا الموعد لكنّني لم أكن مستريحًا لكلماته ولا مقتنعًا بها، الآن فقط أدركت مغزى ما جرّني من أجله عوض إلى هنا، هو عصام بالتأكيد. أكيد جُنّ وارتدى أسمالاً بالية ومضى يتسكّع مع الشحّاذين والمتسوّلين والمعتوهين وذوي الكرامات، لعلّه سيفاجئني بمأوى عصام وملجئه ومخبئه وسردابه.

وضع عوض كيسين كبيرين ممتلئين لحافتهما بالعطارة. وأدهشني ذلك جدًّا، فمن غير المنطقي أن يشتري كل هذه العطارة كتمويه لمقابلتي، بدأ يفتح الشنطة الصغيرة الملفوفة حول وسطه ويخرج مبسمه العاجي ليضعه في لاي الشيشة التي أحضرها العامل، بدأ يرشف الدخان باستمتاع وينفثه برائحة التفّاح المُصنّع الخانق، نظر إليّ طويلاً ثم سألني إذا كانت مارشا قد أخبرتني شيئًا عن عصام أم لا؟! هززت

Twitter: @ketab_n

رأسي نافيًا وأنا أكتم بسمة سخرية واستخفاف، فعوض الألماني يبدو أنّه ترك برلين واستقرّ بمصر وعمل وتزوّج بها، وها هو على وشك أن ينجب فيها طفلاً نصفه مصري ونصفه أجنبي. جاء إلى مصر من أجل شيء واحد هو أن يبلغني كلّما رآني بأخبار غرائبيّة عن عصام، كان قد سكت وهو ينفث دخانه وينظر إليّ كأنّه يتردّد في النطق. اضطررت لحثّه على الكلام، فقلت له بغيظ: عصام عمل إيه يا عوض؟ نحّى عوض المبسم عن فمه وقال بتنهيدة: عصام ف خطر حقيقي يا مصطفى، ابتسمت أكثر لفكرة أنّ الغربيين المقيمين بالشرق لا يفقدون الدهشة وأدنى الأشياء قد تثيرهم وتبهرهم وقد تخيفهم وترعبهم. وبمقدار حبّه لعصام امتلأ قلب عوض خوفًا وتوجّسًا عليه، ماذا سيقول عن عصام؟ وهل هناك المزيد يمكن أن يقال؟ سيقول إنّه تدروش وانهطل ويمشي عاريًا بالشوارع! لن أندهش. سيقول إنّه انجذب مع الأولياء والمعاتيه والذاكرين والرفاعية، شيء متوقّع وطبيعي جدًّا. سيقول إنّه جُنّ تمامًا وتصوّر نفسه قطبًا كبيرًا له أتباع وتلاميذ! أو أصبح نبيًّا يتلقى البشارة، لن يثيرني هذا الأمر أيضًا. لم يتكلّم عوض متصوّرًا أنّ فضولي سيغلبني وأسأله، لكنّي تماديت في التجاهل لدرجة أنّه صرخ في وجهي وهو يقول: مصطفى! عصام صاحبك وأنت مش عاوز تعرف إيه اللّي بيحصله؟ تبسّمت وقلت أهدّئه: المسألة بسيطة يا عوض. . أنا أعرف عصام كويّس وأتوقّع منه أيّ شيء. سكت عوض قليلاً، ثم قال: أنت عرفت إن عصام سافر سنغافورة تاني؟ ذهلت وخرج الكلام منّي بدون أن أسيطر عليه: يخرب بيته سافر لها تاني، عقّب عوض وهو يتنهّد: ورجع من أسبوع. قلت بغيظ شديد: يستاهل كل اللي يجري له. . أنا كنت فاكره أقوى من كده. أسكتني بيده حتى لا أسترسل، ثم قال بصوت خفيض: سامنثا ماتت يا مصطفى، لم أستوعب ما قاله في بادئ الأمر إلاّ بعد أن كرّره مرّتين، قلت بأسى:

Twitter: @ketab_n

إمتي؟.. قال إنّها ماتت بعد سفري مرسى مطروح بيومين. وجدت نفسي أقول له برهبة: ماتت كده فجأة؟ أجابني بحزن: كانت مريضة جدًّا.. كانت عندها حالة متقدّمة من سرطان المخّ، والأطبّاء هناك قالوا إنّها مش ها تعيش أكثر من ستة شهور، عشان كده طلبت من عصام إنهاء العلاقة.. ما كانتش عايزاه يتألّم لمّا يعرف مرضها. صرخت في وجه عوض: جبت الكلام ده منين؟ قال: قابلت عصام لما رجع.. كان منهار بيحاول يتماسك وقاللي إنّها تركت له كل حاجة.. الفلوس والشركة وجواب وشريط فيديو مسجلاه بتقول له فيه ما يزعلش منها. نهضت وأنا أسأله بلهفة: عصام فين دلوقت؟ ردّد متشكّكًا: ما حدش يعرف عنه حاجة من أسبوع.. لا بيردّ على تليفونات ولا موجود في البيت. بيتهيّأ لي رجع سنغافورة يتابع إجراءات التركة.

تركت عوض بلا استئذان وذهبت إلى مارشا مباشرة؛ عنّفتها ووبّختها لتعمّدها إخفاء ما حدث لعصام عنّي. بوغتت ووجلت، ثم ظلّت تتودّد إليّ حتى تخفّف غضبي وهي تخبرني بأنّها لم تشأ أن تكدّرني وأنا عائد من إجازة طويلة، وأنّها كانت تتحيّن الفرصة المناسبة لإبلاغي، كما أخبرتني بأنّها ذهبت تعزّي عصام مع عوض وباقي الأصدقاء، ووجدوه تائهًا ذاهلاً يتحرّك كالسكّير غير مهتمّ بمن حضر أو بمن غاب. لم يقنعني هذا التبرير الواهي، كان يجب عليها أن تخبرني ساعة علمها بالأمر وألاّ تنتظر حتى عودتي وما بعد عودتي، كما أنّها قادرة على الوصول إليّ حتى لو كنت في بطن الحوت وحتى إن لم تجدني، كنت سأحمد لها محاولاتها، تحرّكت المواجع واحتددت عليها بقوّة مسترجعًا لها القديم والجديد كما يقولون، بما فيه إبلاغ أختي بمرضي دون أخذ رأيي. كانت مذهولة ومندهشة وقد عادت إليها لكنتها الأميركيّة وهي تقول: مستحيل.. شيء لا يصدّق.. كيف سآخذ إذنك وأنت في إغماءة؟ انشغلت عنها بإجراء عدّة مكالمات

Twitter: @ketab_n

لأصدقائي وأصدقاء عصام وزملائه محاولاً الوصول إلى معلومة، وفشلت. لم يزد ما قالوه عمّا قاله عوض، لم يكن يردّ على تليفون البيت ولا المحمول، لمت نفسي لأنّي لم آخذ منه رقم الهاتف بسنغافورة، وكان قد عرض أن يعطيني الرقم في أوائل سفرته لسنغافورة، ثم عندما رآني غير متحمّس دسّ الكارت بجيبه ولم يقدّمه لي مرّة أخرى. كان هناك حلّ أخير أن أذهب إلى مقرّ السفارة وأطلب منهم رقم عصام هناك، وأكيد الرّقم مدوّن في سجلاّتهم، لكن ما الحجّة التي ستقنعهم بتقديم هذه المعلومة لي بسهولة. كانت مارشا قد أخذت جانبًا منّي وتظاهرت بانشغالها بجهاز اللاب توب، فغادرت شقّتها دون أن ألقي بالاً إليها.

أكّدت لي موظّفة المركز الهندي بأنّه لم يحضر منذ مدّة طويلة، وانهمكت في مراجعة دفترها لتحدّد لي المدّة بدقّة فتركتها وغادرت المركز. في المقهى أيضًا أخبروني بأنّهم لم يروه منذ فترة، وأخبرني الجرسون بأنّ كريم خرج من السجن وسأل عنّي مرّتين فلم أعلّق. لففت كعب داير على منزل عصام ومرسمه، وأخبرني البوّاب بفتور بأنّه سافر وفي بار استوريل لم يفدني أحد. وفي النادي اليوناني قال لي أحد زملاء عصام القدامى إنّه رآه منذ ليلتين يشتري ألوانًا وأصباغًا وفرشًا من محلّ «كذا لون» بشارع محمود بسيوني، وكان يبدو عليه الانشغال بالتجهيز لمعرض جديد، وأردف الزميل بدهشة إنّه غضب من عصام جدًّا لأنّه عامله بجفاء وبدا عليه أنّه نسي زملاءه القدامى، وافتقد الكياسة والذوق لدرجة أنّه أهمل هذا الزميل ولم يردّ على الأسئلة، وأبدى ضيقًا عنيفًا جعل الزميل يخاف ويبتعد عنه. أخبرت الزميل بظروف عصام المأساويّة الأخيرة فأبدى تفهّمًا وتعاطفًا وزالت عنه غضبته من عصام. وأنا في البيت زادت كميّة الأحاجي والفوازير، فعوض يخمّن أن يكون عصام قد سافر وأغلب الزملاء يؤكّدون ذلك.

Twitter: @ketab_n

زميل واحد فقط ليست له أهمّيّة بالنسبة لعصام أكّد أنّه رآه منذ يومين يبتاع أدوات ومستلزمات الرسم. . مستحيل أن يفكّر عصام في إقامة معرض وهو في هذه المأساة، ومن غير المؤكّد أن يكذب الزميل لمجرّد الكذب، وليست هناك أيّة مصلحة وراء ذلك. لم يكن ذهني قد استوعب فكرة موت سامنثا بعد، وبدا رافضًا الفكرة، وأنّ ما يشغلني الآن هو أن أجد عصام بأيّ طريقة. . لم أشرب كثيرًا هذه الليلة واستيقظت بعد الفجر مباشرة، تجوّلت بمنطقة وسط البلد وعابدين متتبّعًا الأماكن التي كان يتريّض فيها عصام، لكنّني لم أجده، وفشلت في العثور على أيّ شخص موظّفًا كان أو ميكانيكيًّا أو صبي مقهى، ربما يكون قد رآه في الأيّام القليلة الماضية يتريّض أو يتسوّق. . صرفت السائق بعد أن أوصلني إلى بيت عصام ومرسمه، استقبلني البوّاب بحدّة وكان يبدو قلقًا وخائفًا. ارتبت في أمره، جلست بجواره بالرّغم عنه. التهديد والوعيد جعله متحفّزًا لا يردّ على أسئلتي وإن ردّ فبجفاء شديد. الإغراءات هي التي نجحت مع هذا البوّاب، عندما رأى ورقة المئة دولار التي يعرفها جيّدًا لمعت عيناه، لكنّه تخابث وادّعى عدم معرفته بشيء عن عصام، وعندما وضعت عليها ورقة أخرى وهدّدته إذا لم يقل لي ماذا يحدث، فسأذهب إلى القسم وأبلغ عن غياب عصام وأتهمه بإخفائه. ابتسم وتناول النقود وأخبرني بأنّ عصام موجود بشقّته لا يفتح الباب لأحد، وأضاف أنّ عصام حذّره من إبلاغ أيّ شخص بأنّه موجود بالشقّة منذ آخر مرّة رآه فيها، واشترى له خزينًا كاملاً من مواد البقالة والسجائر. .

عندما رآني البوّاب أهمّ بالدخول رجاني بتوسّل أن أتكتّم ما دار بيننا عن عصام، فأومأت موافقًا، كان الوقت بعد الظهر بقليل، وكانت الشقّة معتمة تمامًا لا أضواء صناعيّة قويّة أو خافتة ولا شعاع من أشعّة الشمس قد تسلّل إلى غرفها أو ظهر أثره على زجاج شرّاعة الباب، لا

Twitter: @ketab_n

حركة ولا صدى صوت ينبئ أنّ بالداخل كائنًا حيًا، ضغطت الجرس أكثر من مرّة وظلّ إصبعي على زرّه، مثلما كانت تفعل زينب في إصرار، ولم يتحرّك أحد.. أمسكت بالدلاّية الحديد وجه الأسد وطرقت بها بشدّة على الباب ولا مجيب، أدميت قبضة يدي بطرق الباب ولا فائدة، وعندما أعدت الكرة خرج الجيران متضرّرين محتجّين وهم يصرخون في وجهي بأنّ أحدًا ليس بالداخل، ويهدّدونني بالشرطة حتى نزلت الدرج منكّسًا رأسي، لكن لم أيأس. انتظرت بالدور السفلي حتى أغلقوا شققهم، ثم صعدت مرّة أخرى متسلّلاً على أطراف قدميّ، وأسندت ظهري لباب شقّته وجلست مستكينًا أفكّر بانفعال.. يا ليتني لم أسلّمه مفتاح شقّته... يا ليتني استخرجت مفتاحًا بديلاً كان قد أفادني اليوم! ظللت فترة في وضعيّة الجلوس أنظر بحذر إلى أبواب الشقق المجاورة خوفًا من أن تفتح فجأة ويراني الجيران ويعملوا معي مشكلة، وكانت أذني على الخلاف تترصّد أدنى حركة بشقّة عصام حتى لو كانت سقوط فراشة على صفحة كوب ماء.. ثم استخدمت محمولي في الاتصال بشقّة عصام وانشغلت بسماع رنين تليفون شقّته المتواصل، كانت مباراة في الصبر بيننا، وقد أكسبتني الليالي التي قضيتها وسط شلّة كريم الصبر والاحتمال وتوقّع الشرّ، وكنت متأكّدًا من أنّ عصام لو بداخل شقّته فعلاً سيعرف يقينًا أنّ هذا الرذيل الثقيل الذي يصرّ على دخول شقّته ليس أحدًا غيري، وسيعلم أيضًا أنّني من الممكن أن أبقى أيّامًا وأسابيع ملازمًا لباب الشقّة حتى يفتح، كنت أتسلّى بمعاودة الاتصال بتليفونه، وكنت مدركًا أنّ هذا لو حدث معي بهذه الغباوة وهذا الإصرار لخرجت وقتلت من بالخارج مهما كان. أخيرًا سمعت صوتًا باهتًا لحركة أقدام تفصل الهاتف، فأيقنت أنّه فعلاً بالداخل، نهضت مشحونًا بالغضب والتوتّر وإصبع يدي اليسرى ضاغطة على زرّ الجرس، وبكل قوّة يدي اليمنى القابضة على الدلاية الحديد تخبطها

Twitter: @ketab_n

على الباب، غير مبالٍ بالجيران ولا بتهديداتهم، وأصدرت كمًّا من الضجيج يعجز عن إصداره عنبر المختلّين بمستشفى العبّاسيّة للأمراض العقليّة. انفتحت أبواب الجيران في توقيت متزامن مع حركة عصام لفتح باب شقّته. خرج الجيران كالوحوش الثائرة نسوة وأطفالاً ورجالاً، فتح عصام بابه ففزع الجيران وعادوا للخلف لدى رؤيتهم لوجه عصام وصلعته الحادّة وشاربه ولحيته الشعثاء وجلبابه الكتّاني الملوّث بالألوان والأحبار الغالب عليها اللون الأحمر، والتي جعلته يبدو كجزّار ثائر بالمذبح صبيحة عيد الأضحى، كانت شقّة عصام غارقة في الظلمة وشقق الجيران مضيئة، أولاني ظهره وبدأ ينسحب إلى الداخل، كانت الظلمة تأخذه إلى الأعماق. دخلت وأغلقت الباب خلفي، لم أتمكّن من تحديد مكانه في الظلام الدامس، شرعت في إضاءة كل مكان أمرّ عليه، كدت أتعثّر أكثر من مرّة في براميل الألوان الموضوعة بكل مكان بالشقّة. كان المنظر مذهلاً تمامًا، أرض الشقّة كلّها ملوّثة ببقع الألوان والكيروسين والزيوت وتبدو كالغرف التي يعيش بها أولاد الكلّة. أمّا الجدران والأسقف فكانت مرسومة بالكامل بشكل فاتن، ظللت أتأمّلها فترة ثم بحثت عن عصام حتى وجدته مضّجعًا على حصيرة بالمطبخ بعد أن كان قد أخلاه بالكامل فيما عدا موقد الكيروسين والسبرتاية وبعض الأطباق الخشبيّة ومستلزماتها من الملاعق والشوك أيضًا، والعصا التي تستخدم في الأكل، واستبدل ثلاّجته الضخمة بثلاّجة مكتب صغيرة جعل قاعدتها من أعلى رفًّا للأطباق والأكواب، وكان قد نزع السيراميك والقيشاني بالكامل واستبدله بالبلاط الحراري، وحفر ورسم على حوائط المطبخ وسقفه، نهض في هذه اللحظة ليكمل ربما ما بدأه غير مهتمّ بي، كان يضع رتوشه الأخيرة على ملابس سامنثا بعد أن رسمها وهي تعدّ الطعام على موقدها الضخم، وأمامها مائدة عليها دجاج مقلي متبّل وأسماك مشويّة وأطباق

Twitter: @ketab_n

كثيرة ممتلئة بالسلطات الخضراء وفواكه البحر، وكانت هناك بجوار هذه الأصناف بضع كابوريات مشويّة ومجموعة متنوّعة من كائنات بحريّة لا أعرفها جيّدًا، أمّا حبّات الأناناس والمانجو والموز والتفّاح فكانت ملقاة بطول المائدة، كان ظهر سامنثا لنا وشعرها الأسود القصير يكاد أن يضيء، وفي الركن الآخر وهي تقدّم الطعام كانت بسمتها تتسع لكل الكون، وكانت تبدو وهي تشير إلى ما تطهوه مزهوّة وفخورة، على طرف الشوكة تقدّم لك قطعًا من طعامها بابتسامة ودود، وشفتاها تكادان أن تنطقا وتتمنّيا لك شهيّة مفتوحة وصحّة دائمة.

كل هذا كان مرسومًا بدقّة متناهية وبمهارة شديدة على الجدران والأسقف، وكأنّ عصام قد استعان بعشرات العمّال المهرة من سنغافورة لرصد كل هذه التفاصيل المذهلة، كان يراقبني بعينين مجهدتين تمامًا من أثر السهاد والإمعان في التفاصيل، وأنا مذهول.. ولم تتحرّك في وجهه عضلة واحدة تنبئ عن فخر أو سعادة بما صنعه، كأنّ ما فعله ويفعله أقلّ من الواجب الذي خلق من أجله. لم أكن منذ دخلت قد كلّمته ولم أكن بحاجة للكلام معه، أزحت الحصيرة من إحدى جوانبها كاشفًا عن منمنماته الصغيرة والمتوسّطة لأحذية سامنثا وقفّازاتها أثناء الطهي والكمّامات المنقّاة للاستنشاق وجواربها الصغيرة بألوانها الزاهية وتفاصيلها الدقيقة، مضيت أخترق باقي الغرف وخلفي كان عصام يطفئ نورها إثر خروجي. لم أعد أتذكّر اسم هذه الغرف والغرض الذي كان عصام يستخدمها من أجله، كنت فقط أرى سامنثا في كل مكان.. بجوارك.. أعلاك.. ترتدي ملابسها للخروج أو تتأهّب للنوم.. ملابس شتويّة وصيفيّة. تكنس الأرضيّة. تراقب الغسّالة. تأكل. تجهّز الأكل. تشاهد التليفزيون الضخم. جالسة على المكتب وأمامها جهاز الكمبيوتر. تلعب بالعرائس والدمى.. وفي غرفة صغيرة خصّصها عصام للأطفال كانت سامنثا وهي طفلة دون العاشرة

Twitter: @ketab_n

تلعب بألعاب آسيويّة. وفي سنّ المراهقة تذاكر. وفي العشرينات تتنزه مع صديقاتها. وفي أعقاب الثلاثينات تزفّ إلى عصام.. كانت هناك أيضًا رسوم لهما وهما يتجوّلان بالقاهرة وفي مدن سنغافورة وباراتها، وفي غرفة نوم عصام كان الجدار، الذي أمامه بالضبط وهو راقد، مرسومًا عليه سامنثا وهي مسجّاة على ظهرها تأهّبًا للاحتراق، وفي السقف سامنثا وعصام راقدان على السرير نفسه... وعلى الكومودينو الذي بجوار السرير المعدني قنّينة فخّاريّة تحتوي على رماد سامنثا، وينوي عصام أن يحتفظ بها إلى جانب السرير للأبد.

لم أفلح في أن يحدّثني عن المأساة بأكثر ممّا قاله لي عوض، ولم أفلح في إخراجه من هذا المكان المتحفي.. وأعتقد أنّه ما من أحد بقادر على زعزعته سنتيمترًا واحدًا بعيدًا عن هذا المكان. كان عصام يستعيد حياته لحظة بلحظة معها، وسيصبح هذا المكان مبهرًا لكلّ من يراه لأوّل مرّة، لكنّه قطعًا لن يعود بعد كل هذه الشحنة المأساويّة التي سيمتلئ بها زائر هذا المكان، والتي جعلتني أنقبض وأخاف وأحاول إزاحة عصام وسامنثا من ذاكرتي بسرعة.

ما عرفته منه بالكاد أنّه لم يقبل أخذ أيّ من نقودها أو شركتها أو متعلّقاتها، وأنّه أوقف حياته كلّها عليها، فشل عصام في أن يجد شيخه ومولاه الذي سيكمل طريقه تلميذًا له، لأنّ قطبه الأكبر ـ منذ البداية ـ كان سامنثا ولم يكن يدري. هذا ليس كلامي، ولكنّه كلامه بعد أن احتضنته وقبّلته، ثم شعرت بعدها أنّني احتضنت وقبّلت ظلاً هلاميًّا وتخاطبت مع الأثير، وأخبرت الضوء بأنّني سأعاود زيارته.. كنت أعرف أنّني كاذب وكلانا يعلم أنّنا لن نلتقي.

Twitter: @ketab_n

ـ ٣١ ـ

بعد ما حدث لعصام لم أعد بخير، صرت أتجنّب الأماكن التي تجمعني بزملاء وأصدقاء يعرفوننا حتى لا أُسأل عنه ولا أدري بِمَ أجيب. لم أعد أرغب في الاتصال به أو زيارته حتى لا يقضي عليّ خبر غير متوقّع يخصّه، لم أشأ أن أكون أوّل من يعثر على جثته أو يتعرّف على رمته، فقد كان فناؤه محتّمًا وروابطه بالأرض بضعة خيوط مهترئة، لم أنصع لمارشا ولا لعوض ولا ديانا ولا إيفلين ولا أيّ آدمي آخر مهما كانت درجة صلته بعصام، ولا أطعت أحدًا منهم كان يطلب منّي زيارة عصام معه أو بدونه. كنت أراه كالبجعة في أيّامها الأخيرة حين تستشرف الموت فتتّجه إلى شاطئ المحيط، وتنطلق في رقصتها الأخيرة وتغرّد تغريدتها الوحيدة الشجيّة، ثم تموت.. وكنت أعرف أنّ عصام قد اتخذ شقّته ومرسمه قبرًا له ولسامنثا وأنّه قد رفع مرساة سفينته وارتحل مع ذكرياته، وأنّه يجاهد حثيثًا لتخليص روحه من عظامه ولحمه الرممي، ولن أكون مفتاحهم للولوج لعصام بعد أن أوصد بابه دونهم ورفض رفضًا باتًّا أن يفتحه لهم.

ورغم عزلتي الإجباريّة عن عصام لم يتوقّف عوض ولا مارشا عن إبلاغي بأخبار أتتهم عن عصام.. آخرها أنّ بعض الجيران أبلغوا الشرطة بأنّ رائحة كريهة تنبعث من شقّة عصام واقتحمت الشرطة والجيران وبعض الأقارب بعيدي الصلة بعصام، الشقّة بعد أن أجبروه على فتح الباب لهم، وأنّهم فتّشوا البيت تفتيشًا دقيقًا بحثًا عن سبب

Twitter: @ketab_n

الرائحة النتنة النفّاذة المنتشرة في المكان، ولم يجدوا إلاّ بعض الأطعمة التالفة. نهر عصام أقاربه وسبّهم ولعن الشرطة وقادتها وكذلك الجيران، فتركوه في عزلته بعد أن نصح قائد الشرطة أهله بعيدي الصلة بعرضه على أطبّاء نفسيين. خشي الأهل من اتخاذ هذه الخطوة، فقد يرفض ويثور عليهم وينكّل بهم، واكتفوا بما طمأنهم به البوّاب من أنّه اعتاد زيارة عصام مرّتين في الأسبوع بناء على تعليماته لشراء احتياجاته.. كانت مارشا تخبرني بما سمعته وأنا لا أعلّق وعوض يرجوني التدخّل ولا أعبأ، حتى أنّني لم أتحرّك عندما ألقت عليّ ديانا نظرة احتقار وانصرفت غاضبة، وتركت مارشا تكاد تأكلها بعينيها وهي خارجة.

تفرغت لكريم بعد خروجه من السجن، لكنّني لم أصطحب معي الكاميرا ولا الأقلام أو الورق. في أوّل ليلة معهم بالقصر المتهدّم، حزمت متعلّقاتي في حقيبة كانت معي وأعطيته القفل والمفتاح فاندهش جدًّا، لكنّه بفطرته أحسّ بي دون أن يجرؤ على سؤالي، غاب عنّي قليلاً وعاد بسيجارتيْ حشيش ناولني إحداهما وبدأ في تدخين الأخرى، دخّنت قليلاً ثم سألته هل غيّر مزاجه إلى الحشيش فنفى بقوّة كأنّي أهينه، ثم ابتسم وقال إنّه اشتراهما من أجلي. سألته عن أسباب الحبسة الأخيرة، فابتسم وقال: شويّة محاضر تسوّل وضرب قديمة، بأخلّصها أوّل بأوّل، سألني: هو أنت مش هاتصوِّر النهارده؟ قلت له بتأكيد: لا النهارده ولا بكرة، ولا أيّ يوم تاني.. سألني هذه المرّة بدهشة أكبر: معقولة الفيلم خلص؟ هو أنت صوّرت حاجة يا أستاذ وأنا في السجن، أومأت برأسي نافيًا، فاستطرد بحيرة: طب أنت كنت قايل لي قبل ما اتحبِس لسّه شويّة على آخر الفيلم.. إيه اللي خلاّك تبطّل؟ سكتُّ تمامًا، لكن فضوله غلبه، فقال متحسّسًا كلماته حتى لا يضايقني: هي الخواجاية ولا مؤاخذة السبب. أنهى قوله، وعندما رآني

Twitter: @ketab_n

لم أعلّق ولم يَبْدُ عليّ الغضب قال بجرأة أكبر: كويّس يا أستاذ مصطفى إنّك خلصت منها دي زيّها زي وردة.. يعني لا مؤاخذة لو تعبت شويّة معاها هاتجيب بدالك واحد تاني. انطلقت في الضحك، فكريم رغم الكون الواسع الذي يمرح ويلهو فيه مدّعيًا الحرّيّة، مازال أسيرًا لهذه البنت الجربانة المقشّفة، كأنّ الكون كلّه قد خلا إلاّ منها، وكأنّها النجم الذي يسير على هداه. أربكت ضحكتي كريم فسكتُّ وظلّ ينظر لي بحيرة، قلت له بوداعة: أنا والست الخواجاية زيّ السمن على العسل.. ما تعكش.. بان عليه الخجل لكنّه أعاد السؤال: أُمّال الفيلم ماخلصش ليه؟ أجبته بهدوء: اسكت دلوقتي وبعدين أقولك، ثم استدركت: مش النهارده.. يمكن في الأيّام الجايّه. احترم صمتي ولم يتدخّل، ومن المحتمل أن يكون قد أحسّ بما أَمُرُّ به من ضيق لأنّه أبدى تودّدًا كبيرًا، وكان يتمنّى أن يخدمني بأيّ شيء، كان يصرخ في الأولاد كي يبتعدوا عنّي أو لا يتحرّكوا أمامنا بضجيج، وكنت ولأوّل مرّة هناك أتمنّى أن يتركني كريم أبيت في حضن إحداهنّ أو يغض الطرف عن معاكستهنّ ومراوداتهنّ لي عن نفسي، أتمنّى أن يبتعد عنّي بحثًا عن سبوباته وأن يتركني أتعرّض لأذاهنّ أو مُتَعِهِنّ أو حتى مآسيهن.. أرغب في التلصّص على قذارتهم الجنسيّة، على شجارهم الدموي العنيف، على دمائهم القانية المندفعة من الجروح، كنت بحاجة إلى أن يعزلني شيء عن كل ما يحيط بي، لكن هيهات لا أنا ولا هو امتلكنا الجرأة للتواصل، كانت الجسور بيننا مهدّمة من فرط قذارته وواقعيّته ومن فرط ادعائي وخيالي. [لو تعلم يا كريم أنّي الآن أتمنّى أن أغوص في الوحل.. أريد الموت قذارة.. أن أتطهّر بالوسخ فربما لن يتجنّبني الوسخ ويظهر لي اشمئزازًا، العلم والتنظير والبوتقة التي نعيش فيها ونحتمي وراءها عَزَلَتْنا عن العالم الحقيقي، صنعنا عالمًا آخر موازيًا ليس جميلاً ولا محمّلاً بالمُثل، بل عالمًا تافهًا متعاليًا خاليًا

Twitter: @ketab_n

من الروح]. . ماذا فعلت لكريم غير أنّي أفسدته بسلوكيّات جوفاء اكتسبها من الأيّام القليلة التي اقترب فيها منّي، حرّم على نفسه البصق أمامي أو الشخر، أصبح يتحرّج من مطالبتهم له بنصيبهم في الأكل أو النقود أمامي، كان يتحمّل مغالطاتهم بهدوء حتى لا يخرج عنه فعل قبيح في وجودي، ولو صادف أن أرادت إحداهنّ محاسبته نهرها بعينه حتى تختفي من أمامه، وعندما لمته مرّة أخرى خوفًا من أن تفسد سلوكيّاته الجديدة فيلمنا، قال لي ببسمة عريضة: ما تخافش يا أستاذ ها قول كل حاجه قدّام الكاميرا.

يئست تمامًا من أن يترك لي مساحة للخروج من شرنقتي، طلبت منه أن يتركني برجاء أبيت ليلتي، هَمّ بوضع الحقيبة في الدرج وأغلق القفل عليها، منعته وأنا أخبره بأنّي سآخذ كل متعلّقاتي في صبيحة الغد، قال بحسرة: إنت مش هاترجع تاني يا أستاذ، وعدته بالعودة وطلبت منه برجاء وحسم ألاّ يتورّط فيما يخالف القانون في الأيّام القادمة لأنّي سأحتاجه بشدّة، تهلّل وجهه وقال ببسمة: تحت أمرك يا أستاذ. وأردف بمغزى: في أيّ حاجة تعوزها. .

في الصباح غادرت القصر، ولحقت بعوض قبل لحظات من مغادرته مسكنه في طريقه إلى المستشفى التي ستلد فيها زوجته عائشة، قلت له إنّي لن أعطّله كثيرًا فقد أتيت إليه لأمر شديد الأهمّيّة، تحفّزتْ أذنه لسماعي وبدا على كل جسده الترقّب والانتباه وهو يحدّق تجاه فمي كأنّه ينتظر أن يخرج منه ثعبان ضار. قلت له إنّني أودعت لوحات عصام واسكتشاته في جاليري الكاتاكومب، وبلّغتهم بعد إذنه طبعًا بإرسالها إليه ليحتفظ بها بصفة أمانة حتى يبرأ عصام من علّته أو يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. قال لي بحياد الأوروبيين وبرودهم: لماذا لا تحتفظ بها أنت، وهو صديقك قبل منّي؟ كنت لا أريد أن أطيل عليه وهو في طريقه لاستقبال ابنه الأوّل ولا عندي الرغبة في المجادلة

Twitter: @ketab_n

والمهاترة، قلت له بحدّة: هل ستحتفظ بها أم أطلب من الجاليري إرسالها لإيفلين بالفيّوم؟ انتبه واستشعر الخطر، فاعتدل وقال باستفسار قلق: هو أنت مسافر؟.. نهضت وسلّمت عليه مودّعًا، وأنا أخبره بأنّي سأمرّ عليه في يوم آخر وأبلغه بكل التفاصيل.

كنت سعيدًا لأنّ اللوحات والاسكتشات ستكون بحوزة عوض، وأنّ مصيرها سيؤول إلى البيوتات الغربيّة أو القصور الأميركيّة وهي ما تستحقّه هذه اللوحات التي لا نستحقّها. عن قصد لم أمنحها لمارشا لأنّ مصيرنا مشترك سواء شئت أم أبيت، لم يكن بخططي بيع شقّة وسط البلد لأفراد أو لشركة التأمين رغم كوني عالمًا بأنّي لن أعود إليها أبدًا بعد اعتزامي الرحيل، كما فضّلت ألاّ أكتبها باسم أحد وأترك الورثة يتطاحنون عليها، ويتقاتل بعضهم، والأقدر والأقوى قذارة وبلطجة يحصل على النصيب الأكبر باستثناء المكتبة التي سأكتبها باسم ابن أختي الذي رغب في اقتنائها. يتبقّى بعد ذلك المال الذي أملكه والذي عملت وذللت وكابدت من أجله، ثم أتت اللحظة التي تجتاح كلاًّ منّا أحيانًا والتي تخبره بأنّه كان يقاتل ويقتل نفسه من أجل فائض لن يستفيد به وريع سيرتع فيه من لا يستحقّ، لن أهب لكريم وصحبته بعضًا منه لأنّي بذلك أكون في منتهى الجنون وهذا طبيعي، وأكون أيضًا في منتهى التهوّر والغباء وهذا ما أرفضه. فمهما منحتهم أو أوقفت عليهم بعض مالي ستبدّده الكُلّة في أشهر قليلة وسيسجنون بسببه وتطاردني الشائعات القذرة التي قد تسيء تفسير الأمر، لكنّي رغم ذلك لن أترك مالي نهبًا لموظّفي البنوك والمرابين والورثة وجباة الضرائب، ويعذّبني هذا إلى يوم الدين، ويجعل كل ما عملت من أجله في حياتي - إذا كنت قد عملت شيئًا ذا نفع - قبض ريح. كان هذا ما يشغلني ويجعلني أناضل كي أحلّ هذه المسألة حلاًّ مرضيًا.

كلّفت كريم بالبحث عن كشك أو محلّ صغير لكي أشتريه له حتى

Twitter: @ketab_n

يمارس به أيّ عمل تجاري، قال لي بفزع: عيب يا أستاذ مصطفى إنت عايزهم يقتلوني؟!

اندهشت: مين دول اللي يقتلوك؟!

ردّ بسرعة: الأولاد أصحابي..

ثم أردف متعجّبًا من قلّة فهمي: هايقولوا إنّك جبت الفلوس دي من عرقهم، ولاً سرقت سريقة من وراهم وما ادتهمش نصيبهم.

صرخت في وجهه: يا متخلّف حتفضل كده لمّا الكُلة تموّتك. فكّر شويّة أكيد هاتتحِبِس حبسة طويلة في يوم من الأيّام وتخرج تلاقي العيال دي كبرت وبقت زعماء ومش هاتقدر عليهم وهايطردوك زي الكلب..

تأثّر جدًّا من كلامي وانتبه، ثم قال: يعني إنت شايف كده؟

ابتسمت لإقناعه: أيوه شايف كده وأكتر من كده.. أنا هاشتريلك المحلّ وبعدين تقدر تعمله أيّ حاجه إن شاء الله موان تبيع فيه الدهانات للصنايعيّة والكُلّة لأصحابك..

ضحك ضحكة خالصة من القلب وخبط على يدي منتشيًا وهو يقول: والله العظيم فكرة.. أنا موافق على الكُلّة، ثم اقترب منّي وهمس في أذني: وانتَ عايزني أعمل لك إيه؟

لم أفهم. لكنّه لكزني كأنّي صديقه الحميم، وقال: يعني عايزني أعمل إيه عشان تدّيني المحل؟

ضحكت ثم لمعت برأسي فكرة وقلت له بحماس: بعدين أقولك..

قبل أن أنصرف أوصيته بالبحث الجادّ وبسرعة، وأن يهاتفني بمجرّد استقراره على المكان، ثم تذكّرت شيئًا فقلت له: معاك بطاقة؟ أخرجها من جيبه بسرعة فاطمأننت، وهو يدلي لوح الخشب كي أنزل عليه. صمّم أن يحمل عنّي الحقيبة وأوصلني حتى رصيف الشارع المقابل للقصر لأوّل مرّة من مرّات تواجدي بهذا المكان.

Twitter: @ketab_n

بمكتب المحامي جهّزت العقود والتوصيات واتفقت معه على تسجيلها بالشهر العقاري صبيحة اليوم التالي، وأوصيته بكتابة عقد محكم لكريم لا تكون به ثغرة واحدة يستفيد منها بائع المكان ويستردّه منه مرّة أخرى حتى لو أعدم كريم أو سجن سجنًا مؤبّدًا. كانت أفكاري غير مرتّبة وخطوط عريضة تتقاطع فيها، لكن ليس هناك شيء واضح أمامي. أهملت دوائي عامدًا وأوهمت مارشا بأنّي منكبّ على العمل بينما كنت أسعى حثيثًا لتصفية كل شيء، اشتريت لأولاد أختي شهادات استثماريّة بمبالغ كبيرة تستحقّ الصرف بعد خمسة عشر عامًا ووضعتها في حقيبة صغيرة محكمة الإقفال، بالإضافة إلى مبلغ مالي كبير بالدولار واصطحبت عوض لكي يودعها في خزينة أحد البنوك، وتركت لديه المظروف الذي به شهادات الاستثمار والمظروف الذي به خطاب لزينب وعليه تفاصيل الاتصال بها إن عادت مرّة أخرى لمصر، وعلى عوض أن يعطيها هذه الحقيبة فور عودتها، كانت حالة عوض مريعة: يبدو قلقًا متوجّسًا، وحاولت طمأنته بشتّى الطرق لدرجة أنّني أخبرته بسرّ رحيلي وهجرتي، ورجوته ألاّ يخبر أحدًا وبالأخصّ مارشا إلاّ بعد مغادرتي. لم يبدُ عليه الاقتناع حتى أقسمت بابنه الرضيع أنّني صادق. جادلني كثيرًا كي يعرف أسباب سفري ودواعيه وغرضه ولم يخرج منّي شيء. لم يسكت أو يهدأ إلاّ بعد أن أقسمت له مرّة أخرى بأنّه سيكون أوّل من أراسله وسأبلّغه بمكاني حتى لو كنت بالجحيم. تركت عوض وأنا أحسّ بأنّي قد وضعته في الجحيم فعلاً.. كنت كالاستعمار القديم عندما كان يرسم الحدود بين مستعمراته بمثابة ألغام متأهّبة للانفجار، وعندما يرحل عن هذه المستعمرات تظلّ هذه الحدود بمثابة جروح متقيّحة تأبى أن تندمل بين شعوب الوطن الواحد أو الجيران، لقد أودعت لديه مظروفًا ملغمًا وملوّثًا بإشعاعات خطيرة، ولو التقى بزينب أو تعرّف إليها وهو يعطيها مظروفها فمن المؤكد أنّ

Twitter: @ketab_n

زينب ستأخذه معها إلى الجحيم الفعلي ولن يصبح بحاجة لأن أراسله.

وصلت إلى درجات عليا من درجات اليقين وأصبحت أرى رؤى نورانيّة ومشاهد متتالية من الجحيم، واختلطت لديّ الأيّام والنهارات والأمسيات وأصبحت متخبّطًا ما بين رؤية ضبابيّة مشوّشة وذهن صافٍ رائق كالحليب، ولا أدري كم من الأيّام لبدتُ داخل كهفي كامنًا، حتى أخرجتني منه مارشا وهي تهاتفني بصياح وغضب وغيظ، لتخبرني بأنّ شقّتها قد سُرقت. لم أستوعب وقلت بذهن متبلّد: أبلغي الشرطة، ردّت عليّ بحدّة وهي تقول لن أبلغ أحدًا، فأنا أعرف السارق! هل ستتركني أواجهه بمفردي أم ستأتي؟ ثم أغلقت الهاتف بعنف، ارتديت الملابس التي تصادف وجودها أمامي وانطلقت إليها. لم تعجبني لهجتها ولم يعجبني انصياعي من جديد لها.. شغلت نفسي بالتفكير في السارق الذي تعرفه والمسروقات التي سرقت وأهمّيّتها، وخشيت أن تتّهم كريم أو وردة وتدّعي أنّ أحدًا من طرفهما هو الذي سرقها فتفتح علينا بوّابة جهنّم لو تصاعد الأمر ووصل إلى الشرطة، كنت أسارع الزمن للحاق بها قبل أن تنشب الكارثة، قالت إنّها لن تبلغ أحدًا لكنّي أدرى بها ولو تأخّرت عنها قليلاً لاتصلتْ بالسفارة ولخاطبت البوليس الدولي مباشرة ربما قبل البوليس المحلّي..

فتحت لي الباب بسرعة ولم تبادلني حرفًا حتى أغلقت الباب خلفي. في الهُول كانت الخادمة جوليا جالسة على الكرسي مقيّدة ووجهها منتفخ من أثر الصفعات التي كالتها لها مارشا، تنفّست الصعداء وأنا أرى جوليا بينما ماتت البنت رعبًا وهي تراني، كانت عيناها حمراوين تمامًا بلون الدم لكن لا أثر للدموع، لكنّها تنفي بشدّة أنّها السارقة، سحبت كرسيًّا وجلست في مواجهتها كالمحقّق في الأفلام الأميركيّة، ظللت أتفرّس في وجهها دون كلام، كان لون بشرتها الغامق يكاد يضيء وشعرها المجدول جعل فروة رأسها تبدو

Twitter: @ketab_n

كالكرة الأرضيّة. . وكانت شفتاها الغليظتان ترتعشان وأنفها الرقيق متورّمًا بعض الشيء من عنف مارشا. كلّما اقتربت خطوة بالكرسي إلى الأمام كانت البنت تصرخ وتزداد رعدتها كأنّني الشيطان، ويبدو أنّ هذا انطباعها عنّي منذ زمن ضخّمته مارشا بعد أن هدّدتها بي وصوّرتني لها متوحّشًا. لم أمدّ عليها يدي، فقط سألتها أين خبّأت المسروقات؟ وكانت تنفي بجنون، تركتها وسحبت مارشا إلى داخل المطبخ لأعرف ماهيّة المسروقات. . أبلغتني مارشا أنّ المبلغ المسروق يبلغ عشرة آلاف دولار قيمة الدفعة الأولى من منحة هولندا، وأنّ السرقة تمّت بعد أن سحبتهم من البنك تمهيدًا لدفع عربون لشركة كوداك تحت حساب شراء الأفلام الخام بالإضافة إلى بعض الخدمات الإنتاجيّة الأخرى. لم أعلّق على سبب استبقاء هذا المبلغ الكبير بالمنزل ولا على تبريرها الضعيف، سألتها. . هل فتّشت الشقّة كلّها؟ أخبرتني أنّها لم تترك ركنًا لم تفتّشه، ثم أشارت إلى حقيبة كبيرة بجوار موقد الغاز وقالت: دي شنطة جوليا. . حطّت فيها كل هدومها وأغراضها تمهيدًا للفرار. هممت بأن أفتّش الحقيبة، قالت بثقة لن تجد شيئًا مهمًّا. كان من الواضح أنّ جوليا وابن عمها بعد أن فقدا الأمل في الهجرة عقب رفعت الأمم المتحدة يدها عن دعم المهاجرين، وإعادة توطينهم، بحجّة أنّ اتفاقيّة للسلام قد أبرمت بين شمال السودان وجنوبه واستقرّت الأوضاع، قد قرّرا الاعتماد على نفسيهما وقرّرا الهجرة بعيدًا عن اتفاقيّات الأمم المتحدة. لو اتصلت مارشا بالشرطة لفسد الأمر ولن تعود النقود وقد يشمّ سبت ابن عمها الخبر ويهرب بمفرده متخلّيًا عن جوليا غير مهتمّ بمصيرها، كان لابدّ من إجبارها على الكلام حتى تعترف: هل أعطتهم لسبت فعلاً أم خبّأتهم بمكان ما ولم تسلّمه أي شيء بعد. كان وجه مارشا محتقنًا من الغضب والإثارة، فسألتها بهمس عن صديقاتها اللواتي دخلن شقّتها أمس قبل واقعة السرقة،

Twitter: @ketab_n

أجابتني بحدّة بأنّه لم يدخل أحد شقّتها منذ ثلاثة أيّام، طلبت منها أن تهدأ وألاّ تتدخل في أسلوب إدارتي لحلّ الأزمة، فابتسمت لأوّل مرّة منذ جئت ولم تعلّق، ففككت قيود جوليا ورحت أحايلها بالعفو عنها وبأنّني سأجبر مارشا على التغاضي عن موضوع السرقة وسأجعلها تساعدها في الهجرة إلى أميركا. كانت فقط تشهق كالذي يشرف على الموت وتغيب في إغماءات متتالية قصيرة الأمد وصدرها يرتفع ويهبط بعنف كأنّها مصرّة على أن تدفع مقابل هذه النقود إهانات وضربًا وسجنًا، ولمّا وجدتني لا أمدّ عليها يدي كما كانت تتصوّر، بدأ صوتها يرتفع بالنفي واتهامنا بالظلم والافتراء، وأنّنا نمارس ضدّها تمييزًا عنصريًا لأنّنا اتهمناها ولم نتّهم صديقة مارشا التي كانت تسهر معها ليلة أمس، فاجأني كلام جوليا فالتفتُّ إلى مارشا التي قالت بمنتهى الهدوء: تقصد ديانا.. المتخلّفة عايزاني أشكّ في ديانا!

كأنّها مجرّد هواء ومن العادي ألاّ تخبرني أنّها كانت موجودة. عندما أعادت جوليا ذكر ديانا، استفزّت مارشا تمامًا وفقدت تماسكها، واقتربت منها قاصدة التدخّل فأبعدتها عنها، وخلعتُ حزام بنطلوني الجلدي وجذبتها من الكرسي على الأرض وطاردتها في كافّة أنحاء الشقّة، وكلّما وقع الحزام على جدار أو منضدة أحدث صوتًا مدوّيًا.. شاركتني مارشا في مطاردتها وظلّت الفتاة تتغلّب علينا بقفزاتها البهلوانيّة على الأرائك والكراسي، حتى خرجت إلى الشرفة.. كانت منزوية في ركن الشرفة وقد أغلقت مارشا الباب خلفي حتى لا تهرب من تحت ذراعي، وأغلقت الباب الآخر للغرفة المشتركة. وكنت أسند ظهري إلى زجاج باب الشرفة وأكابد حتى لا تبين على ملامحي علامات خوفي من الأماكن العالية، وكانت تنظر كقطّ محاصر. وأنا أحاول تهدئتها وعندما أوهمتها بالاقتراب منها والإمساك بها، امتلكها رعب لا حدّ له وقفزت من الشرفة البالغ ارتفاعها أربعة عشر طابقًا..

Twitter: @ketab_n

- ٣٢ -

جرّتني مارشا إلى الداخل وهي تخبط على صدري بعنف حتى انتبهت، كانت تتكلّم بلا انقطاع وكانت اللغات تدخل رأسي، فتفقد مدلولها ولا أعرف ماذا تعني، الذي أذكره أنّها فتحت باب شقّتها بثبات قاتل محترف وطلبت منّي أن أختبئ في الأسفل في شقّة ديانا، الخوف دفعني إلى هبوط الأحد عشر طابقًا بسرعة مذهلة حتى وصلت إلى شقّتها بالدور الثالث، كانت ديانا واقفة خلف الباب الموارب وشدّتني إلى الداخل بسرعة، كنت بداخل فيلم خيال علمي أو أحد أفلام هيتشكوك، أجلستني على الأريكة وأحضرت لي كوبًا من الليمون المثلّج، أصرّت أن أشربه وهي تطالبني بالتماسك وتقول إنّ مارشا أخبرتها بما حدث. كنت كالمحموم ساندتني ديانا حتى أرقدتني على سريرها وهي تنظر نحوي بإشفاق، كان العرق يتفصّد منّي وأرتعد كمن تلبّسه الشيطان. أربكتها حالتي فخرجت وعادت بسرعة وفي يدها كأس من الويسكي شربته في لحظات، مضت بأصابعها تمرّرها على وجهي وخلف أذني وتضغط على صدغي، أحسست براحة كبيرة، انطلقت أصابعها في كل مكان بجسمي وبدأ ضوء أخضر يغشاني ثم انفصلت عن الوجود. . . استيقظت بعد ساعات والليل في أوّله، على أصوات مارشا وديانا وصوفي يتجادلن. عندما أحسّت مارشا بحركتي اندفعت إلى داخل الغرفة وخلفها ديانا وصوفي، احتضنتني وبكت وطلبت منهما الانصراف فخرجتا تاركتين إيّانا بمفردنا. قالت إنّ الأمور تمّت بخير وأنّ الشرطة تفهّمت دواعي انتحار جوليا، وأنّهم يبحثون عن سبت ابن

Twitter: @ketab_n

عمها لإعادة أموالها إليها، كنت مختبئًا في حضنها وصوتها يهدر في أذني، قالت أيضًا إنّ رجال الشرطة عاملوها بأدب وذوق ولم يتطلّب الأمر تدخّل السفارة، ارتفعت برأسي إليها وأنا أسألها عن جوليا..؟ فقالت باستغراب:.. جوليا ماتت يا مصطفى.. عايزها ترمي نفسها من العلو ده كله وما تمتش.. أنت كنت فاكرها الرجل الوطواط، وابتسمت.. مارشا ابتسمت بعد أن شاركنا في قتل الفتاة المسكينة، واعتبرت ما أقوله مزاحًا يدعو للابتسام. سكتّ ولم أعلّق، فوجئت بعد ذلك بأنّ صوفي غادرت الشقّة وديانا أخذت مارشا لتبيت معها بالصالة قبالة باب الغرفة التي أبيت فيها، أردت مبادلة مكاني بمكانهما فرفضتا، أرادت ديانا أن تلمسني مرّة أخرى لأنام فرفضت بضيق، لم تتركني حتى أعطتني قرصًا منوّمًا.. ما سمعته منهما وهما بالخارج لا يخرج عن وصف انضباط رجال الشرطة وأخلاق رجال أمن المبنى الذين دعموا كلام مارشا، لم تتحدّثا عن الدم القاني الذي اندفع من جوليا. أو عن مخّها الذي تناثر على الأرض.. ولا حتى عن التلفيات التي أحدثها سقوطها بالسيّارات الواقفة أمام المبنى، لم يتحدّثا عن أحلام جوليا بالهجرة إلى الغرب.. إلى الجنّة الموعودة، كما كانت مارشا تملأ بها رأسي من قبل.. لم يتكلّما عن الإنسان والآدميّة. لم تؤكّد مارشا على شيء مثلما أكّدت أنّ نقودها ستعود قريبًا لنبدأ بها إنتاج الفيلم. نمت وأنا أحتضن وسادة صديق ديانا المطرب شريف، وأشمّ عرقه في كل ركن، نمت وأمامي صورة ابنتيها الصغيرتين وهما تتطلعان كل يوم لما تفعله أمّهما على السرير ذاته.

اليوم الطويل آن له أن ينتهي.. غادرت المبنى في الصباح مصحوبًا بتحيّات مندوبي أمن المبنى. كان هناك بعض البوّابين وعمّال الكراج متجمّعين حول جزء من نهر الشارع محدّد بالطبشور الأبيض على هيئة جسد صغير، وكانوا يتحدّثون حول الحادث ويشيرون إلى أعلى

Twitter: @ketab_n

ويمثّلون صوت الاصطدام، ومررت بجوارهم تمامًا ولم يحفلوا بي، ولا سقطت نظرات أعينهم عليّ، ولم تسعف أحدهم بصيرته كي يشير إليّ ويصرخ في الناس بأنّني القاتل فيقتصّوا منّي.

لقد هاجرت جوليا إلى الآخرة وسيهاجر ابن عمّها سبت إلى السجن، وأنا لا أدري هل طوّقت مارشا عنقي بجميل أم أحكمت عليه حبل المشنقة.. صرت مسؤولاً عن موت فتاة لم تبلغ العشرين من عمرها. ساقها قدرها من بلادها البعيدة وهي تنوء بأحلامها التي تكاد تقصم ظهرها وأولادها من بعدها وكل سلالتها.. حلم التحرّر والعيش بآدميّة.. ولم يتغيّر بالنسبة لها شيء. صارت خادمة ثم سارقة ثم منتحرة.. وماتت الأحلام موؤودة.. ما الثمن الذي تنتظره منّي مارشا مقابل تستّرها عليّ؟ وما هي الصفقة السرّيّة التي تبادلناها دون أن تتحدّث؟ هل ستجني من ورائي مالاً أم ترقية أم لومًا وتوبيخًا من الجهاز الأعلى الذي يتحكّم في مقدراتها. هل سآبه وأكترث أم أصير مثل جحا الذي اقتربت المضاجعة من مؤخّرته وظلّ متباهيًا بأمنه الشخصي؟

تغيّرت الاتصالات بيني وبين مارشا بعد هذه الحادثة، قلّ ما أتلقّاه منها وصارت تردّ عليّ بإيجاز.. لم أعد أطيق منزلها وصرت أتطيّر منه خوفًا. لُذت مرّة أخرى بقوقعتي الخاصّة وصرت أعقد حسابات معقّدة غير منتظمة وتكون كل النواتج خسائر فادحة، وأنا أفاضل بين أسوئها.. كلّمني المحامي ليخبرني بأنّ كريم اختار محلاً في حاجة لتعديلات ودهانات وأثاث. كلّفته بأن يشتريه ويجعله على أكمل وجه.. صرت لا أردّ على كريم ولا على أيّة مكالمة أخرى مجهولة حتى حلّ موعد افتتاح محلّ كريم الذي اختار مكانه بالوايلي، وأدهشني هذا جدًّا ثم دهشت أكثر عندما علمت أنّه قرّر أن يجعله «مسمط»..
ارتدى كريم ملابس نظيفة وانتظرني مع المحامي أسفل بيتي، وسلّم

Twitter: @ketab_n

عليّ بترحاب وهَمّ بتقبيلي لكنّني تنحّيت عنه. . أخذنا المحامي بسيّارته إلى المسمط الذي ترك كريم إدارته لأخيه الأكبر. استمتعت بالطعام جدًّا واستعدت شهيّتي. همست لكريم أسأله لماذا تخلّى عن فكرة الموان وغيّر النشاط وابتعد به عن مكان شلّته؟. . ابتسم بثقة وقال بتأنٍّ إنّ هذه المهنة مهنة عائلته وإنّ أخاه لن يأكله، وحتى إن أكله فلن يذهب «خيره بعيدًا». . ثم غمز لي وقال إنّه سيكمل كلامه معي على انفراد.

عقب الطعام اندفع يسبقني تجاه الحوض وظلّ واقفًا يمسك بالفوطة حتى انتهيت من غسل يدي وفمي، ثم ناولني إيّاها لأجفّف يديّ بعد أن رفضت أن يتولّى هو هذه المهمّة. . أدركت أنّه يريد الاختلاء بي ليقول لي شيئًا وتكدّر وجهي، فقد خفت أن يطالبني بنقود أكثر ويغيّر فكرتي عنه، وكان هذا من الممكن أن يجعلني أتخلّى عنه تمامًا فأنا لا أحبّ أن أخضع للابتزاز. . حدّقت فيه وقلت له بريبة: كنت عايز تقولي إيه؟ ابتسم وأشار لي بأن أخفض رأسي لكي يهمس في أذني فزادت ريبتي، لكنّه فاجأني بأنّه اختار هذا المكان البعيد وترك أخاه يديره حتى يكون بمنأى عن الأفكار السيّئة التي قد تراود أفراد شلّته بشأن كيفيّة حصوله على النقود خاصّة وهو يستعدّ لرحلة طويلة، سألته بدهشة: رحلة إيه؟ ضحك وهو يقول الرحلة إلى هاتبعتني فيها! أدهشني هذا الكلب الماكر الذي يبدو لي عالمًا بما يدور داخل مخّي وأذهلني ذكاؤه الفطري المبهر. . لكن حالتي المضطربة لم تجعلني متأكّدًا من أنه قال هذا بلغة عربيّة صحيحة أو عامّيّة مفهومة، أم أنّ مخّي أصبح يترجم ما يتلقّاه إلى اللغة العربيّة لكثرة ما سمعت من لهجات مختلفة. . لأنّ من المستحيل أن يتفوّه كريم بكلّ هذا وهو من أولاد الشوارع. المذهل أنّي كنت فعلاً أعدّ كريم لرحلة طويلة إن نجا منها، وكنت متردّدًا في كيفيّة التحدّث إليه بخصوصها وهو الذي قطع كل المسافة ليخبرني بأنّه مستعدّ.

Twitter: @ketab_n

عندما غادرت المحلّ اقترب كريم من موقعي بالسيّارة وهمس لي بأنّه جاهز في أيّ وقت، وأشار لي بيده بهذا المعنى. مال تجاهي المحامي وسألني عمّا يحدّثني بخصوصه كريم، فلم أردّ عليه، لم يخجل من نفسه وظلّ يكلّمني وكأنّه يعطيني درسًا عن مخاطر أولاد الشوارع وصعوبة حساب ردّ فعلهم، نهرته بخشونة وكنت قد طلبت منه في بداية التعامل معه ألاّ يكثر من الأسئلة، وألاّ يتعجّب وألاّ يبدي رأيه وسأجازيه جيّدًا، لذا أعدت تحذيره مرّة أخرى وأفهمته بأنّني من السهل عليّ طرده والاستعانة بمكتب محاماة آخر فلزم الصمت.

عدت إلى بيتي متخيّلاً أنّني نجحت في تصوّر سيناريو محكم لأيّامي المقبلة، لذا رقدت مرتاحًا وغفوت بعمق. .

بمجرّد أن استيقظت دخلت لآخذ حمّامي، وفجأة هاجمني صوت رنين محمولي حدّ البانيو، رنين متواصل لم ينقطع. . ولم يرد على ذهني غير زينب، خرجت بسرعة متصوّرًا أنّها هربت من رقابة خوليو وأرادت الاتصال بي لتستجير منه وتخبرني بأنّه يفرض عليها ألاّ تكلّمني. كانت ياسمين تحدّثني بلوم وعتاب لعدم اتصالي بها بعد عودتي، ولماذا لم أرسل لها ما كتبته أوّلاً بأوّل كما وعدتها. كانت تتكلّم كالطفلة اللحوح التي تخنق والديها بطلبات العيد، لم تعطني فرصة للردّ ولا لإيجاد تبريرات، وكان أكثر ما أغاظها هو تجاهلي اتصالاتها المتعدّدة، لم أجد مبرّرًا ولم أصرّح لها عن خيبتي من خذلانها لي عندما تركتني ملقى في الأتيليه. . كانت تتكلّم بانفعال شديد ثم فجأة تذكّرتْ مرضي، فسألتني بلهفة عن صحّتي ثم عاد لها سخطها فأخبرتني بشدّة بأنّها لن تتصل بي مرّة أخرى، وأنّني إن كنت أريد الاتصال بها فخطّها مفتوح على الدوام واستأذنتني وأغلقت الخطّ.

تحيّرني هذه الفتاة جدًّا. . أعاملها كثيرًا كأنثى مخضرمة وأتعامل مع

Twitter: @ketab_n

عقلها باحترام، لكنّها تفاجئني كثيرًا بتصرّفات طفوليّة تدهشني. في حوارنا المتبادل كانت تسمعني كأستاذ لها وأحيانًا نتجادل بندِّيّة، وفي بعض الأحيان ترتدّ طفلة تريد منّي أن أصطحبها إلى الملاهي، وأدفع أرجوحتها، وأنا معها أسرسب حبل ذكرياتي من أعماقه وأتذكّر الفترة الدراسيّة بالجامعة وصخبها فأتواصل معها، لكن بغتة عندما تتمادى في اجترار ذكرياتها تعود بنا إلى فترة دراستها الثانويّة والإعداديّة وما كانت تأمله لها المعلّمات وما كانت تكتبه لها الزميلات في الأوتوجرافات، لحظتها أكون على أقرب مسافة من طردها من أمامي أو لعنها، وآمرها بألاّ تعود أبدًا للقائي.. لكن سرعان ما تناقشني بجدِّيّة وبعقل مكتمل فأتراجع. تدهشني هذه البنت جدًّا وأكاد ألاّ أكون مستغربًا أو مندهشًا لتوقّعي بأن أراها تقابلني برداء المدرسة وبالشريطين على شعرها وبركبتها المجروحة إثر وقوعها على الأرض في الاشتباكات المدرسيّة، مثلما جاءتني بالوشاح المكتوب عليه «القدس لنا» وكانت مثار دهشة روّاد الأتيليه، وكنت في منتهى الخجل من هذه الطفلة المتمرّدة، طفلة تحدّثني عن اشتراكها في التظاهرة وتحكي لي عن العصي والهراوات التي نالتها وضربة العصا التي تلقّتها أعلى صدغها بالقرب من عينها. فجأة صفا ذهني جدًّا وتذكّرت كل شيء، كنت مرتبكًا جدًّا ونبضات قلبي تعلو بصوتها في محاولة يائسة للتشويش على عقلي، عدت أرى كيف أزاحت بطرف إصبعها حجابها كي أرى الندبة الزرقاء الشاحبة فوق الوحمة المتطابقة مع وحمة هند، إنّها البشارة وقد تعمّد باطن شعوري إخفاءها عنّي والتشويش عليّ حتى لا أتذكّرها.. يا الله.. كل هذه الأيّام التي تلت لقاءنا بالأتيليه ولم أتذكّرها.. كم أنت غاشم وقادر وعظيم الجبروت أيّها المخّ العنيد. هند تأتي وتعلن لي إشارتها كومضة البرق وتمحوها عن ذهني كل تلك الأيّام..! لست بحاجة إلى ظهور نوراني لكامل جسد هند حتى أعرف أنّها عادت. لقد وعدتني

Twitter: @ketab_n

بعد رحيلها وانسلّت كما ينسلّ العبير من الزهر. كما ينسلّ الضوء من القمر. كما تنسلّ الروح من الجسد. .

على الفور قمت وارتديت ملابسي بعجالة وانطلقت صوب بيتها، لم أزرها من قبل، ولم تكن في خططي زيارتها، لكنّني أوصلتها بعض المرّات للناصية القريبة من منزلها. . فتحت لي الباب جدّتها العجوز المسنّة. لم أسأل باسمها السماوي ولا الأرضي. القديم ولا الحديث. . فقط قلت للسيّدة: أنا مصطفى، رحّبت بي بقلق وسمحت لي بدخول الشقّة العتيقة وأجلستني بالصالة الضيّقة وهي تعاود الترحيب بي بصوت معدني، وتسألني بروتينيّة لماذا لم أتصل بالمنزل منذ فترة طويلة؟ عندما أجبتها بأنّي كنت مريضًا، تعاطفت معي قليلاً وظلّت تتمنّى لي السلامة. كانت تنظر إليّ بغيظ وهي جالسة أمامي لا تتحرّك ولا تودّ التحرّك. أزعجتها بنظراتي فسألتني ماذا أشرب؟ رفضت بإصرار، فقامت واتجهت إلى الداخل لكي تنادي عليها. . غبت في مطابقة تفاصيل المكان على ما تصوّرته عنه. ووجدت أنّهما متطابقان، ما كان بذهني وما هو واقع الآن. . مدخل ضيّق يغطّي الصالة الصغيرة وممرّ يواجه الصالة، على اليمين منه الغرفتان اليتيمتان في مواجهة مع المطبخ والحمّام. كنت أجلس في مواجهة الممرّ بالضبط. دخلت السيّدة الغرفة الأولى التي على اليمين، وكان بابها مواربًا ورأيت عليه ورقة كبيرة مرسومًا عليها بعض رسومات لم أنتبه لها فوق القَسَم الوطني المكتوب بالقلم الفلوماستر: «أقسم بالله أن أكون مخلصًا لجمهوريّة مصر العربيّة وأن أبذل قصارى جهدي لرفعتها والدفاع عنها ضدّ كل عدوّ وكل غاصب وأن أكون مثلاً صالحًا في أخلاقي وأعمالي والله على ما أقول شهيد». . تأكّدت أنّ هذه غرفتها. بمجرّد تأكّدي أغلق الباب خلف السيّدة كأنّه اكتفى بأن يريني علامته. خرجت الجدّة أوّلاً وخلفها كانت هند بالحجاب على جلباب نوم شتوي تمشي بجسد

Twitter: @ketab_n

فتاة صغيرة جدًّا متطابق تمامًا مع جسدها قديمًا عندما كنّا نذاكر سويًّا. . كانت هند أو ياسمين أو أيٌّ من الأسماء الدنيويّة المجرّدة تنظر إليّ برعب والجدّة تصرّ على أن أشرب البرتقال، رشفت رشفة ولم أرحهما بالكلام عن أسباب زيارتي المفاجئة. . كنت أتحيّن الفرصة للانفراد بها، وكانت متشبّثة بجدّتها كالخائفة من الاغتصاب. هممت بإشعال سيجارة أخرجتها من علبتي، قالت لي الجدّة ببرود أن أتوقّف لأنّ عندها حساسيّة بالصدر. . فشلت خطّتي في جعل الجدة تأتيني بمنفضة السجائر وأنفرد بالفتاة. كنت أقايض بالدنيا كلّها. . بما ربحته ونلته، بما بقي من عمري بلحظة ثانية أتطلّع فيها إلى البشارة. لم تعطني الجدّة اللعينة هذه الفرصة. وكانت الفتاة منكمشة ومرتعبة جدًّا، نظراتها تكاد تسألني أيّ المصائب أتيت بها؟ كنت حائرًا بين ظلّ عقلي يشدّني إلى ياسمين وغيب يشدّني إلى هند. . تململت العجوز في كرسيها وقالت كأنّها تحفّزني على الانصراف: تحبّ تتغدّى معانا يا أستاذ مصطفى؟

باغتُّها بالقبضة القاضية ووافقتُ فورًا، نظرت إليّ بدهشة ثم نهضت متثاقلة وتشعلقت بيدها الفتاة وهي تقول لها: ها دخل أساعدك يا تيتا. بدأت أصوات قرع الحلل وخبط الأواني وانسياب مياه الصنبور واحتكاك الأطباق والشوك المعدنيّة والسكاكين. . كان الصوت يعلو ويتزايد وكأنّهما في حفل جماعي لطرد العفاريت. وبدأ هذا الصوت المريع يوتّرني لكنّني تماسكت. . كان المطبخ بالجهة اليسرى من الممرّ، تخرج منه الأبخرة والأدخنة وسحب الغيظ والكره والدهشة المتصاعدة من فم العجوز، وكانت كل هذه الرياح تصل إلى مكاني بالصالة. . كنت كمن يتعذّب تعذيبًا وحشيًّا بوسائل غير تقليديّة، انهرت تمامًا واتخذت أشدّ قراراتي جنونًا في ذلك اليوم. تسلّلت على أطراف قدمي تجاه المطبخ وفاجأتهما وهما منهمكتان في التجهيزات التي

Twitter: @ketab_n

ورّطتهما بها. كنت أظنّ أنّ الفتاة بغير حجابها وأنّني سألمح البشارة مرّة أخرى. لكنّني وجدت الحجاب مازال كما هو. وقعت السكين من يد الفتاة وقفزت حبّة الطماطم من أمامها إلى الأرض. التفتت العجوز وتركت ما تقليه واندفعت بقوّة أكبر ممّا يبدو عليها لتقف بيني وبين الفتاة وهي تنظر إليّ برعب.. أربكني خوفهما فتبسمت، وادّعيت بأنّي لا أريدهما أن يبذلا جهدًا في إعداد الطعام، وأنّني سآكل من الطعام الموجود أيًّا كان. كانت عينا الفتاة تستصرخانني أن أوقف كل هذا الجنون، وكنت غير مبالٍ ومصرًّا على إتمام مهمّتي. طلبت منها بكلمات من خلف ظهر العجوز أن تترك ما بيدها قليلاً لأنّي أريدها في موضوع مهمّ. وأعطيت ظهري لهما وعدت إلى الصالة. جاءت إليّ الفتاة بغضب قاسٍ.. كانت محتدّة فاقدة السيطرة على نفسها، ثم همست بقسمات وجه حادّ: أستاذ مصطفى فيه إيه؟ همست لها بصوت حاولت أن يبدو متّزنًا: عايزك في موضوع مهمّ مش ها ياخد أكثر من خمس دقائق بس أرجوكي ما تخليش جدتك تيجي عشان أقدر أكمله.. بدهشة وحيرة سألتني: موضوع إيه؟ إنت قلقتني!

أومأت تجاه المطبخ بما يعني أن تتأكّد من انشغال الجدّة عنّا، أطاعتني وذهبت لتتفقّد الجدّة، ثم عادت تستحثّني بقلق على الكلام، كان الإيشارب محكمًا على رأسها بالكامل وحبّات العرق تكاد تضيء جبينها وكحل عينيها ورموشها السوداء وأهدابها تبرز جمال بشرتها البيضاء. اقتربت منها كأنّني سأفضي إليها بسرّ، ورجوتها أن تريني أثر الندبة، تراجعتْ للخلف مذعورة وأنا أواصل الرجاء والتوسّل، فزعت جدًّا ووضعت كفّيها حول جانبي رأسها كأنّها تحمي عرضها منّي. سكتت أصوات المطبخ فجأة فأدركت أنّ الجدّة قادمة، زدت من رجائي وتوسّلي ممّا أربكها أكثر وجعلها تتأهّب للنهوض والفرار.. مددت يدي كي أعيد إجلاسها فصرخت. زادني صراخها عندًا

Twitter: @ketab_n

فأمسكت بوجهها بقسوة محاولاً نزع الإيشارب كي أرى البشارة. كل صراخها وفزعها لم يجعلني أفلتها حتى رأيت البشارة ومسستها وتأكّدت أنّها هند. كانت العجوز تضرب على ظهري بضربات قويّة بعظام ذراعيها، وكان جسد الفتاة قد تحوّل بالكامل لجسد هند، ثم بدأت أرى بقايا الطماطم المتناثرة على الصدريّة التي تضعها فوق جلبابها. أعادتني إلى ذكرى الدماء وهيّجتني تمامًا، فظللت أبادلهنّ الصراخ بصراخ أقوى وأعلى، حتى اقتحم الجيران الشقّة، وأكدوا فيما بعد في التحقيقات بأنّي كنت أخنق الفتاة وأصرخ فيها كي تخرج من جسدها روح هند.

Twitter: @ketab_n

- ٣٣ -

أصرّت العجوز على ادعائها بأنّي اقتحمت الشقّة وهاجمت حفيدتها بغرض التحرّش بها واغتصابها، وجنّدت بعض جيران العمارة والشارع ممّن انهالوا عليّ ضربًا وصفعًا، والذين أكّدوا رؤيتهم لي وأنا أهمّ بالاعتداء على الفتاة الصغيرة، وكانوا يتحيّنون الفرصة وأنا أمام الضابط لإيذائي والتحرّش بي يدويًا، كأنّهم لم يكتفوا بما أحدثوه من جروح بجسدي كلّه، ولم ترضهم ما تركته قبضاتهم وركلاتهم من آثار لم تزل غائرة. لم تكن بي رغبة في الدفاع عن نفسي، بعدما رأيت ما أنا بحاجة إليه، وكنت متأهّبًا لما هو أقسى من الموت. كان الضابط ينظر إلى جراحي بتشفٍّ، ومساعدوه بدوا كالضباع الضارية وهم يتشمّمون دمائي ويتأهّبون للقضاء عليّ، وكانت الفتاة شاحبة شحوب الموت، ترتعد وتنهنه، وبدا على وجهها الفزع الذي ليس بعده من فزع أكبر. كنت غير عابئ بكل هؤلاء الناس والضابط الجالس والضباط المارّين والأمناء المساعدين والعجوز، كنت أنا والفتاة في كادر واحد بمعزل عن الكون، وكنت أتأمّلها بفضول، أحاول أن أستخلص ملامح هند من ياسمين، وكانت المهمّة صعبة تكاد تكون مستحيلة كمن يحاول فصل ألوان قوس قزح، لكنّي فجأة رأيت تلوّن الملامح، ظهرت لي نظرة هند قويّة جليّة بقسمات وجهها الصلبة إذا ما أرادت شيئًا، استصرخت هند ياسمين وجعلتها تهتف وتصرخ في وجه الضابط ثم تبكي في حضورهم جميعًا وهي تنكر كل ما ادّعوه عنّي. كانت العجوز ترتعش من الغضب وتهمّ بضرب الفتاة ثم ادّعت أنّ قلبها سيتوقّف

Twitter: @ketab_n

ونكس الجيران رؤوسهم وهم يهمهمون، وبدأ الضابط يتحرّى مرّة أخرى بتشكّك وهو ينقل البصر بيني وبين الفتاة، ثم يتطلّع إلى أوراقي المتناثرة أمامه، بطاقتي ورقمي القومي وكارت الفيزا وتصريح دخول مكتبة الجامعة الأميركيّة ومكتبة السفارة الأميركيّة وبطاقات زائر لعدد من المؤسّسات الصحفيّة، وبضع مئات من الدولارات. داعب الضابط هذه الأوراق بسبابته ثم همس يسألني بحيرة: هو إنتَ بتشتغل إيه؟ أومأت إليها وأنا أقول بثقة: أنا زميل هند بالجامعة، عاد التشنّج إلى العجوز وصرخت: مجنون.. مجنون، بينما اقتربت الفتاة بثقة وانحنت تجاه أذن الضابط وهي تنظر إليّ بودّ وتقول بصوت سمعه الجميع: أنا هند يا حضرة الضابط، ثم انطلقت تهمس له بكلام لم يسمعه غيرهما، كان الضابط بين الحين والآخر ينظر إليّ ويبتسم، ثم أجبرني على التوقيع على بعض الأوراق ولملم أوراقي وأعطاني إيّاها وهو يطلب منّي مراجعة طبيبي. كدت أسبّه لولا أن اندفعت العجوز تصرخ في الضابط لأنّه سيفرج عنّي. تحوّلت نحوها الفتاة بوجه مقاتلة وصرخت فيها بأن تسكت، وفوجئت العجوز بثورة الفتاة فسكتت تمامًا. قبل أن يصرفني الضابط اتجهت الفتاة إليّ ولحقت بها السيّدة لتمنعها من الاقتراب منّي، أبعدت الفتاة يد العجوز ونظرت إليها بحدّة، ثم واصلت خطواتها إليّ، اقتربت منّي ومدّت ذراعها لكي أتقدّمها إلى ركن قصي، انتحت بي هناك وسط دهشة الجميع، همست في أذني: أنا مش هاظهرلك تاني.. كفاية اللي عملته ده.. كان الصوت صوت هند. وأقسم بأنّها قالت لي هذه الكلمات، ولم تكن خيالات ولا ضلالات ولم أكن آمل في أكثر من هذا.. ابتسمت وعادت الدماء إلى وجهي ووقفت أمام الضابط منتشيًا وأنا أطول قامة منهم جميعًا. صرخ الضابط فيهم كلّهم أمرهم بأن يرحلوا ثم استبقاني أمامه حتى خرجوا، لوّح إليّ بورقة عدم التعرّض وهو يحذّرني من تكرار الأمر.. دقائق

Twitter: @ketab_n

وعادت الفتاة بمفردها، كان الضابط مشدوهًا لعودتها لكن فضوله أسكته، وقفت وبيننا مسافة لا تتعدّى نصف المتر، أحنت رأسها وقالت: أنا آسفة، وكان الصوت ياسمين، ثم قالت: مع السلامة، وكان الصوت هند، أدارت لي ظهرها وكان هذا إذنًا بالانصراف عن جسد ياسمين، وكنت مضطرًا لتخيّل كيف ستعود إليّ هند مرّة أخرى، في أيّ شكل أو في أيّ جسد، أو لن تظهر مرّة أخرى كما أنطقت ياسمين بلسانها.. حاول الضابط أن يفهم منّي شيئًا ويبدو أنّني سبّبت له ضجرًا بالغًا إلى درجة أنّه أمر مساعده بأن يقلّني إلى أقرب موقف باصات.

أجبرت نفسي على البقاء حبيس البيت لأكثر من خمسة أيّام، حتى تندمل جروحي وتختفي كدماتي، لم أكن أتلقّى أكثر من مكالمة في اليوم الواحد من مارشا تطمئنّ فيها عليّ، قالت إنّها أقامت لدى ديانا لأنّها لم تستطع أن تبقى في شقّتها بمفردها، وأنّها تفكّر في التخلّي عنها وستخبرني عندما تختار شقّة جديدة.. قلت لها أن تصبر الشهرين القادمين حتى انتهاء العقد السنوي ولا تجدّده، ولأوّل مرّة لم أستطع إقناعها بذلك.

كانت هذه أيّام المحامي وكنت أستدعيه كثيرًا لوضع كل الترتيبات اللازمة، وغضب منّي بشدّة أو ادّعى ذلك عندما رآني بحالتي المزرية ثاني يوم بعد حادثة القسم، وعاتبني لأنّي لم أستدعه كي يعطي الضابط ومخبريه درسًا لا ينسونه، وكنت أحمد الله في سرّي على أنّي لم أتهوّر وأستدعيه حتى لا نكون أنا وهو محبوسين إلى ما شاء الله، كانت بحوزتي متعلّقات لمارشا أهمّها الكاميرا الاحترافيّة وما دوّنته وما سجّلته بخصوص الفيلم، كنت قد استدعيت عوض الذي جاءني بسرعة غير متوقّعة وقلت له إنّي لن أكمل الفيلم مع مارشا، أطرق برأسه وأبدى تفهّمًا أدهشني. لم أشأ التورّط معه في أحاديث تبعدني عمّا

Twitter: @ketab_n

خطّطت له، لكنّه بادرني بطلب أذهلني.. قال إنّه موفد من مارشا لأخذ الكاميرا والشرائط وأنه كان متحرّجًا من زيارتي لولا اتصالي به، ثم قال يواسيني إنّ السبب فيما يحدث يرجع إلى ديانا التي أخافتها منّي بعد الحادثة المؤسفة لجوليا، وادّعت أنّها رأت بعيني ولعًا بالقتل وسفك الدماء. كنت مضطربًا جدًّا وعوض مصرّ على التخفيف عنّي بأنّ هذه ظروف طارئة تمرّ على مارشا وستعود المياه إلى مجاريها، كأنّي مهتمّ بعودتها أو رؤيتها مرّة أخرى. طلبت منه التوقّف عن الكلام في هذا الموضوع وأعطيته الكاميرا وأخذت منه حقيبة ملابسي وقلت له إنّي لن أسلّمها شريطًا واحدًا ممّا صوّرته ولتفعل ما بوسعها.. قال إنّه سيتوسّط بيننا، وأنّه سيزيل سوء التفاهم... قال أيضًا إنّها سحابة صيف.. وأنّها واقعة تحت تأثيرات ديانا. طلبت منه أن ينصرف فورًا.

أملك مسدس بريتا ٩ مللي منحني إيّاه المنتج يوسف حلمي بمباركة ابنه الشهيد سعيد، ظلّ المسدّس بحوزتي سنوات ولم أستخدمه فيما صنع من أجله، قال لي يوسف حلمي إنّ ابنه الشهيد أتاه في المنام وأخبره بأنّه سعيد جدًّا لأنّه أعطاني المسدّس.. من الواضح أنّه كان كابوسًا فظيعًا داهم يوسف حلمي فتصوّره حلمًا.. مسدّس جاهز للاستخدام ظلّ سنوات لديّ ولم تنطلق منه رصاصة واحدة.. ودانة خاملة ظلّت سنوات بغرفة الجوّالة ترى الطلبة والطالبات وهم يتغيّرون على الغرفة.. يدخلون الكلّيّة ويخرجون، وظلّت بانتظار هند لتفتك بجسدها!!

.. أخيرًا هاتفني كريم يقول لي إنّه جاهز. استدعيته لبيتي الذي يعرفه بعد أن اصطحبه إليه المحامي عند افتتاح مسمطه الجديد. كنت بانتظاره ولم تعد بي رغبة لأن أرى أحدًا لا عصام ولا أحمد الحلو ولا شاهيناز ولا زينب ولا ياسمين.. ولا إيفلين ولا عوض.. لم أكن سيّدًا في حياتي. كنت خادمًا ملعونًا لوسائل الرزق. ختامي مسك

Twitter: @ketab_n

وسام وجنون. . عشت غبيًّا خوّافًا لم تتجاوز أفكاري قفصي الصدري، بضعة أشهر قضيتها في المعتقل في أوّل حياتي أحالتني لسلّة قمامة، لكل قاذورات العالم. . لم أعد بعدها أجرؤ أن أجالس المسيّسين حتى في المقاهي. هربت إلى الخارج، وعندما عدت اختفيت خلف كاميرا تمتلكها أميركيّة. . ما الفرق بيني وبين من يملكون دكاكين حقوق الإنسان ومنع التميز وحقوق المرأة؟ زملاؤنا القدامى جاهروا بالسرِّيَّة وتاجروا بأسابيع اعتقالهم وملأوا الفضائيّات فخرًا بنضالهم. كنت أسمع صراخهم بنفسي. بكاءهم. توسّلاتهم. . وكنت أرى مكاسبهم الصغيرة التي حصلوا عليها بإفشاء أسرارنا. من منّا ظلّ صامدًا حتى الآن؟. . هم باعوا وقبضوا الثمن ونحن وُصِمنا بالجبن والتنازل. حمدًا لله على أنّنا لم نظلّ بالخندق نفسه لتطيح بنَا الرؤى المغايرة وتحوّلات العالم التي جاءت بما لم يخطر ببال بشر.

اليوم التاسع عشر والإسرائيليّون يدكّون لبنان. . لبنان الذي أصدر لي أوّل ديوان شعر، لبنان أصغر دولة عربيّة والمنوط بها الدفاع عن العرب، ارتكب القتلة مذبحة جديدة أمس في قانا، و«أولمرت» يطلب مهلة من كونداليزا رايس قدرها خمسة عشر يومًا فقط لاستكمال الهجوم على لبنان، صور الأطفال القتلى بالصحف تتدافع من الفراغ العريض أسفل عقب الباب، جمعت صورهم وقصصتها ولصقتها على ورق كرتون ولصقت بجوارها صور أطفال الإسرائيليين وهم يقبّلون الدانات التي ستنفجر في لبنان وتقتل هند مرّة أخرى. . علّقتها على حائط غرفة نومي التي هجرتها زينب. صاحب الدانة التي قتلت هند أصبح قائدًا الآن يخوض في دمائنا بالأقدام. . ومازلت أمتلك مسدس بريتا ٩ مللي. . نسي الشهيد سعيد أن يحمله معه قبل أن تطير طائرته في سماء الحرب. هل اشتعلت بك الطائرة يا سعيد دون أن تدري أو تحسّ؟ هل أصابت قذيفة جناح طائرتك فقفزت بمظلّتك وحاصروك،

Twitter: @ketab_n

ثم مددت يدك إلى سلاحك فلم تجده؟

دسست الأشرطة الديجيتال والسيناريو التفصيلي للفيلم وخطّة العمل والفكرة، وكيف اهتممت بها وكيف تحمّست لها مارشا داخل حقيبة رقميّة، وكتبت عليها من الخارج اسم مخرج صديق لي يعمل بالمركز القومي للسينما لكنّني لا أتذكّر عنوانه، كذلك تركت له خطابًا بأفضل ما يفعله بهذه الأشرطة. . جاء كريم فوصفت له مدينة السينما وكلّفته بأن يسلّم الحقيبة ليد صديقي المخرج بشحمه ولحمه ولا أحد سواه. كان كريم يستمع إليّ بإنصات، وعندما انتهيت من أوامري إليه. . سألني بقلق عمّا حدث لي، ثم سألني عن مارشا وهل قطعت علاقتي بها؟. . وبدأت أحكي وأروي له قصصًا عن الأجانب وعمّا ينتظرونه منّا وما يجبروننا على فعله. وطلبت منه أن يمنعهم بأيّة طريقة من إنهاء الفيلم وادّعيت أنّني اكتشفتهم بعد أن ورّطوني في التصوير. بدا كريم متبلّدًا لا يفهم مغزى كلامي، وأحسست بأنّ الفشل قريني في هذه الحياة. يئست منه تمامًا، لكن بالرغم من ذلك منحته المسدّس الذي ما إن رآه حتى لمعت عيناه وبدا متردّدًا في أخذه، ثم سألني ماذا يفعل به؟ فلم أجبه. . ثم عندما أمسكه بيده وظهرت السعادة جليّة على قسماته، طلبت منه أن يحتفظ به في مكان آمن وأن يكون حريصًا على ألاّ يراه أحد بحوزته. . ثم رويت له قصّة جوليا وكيف قفزت من النافذة وبان على وجهه التأثّر!

لفّ المسدّس بقطعة قماش ودسّه في بنطاله وحمل الحقيبة والظرف به المفتاح والرسالة الموجّهة إلى صديقي المخرج، واتجه إلى الباب ثم وضعها على الأرض وتذكّرني وعاد. . احتضنني بدفء وقال لي أن أطمئنّ، ثم غاب عن نظري.

لم أعد بحاجة إلى كل هذه الأدوية والعقاقير ممّا يحقّق لي الانسجام النفسي، ويخلّصني من الأرق أو مضادّات الاكتئاب، أو ما يجعلني متبلّد الحسّ أو يحدّ من هوسي المرح أو يصالحني مع

Twitter: @ketab_n

نفسي.. أفرغت كل الحبوب أمامي، الصفراء.. الزرقاء.. والحمراء.. والكحلي الفاتح والبرتقالي.. والزهري والقرمزي.. والأخضر والأبيض.. وسن الفيل.. الكبسولات والأقراص المستديرة والمربّعة والمثلّثة والأسطوانيّة... شكّلت منها مدنًا وأكواخًا، أشجارًا تثمر ألوانًا قزحيّة، قضبانًا حديديّة ملوّنة، قطارات بأدخنة لونها برتقالي، ملعب كرة قدم كبير أطارد فيه الحبّة بسبابتي المقوّسة ثم أقذفها بظفري فتتجاوز الملعب والجماهير.. أفرغت كؤوسي الواحد تلو الآخر، ثم بدأت أتذوّق هذه الكرات واستحلبها، امتزج الحلو بالمرّ باللاذع بعديم الطعم.

ثم لم أعد أرى غير شارع ممتدّ بلا نهاية، بلا سحب في الأفق ولا غيوم ولا سيّارات ولا زحام مركبات، ليس فيه إلاّ جحافل من بشر قادمين باتجاهي.. محجّبات وسافرات، موظّفين وأطفال مدارس، بائعي مناديل وحواة، باعة جائلين يحملون بضائعهم كالنعوش، فتيات ليل يبتسمن ويقبلن عليَّ بأذرعهنّ العارية، رجال دين مكفهرّين، قطط تمتطي كلابًا، حمام بمناقير صقور وشجر برؤوس شياطين...

الشارع ممتدّ على مدى البصر، يلفظ جوفُه الناس والحيوانات والجماد، وكنت أسمع صوت أنفاسهم، وهدير حركتهم وهم يفسحون لي طريقًا كي أمرّ دون أن ينظروا تجاهي أو يقتربوا منّي.. ثم بدأت أرى خلفهم مساحة بيضاء تمامًا منزوعة الهواء. ريحها ساكن.. ثم رأيت خلقًا كثيرًا يلوّحون لي من خلف هذه المسافة. يوسف حلمي وابنه الشهيد... أمّي وجوليا.. هند وسامنثا.. وعندما دخلت تلك المساحة توقّف كل شيء، فلم أعد أسمع أو أرى إلاّ محض فراغ.

«انتهت»

القاهرة/ في ١٩ أكتوبر ٢٠٠٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

صدر للكاتب

* **الركض وراء الضوء** ـ مجموعة قصصيّة.
* **حالة رومانسيّة** ـ مجموعة قصصيّة.
* **فئران السفينة** ـ رواية (أربع طبعات).
* **راكبة المقعد الخلفي** ـ مجموعة قصصيّة.

Twitter: @ketab_n

في الأيام الأخيرة بالذات، بدأتُ أشعر بهم يحيطون بي في كلّ.. مكان. وبدأت أحلم بهم.. أسير في شوارع وسط البلد التي أحفظها جيّدًا، وفي منطقة الهرم التي ولدتُ فيها، وفي حي الحسين الذي أعشقه، فلا أجد أحدًا أمامي غير الأجانب.. أذني تلتقط لغاتٍ مختلفةً ليست اللغة العربية من بينها.
دائما يقابلونني وجهًا لوجه.. بجواري لا أحد. وخلفي لا أحد.. وهم صفوف كثيفة على مرمى البصر.

تم ترشيح هذه الرواية للائحة القصيرة لجائزة «بوكر» العربية. وهذا بعض ما جاء في لجنة التحكيم عن تغريدة البجعة:
يشتقّ مكاوي سعيد في هذه الرواية الشكل الروائي من واقع اجتماعي متحوّل متبدّل، ويعيّن الشكل الجديد مدخلاً إلى قراءة الواقع وتحوُّلاته، في عمل روائي جميل يرثي زمنًا غنائيًا مضى، ويصوغ المستقبل المحتمل بأسئلة بلا إجابات.

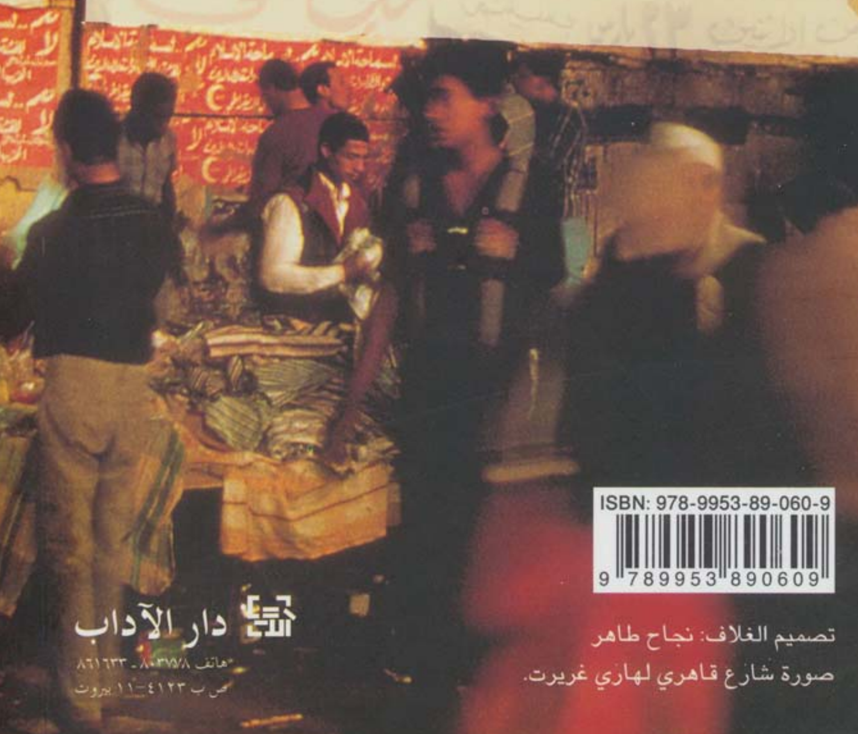

ISBN: 978-9953-89-060-9

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
صورة شارع قاهري لهاري غريرت.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧/٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت